صبابة
وثورة شك

رواية

ديوان العرب للنشر والتوزيع

ديــوان العـرب للنشــر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: صبابة وثورة شك

اســـم المـؤلف: مي حسام أبو صير

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 29655 / 2023

الترقيـم الدولي: 978 – 977 - 998 - 840 - 5

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصميـم الغلاف: منى المـوجي

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه

رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الثالثة

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201030502390

بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

صبابة
وثورة شك

رواية

مي حسام أبو صير

ديوان العرب للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى صاحب الحلم وسرّ عشق القلم، تلك الرّوح التي تساندني دائمًا رغم مرور الزمن على غياب الجسد، والدي.... د.حسام أبو صير.

إلى مرشدي في الحياة وعينيّ على الدنيا، الرفيق والداعم والسند، زوجي الحبيب.... م. حاتم شوشة.

إلى من علمني أنّ النقد فن البحث عن الأسرار بين السطور، وأنّ بصمة الإنسان في بلاغة اختيار الكلام وحسن التعبير دليل لباقة البنان، أستاذي... د. محمد وجيه.

إلى القريبة البعيدة، شبيهة الرّوح ورفيقة القلم، هدية الأيام بعد وحدة الأحلام.... الكاتبة أريج دكة.

قارئتي الأولى، من تحملت خفقات قلمي وهوامش أفكاري العشوائية على مدار سنوات.... الغالية رضوى المسلمي

مي حسام أبو صير

ولأنّ لكلٍّ منا حكاية

وكلّ حكاية رواية

فليس لهذه الرواية فصول

ولكنّها تحمل من الحكايات

ما يجعلها روايات

تجمعت برواية

خطوات تائهة

تقف أمام مبنى الشركة التي كانت تأمل العمل بها فلم تحصل على الوظيفة هذه المرة أيضًا، تناجي السماء وتلك الشمس التي تخجل أن تكون حارقة فتنير بسلام وجوه البشر الراضية لأرزاقها ساعية، ترتدي حجابًا بطرفين قررا التمرد، ورغم بساطة مظهرها إلّا أنها كانت جذابة، ساحرة، ملفتة للنظر.

سارت تتأمل عيون الفتيات من حولها تتخيل قصة كلّ واحدة منهنَّ، هاتان عينان يلمع بهما الحبّ وآخرتان يظهر عليهما السعادة، تتساءل كيف يرى الآخرون عينيها؟ فلغة العيون ليس لها قواعد تحكمها بلاغتها في عقل غيرها، أحكامها ربما يضعها محبٌّ أو يصدرها كارهٌ.

أثناء عبورها الطريق وسط شرودها المبرر؛ كادت إحدى السيارات أن ترطتم بها بعدما أحدثت صوتًا صاخبًا بسبب وقوف سائقها المفاجئ، عبرت مسرعة تفكر فيما حدث، مؤكدة لنفسها أنّه نفس الشخص الذي يتوقف أمامها كلّ مرة وكأنّه يراقبها.

جلست على إحدى المقاعد المنتشرة أمام النيل، تسبح بعينيها في صفائه، هذه المتعة التي يمتلكها الغني والفقير، لا يفرّق بين أحد على هذه الأرض، يستمع لقصص العشاق ويتحمل سخط مَن أجهده الزمن، يحمل الكثير من

الأحلام ليرمي بها في النهاية لموج البحر تاركًا له حرية التصرف، وها هي ترمي له حلمًا ربما يتحقق يومًا.

رنّ هاتفها فردت بلهفة: أبي، أنا بخير سأحضر حالًا.

تحركت مسرعة، فأبوها لا يتناول الطعام إلّا معها منذ وفاة والدتها.

حياتنا كسلم نصعد درجاته بسرعة ونشاط ونعود لنتكاسل بإنهاك، ربما نتعثر أحيانًا ولكن سنصل مهما استغرقنا من الوقت.

وصلت رحيق إلى المنزل الواقع في منطقة شعبية، صعدت الدرج برشاقة لتفتح الباب بهدوء عكس ما كانت عليه منذ قليل، دخلت على مهل تبحث عن والدها لتفاجئه بوجودها كما اعتادت، ولكنّه ظهر أمامها بضحكته المحببة، فرمت نفسها بين ذراعيه قائلة: أنت الفائز هذه المرة يا حاج محسن.

قبّل جبهتها بحنان قائلًا: إذًا هيّا يا شقيّة لقد جهزت الغداء.

بدأ الأب وابنته في تناول الطعام مستمتعَين بأحاديثهما الشيّقة لتخبره عن لقاء العمل الذي باء بالفشل كالعادة

_ هل ما زلتِ مصممة على عدم العمل معي؟

ذهبت الابتسامة وتجمّدت ملامحها قائلة:

_ تعلم رأيي في ذلك الأمر.

قال محاولًا إقناعها ككلّ مرة: حبيبتي المصنع كبير، وهناك شركات تابعة له تستطيعين العمل بأي منها.

_ أنا وأنت نعلم يا أبي أنّه بمجرد قراءة الاسم سيتم تعييني حتى ولو لم أستحق ذلك العمل.

بعد أن أنهيا الغداء جلس محسن أمام أوراقه لتأتي إليه رحيق ومعها كوب من الشاي وضعته قائلة: هل أمامك الكثير؟

_ إلى حدٍّ ما، اذهبي أنتِ للنوم.

_ ومتى نمت قبل أن أطمئن عليك يا أبتاه؟!

_ ردّ بجدية: إذًا هيّا أحضري حاسوبك.

تحرّكت مسرعة تحضر الحاسب، فلقد اعتادت مساعدة والدها منذ سنوات عندما يكون لديه عمل يحتاج إكماله في المنزل، ساعدته في تعلم التعامل مع الحاسب بحرفية ليُسهل عليه الكثير من العمل، أمّا هو فيظل حلمه أن تعمل معه في المصنع ولكن بلا فائدة.

....

التف الجميع حول المائدة في عادة صحية تسودها المحبة والألفة، واظب عليها الجد وورثها الابن الأكبر ليوصي بها أبناءَه، ففي عصر نُعت بالسرعة، كم من أسرة فقدت الكثير من العادات التي تقوّي من الترابط بين أفرادها، ليحلّ مكانها التمسّك بما هو قائم على المظاهر الكاذبة.

جلس فارس بجوار أخيه الكبير عادل على طاولة الطعام التي يترأسها والدهما هاشم وزوجته فاطمة وأمامهم يجلس خالد ابن عمهما، ليبدأ هاشم الابن الأكبر لعائلة نجيب حديثه بوقار وهو ينظر لخالد قائلًا:

ـ ماذا فعلت في سفرك؟

ـ رد خالد بجدية لا تتناسب مع الجلسة العائلية وكأنّهم على عشاء عمل: عرضت على عدة شركات نماذج لتصميماتنا، إحداهم سترسل مندوبًا لرؤية المنتج النهائي وإذا تم الاتفاق سيتم التعامل معهم في أقرب وقت لعرض قطع الأثاث الخاصة بنا في معارض بدبي وعدة دول أخرى.

ـ هل هناك تصميمات جديدة رسمتها؟

حرك خالد رأسه بلا.

ـ فقال هاشم بحدة: وهل وجدت من يساعدك! لن ننتظر حتى يسقط عليك الإلهام وتأتي لنا بأفكار جديدة.

حاول الآخران كتم ضحكاتهما؛ فقال خالد بارتباك: لم أدرس الفنون التطبيقية لأحضر مَن يهمه الراتب فقط... أستطيع رسم أي شيء ولكنّي دائمًا أبحث عن التميز لا أريد أن أصنع شيئًا تقليديًا.

إذًا أرني الجيد في أقرب وقت.

لم ينتظر الإجابة ووجه حديثه لفارس قائلًا: هل جهزت ميزانية الفرع الجديد للأقمشة؟

ـ بالطبع ستكون أمامك غدًا في الشركة.

بدأ عادل بالحديث قبل أن يسأله والده: قسم الديكور حقق أكثر مما نتمنى أصبحنا نأخذ المبنى من الألف للياء، كانت فكرة فارس رائعة رغم اعتراضي عليها في البداية ولكنّه خطط لها جيدًا.

_ تحدث فارس قائلًا: لأنّنا لم نعد تحت رحمة مهندسي الديكور فلقد أصبح المهندس يعمل معنا يرجع لتصميماتنا وما يناسب منتجاتنا.

_ تحدثت فاطمة باعتراض: ألم يكفِكم العمل طوال اليوم؟

ثم نظرت لزوجها وأردفت: اتركهم يا هاشم هذا ليس وقت عمل.

_ إنهم يحبون العمل مثلي... أليس كذلك يا شباب؟

تحدث الثلاثة في نفس الوقت محاولين رسم الجدية على وجوههم: بالطبع... بالطبع.

تبادلت فاطمة النظرات مع زوجها مما لفت نظر الشابان لتقول أخيرًا موجّهة حديثها لعادل: أريدك غدًا يا عادل أن تقوم بتوصيلي إلى إحدى صديقاتي ولا أريد الذهاب بمفردي.

أدرك عادل ما تنوي عليه والدته، فهي ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، فقال بلا مبالاة معروفه عنه: سأقوم بإيصالك فقط ولن أدخل، يكفي ما حدث من إحراج المرة السابقة، فأنا لست صغيرًا لتّتبعي معي سياسة الأمر الواقع.

صمتت فاطمة ولم تحاول الحديث، فعادل شخصية هادئة معروف عنه التروي، يتهمه الجميع بالبرود، عكس أخيه فارس الذي يتمتع بروح الفكاهة رغم سهولة إثارة غضبه.

تحدث هاشم بعصبية بعدما رأى إحراج زوجته من رد ابنه الصريح قائلًا: ولأنّك لست صغيرًا والدتك تفعل ذلك، إلى متى ستظل دون زواج! عندك ثمان وثلاثون عامًا، مَن هم في سنك سيزوجون أبناءهم وأنت جالس جواري نادم على تجربة فاشلة.

_ أنا لم أعد أتذكرها من الأساس... كانت اختيارًا خاطئًا معرّض له أي شخص.

_ وكيف ستختار وأنت لا تعطي لنفسك فرصة؟!

_ إنّني أرفض هذه الطريقة في التعارف.

نظرت فاطمة لابنها بحسرة وقد بدأ يجري به العمر رغم ملامحه الشرقية الهادئة ونجاحه في دراسته وعمله، ولكن سوء حظه أوقعه في هذه الفتاة ومع أنّه أحبّها إلّا أنّها كانت مغرورة أرهقت مشاعره واتهمته بالجنون لترك الطب ونعت عائلته بالجهل.

صعد خالد لوالدته إحسان التي تسكن في نفس المنزل والذي ما هو إلّا فيلا عائلية يسكن بكلّ طابق منها أحد أفراد عائلة نجيب إلّا هو!

استقبلته إحسان بابتسامتها المعتادة، ترفض تناول الطعام مع العائلة خاصة بعد وفاة زوجها إبراهيم منذ خمس سنوات، ليختار خالد أن يقضي بعض الأوقات معهم في هذا الجو الأسريّ؟

_ تصل أمس وتأتي لي اليوم يا خالد!

قالت كلماتها بعتاب ليقبل رأسها قائلًا:

_ الشقة بمبنى الشركة أقرب من هنا يا أمي، كنت أحتاج للنوم قبل الذهاب للمصنع.

_ وهل كان الذهاب اليوم للمصنع مهمًا؟

_ هناك أوراق عليّ إمضاؤها وأنت تصلّين الفجر وتنامين لمَ كنت سآتي إذًا؟

_ قالت بجدية: حتّى عندما أستيقظ أراك نائمًا في فراشك فيطمئن قلبي.

جلس بجوارها مسترخيًا على قدمها ليشعر بالسكينة التي لا يمكن أن يجدها إلا بالقرب منها، لتسأله وهي تمرر يدها على رأسه بحنان:

_ كيف حالها؟ متى ستعود؟

_ في أفضل حال.. ستعود قريبًا.. قريبًا جدًا.

....

يوم جديد... هناك مَن يبدأه بسعادة كهذه العصافير التي تملأ الصباح بهجة بألحان لا تملّ من عزفها كلّ يوم، ولكن هل هذا حال بني الإنسان؟

وصل محسن للمصنع الذي يعمل به منذ سنوات والموجود على أطراف المدينة، يستخدم أتوبيس العمال للوصول إليه كلّ يوم، حيث يعمل مديرًا للحسابات، صعد بوهن رجل أخذت الهموم من صحته الكثير ليصل لغرفته التي بالقرب من غرفة المدير، ينشغل باله بابنته التي عانت بسبب عادات وأفكار مجتمع جاهل، ورثوا من عادات الجاهلية ما يجعلهم يؤمنون بما وجدوا عليه آباءَهم ينقصهم فقط وأد البنات.

جلس الرجل المنهك على كرسيه وفتح أحد أدراج مكتبه ليخرج منه صورتها ذات الابتسامة الساحرة، تأملها وقد تملكته الحسرة على ما وصلت إليه، يفكر كيف يقنعها أن تعمل معه، وليس بيده إلّا أن يصمت كما يفعل دائمًا، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

دخل خالد مكتب محسن ورغم أنّه مدير المصنع إلا أنّه يقدره، وقال: أنتظرك منذ ساعة يا عم محسن، لماذا لا تجيب على هاتفك؟

_ ساعة؟! هل مرّ كلّ هذا الوقت؟!

وضع يده في جيبه يخرج الهاتف ليجده على الوضع الصامت فقال: سآتي وراءك حالًا.

شعر خالد بشروده، يعرفه جيدًا منذ زمن فلولاه ما استطاع أن يكمل مسيرة والده في المصنع ويثبت نجاحه في فترة قصيرة، لاحظ الصورة التي نسيها محسن في يده فاقترب منه يأخذها قائلًا: أخبرتك من قبل أن تضعها

في أحد الأدراج... أتريد لكلّ مَن يرى هذه الجنية أن يظلّ مسحورًا مثلك هكذا ولا يعمل.

_ ماذا... جنية ومسحورًا؟!

_ أمزح يا عم محسن هيّا للعمل.

خرج مسرعًا من المكتب لا يعرف كيف تحدث بهذه السذاجة وبعض من الوقاحة، يتذكر أول مرة رأى صورة الفتاة ومنذ ذلك الحين وهذه الجنية تطارده حتى في أحلامه.

منذ عامين...

دخل المكتب يبحث عن محسن فلاحظ صورة وضعت على المكتب لم تكن موجودة من قبل، فتاة في مقتبل العمر جذبته تفاصيلها، شعرها متمرد نحاسي اللون لامع كلمعة عينيها العسليتين الواسعتين، ابتسامة غريبة تشعرك وكأنّها تحدثك من داخل هذا الإطار.

دخل عليه محسن فوجده واقفًا يتأمل الصورة، قال بدهشة:

_ ماذا بك يا بني؟!

ارتبك خالد ووضعها كما كانت على المكتب قائلًا بحرج:

_ أبدًا كنت أبحث عنك لكي نذهب لمتابعة العمال سويًا.

_ إنّها ابنتي رحيق.

_ مؤكد ابنتك ولكن رجاءً... ضعها داخل المكتب.

_ لا مشكلة يا بني ولكن لماذا؟!

ـ رد خالد وقد استعد للمغادرة: لأنّنا هكذا سننهي العمل في المصنع مبكرًا بعد أن يقف كلّ مَن يدخل الغرفة أمام ملاكك هذا.

وانطلق مغادرًا الغرفة سريعًا مندهشًا انجذابه للصورة، دخل غرفته مرددًا بهمس اسمها، مندهشًا من إحساسه بمذاق العسل في فمه كلما نطقه.

عاد من ذكرياته يخبر نفسه أنّه منذ ذلك اليوم يحدث له أشياء غريبة لا يجد لها تبريرًا.. مرة يراها تعبر الطريق أمام سيارته، وأخرى يراها تجلس على أحد الأرصفة! وعندما قرّر العودة بسيارته للتأكد مما خيل إليه لم يجدها، حتى أحلامه لا تتركها تأتي تنظر له من بعيد وتبتسم كأنّها تنتظر منه شيئًا، لدرجة أنه تسلّل ذات يوم إلى مكتب محسن ليبحث عن الصورة في الأدراج وكأنّه ينقذها من محبسها، فقط ليتأملها ويحاول التأكد أنّ هذه الملامح هي التي تحاصره في كلّ مكان، عاد لرشده مع طرقات محسن على باب الغرفة ليدخل ويجلس أمامه حاملًا ملفاته قائلًا: هيّا نبدأ.

ـ قال خالد بحيرة: لماذا أسميتها رحيق؟ من أين لك بهذا الاسم؟!

ضحك ليخبره ببساطة فبينهم عشرة ترفع عنهما التكلف في التعامل:

ـ والدتها رحمها الله هي مَن اختارته؛ كانت رقيقة مسالمة هادئة تعشق الزهور.

ـ أكنت تحبها؟

_ خسرت عائلتي عندما قررت الزواج بها، أرادوا أن أتزوج ابنة عمي وكنت قد خرجت من القرية وتعلمت وعملت بالمدينة ولم أكن أفكر بالزواج بهذه الطريقة، وعندما اخترت أحلام حدثت المشكلة ليقاطعني الجميع بعدها.

_ إذًا هيّا نبدأ العمل يا أبا رحيق.

....

في الشركة التي تحمل اسم نجيب للأثاث والديكور، مبنى مكون من عدة طوابق؛ فهناك معرض الأثاث الرئيسيّ للشركة ويحتل عدة أدوار، ومعرض للأقمشة، وهناك الدور المخصص للإدارة والذي به الاجتماع الآن، وشركة الديكور التي هي آخر فروعهم الجديدة، وهناك دور أخير مستقل عن الشركة به عدة شقق سكنية إحداهنَ يستخدمها عائلة نجيب للراحة والمبيت أحيانًا.

أخذ الجميع ينهون حسابات الشركة للسنة المالية وكذلك الأوراق الضريبية، هاشم وشباب العائلة وهناك محسن بصفته المسؤول عن حسابات المصنع والأستاذ ناصف المحامي الخاص بالشركة.

وبعد مرور عدة ساعات من العمل المستمر كان كل ما يشغل هاشم هو ترتيب الأوراق التي سيقدمها لوالده الحاج نجيب.

_ شعر الجميع بالإجهاد فقال هاشم: يكفي هذا الآن... فالجميع بحاجة للراحة.

ابتسم الشباب الثلاثة بعد يأس، ليصدمهم بمواصلة حديثه قائلًا:

ـ أمامكم ساعتان من الآن لتناول الطعام وبعدها نكمل.

ارتبك الجميع بما فيهم محسن وناصف فكلّ منهم ملزم بعائلة لا بد من العودة لها، فتحدث عادل رافعًا عن الجميع الحرج: ولكن موعد العمل انتهى... يمكننا الإكمال غدًا هناك وقت كافٍ على تقديم الملف الضريبي وتقفيل السنة المالية.

ـ قال هاشم بجدة: اليوم سننهي الحسابات، ولكن يمكننا نقل الاجتماع لمكتب المنزل وتناول الغداء هناك.

وفي محاولة أخيرة لإيجاد حل لهذا المأزق، قال ناصف:

ـ يمكننا ترتيب كلّ شيء مساءً على حِدَة ونجتمع غدًا.

ـ ليسارع محسن قائلًا: عفوًا يا حاج أنت تعلم أنّي وابنتي نعيش بمفردنا وأنا لا أستطيع التأخر عليها.

ـ ردّ هاشم بتفهم: سنحاول أن ننهي كلّ شيء بسرعة.

صمت برهة ثمّ أردف: محسن ستأتي معي للمنزل الآن نكمل عملنا ويمكن لناصف العودة لمنزله ليتناول غداءَه مع أسرته وسأرسل له السائق ليحضره.

وقال للشباب بأمر: أمامكم ثلاث ساعات تبدأ من الآن وأجدكم أمامي في المنزل.

وقبل أن ينهي كلامه كان الثلاثة قد تركوا لأقدامهم العنان وانطلقوا مسرعين، فثلاث ساعات بالنسبة لهذا الجيل يمكن أن تمر أمام شاشة حاسب أو إحدى ألعاب المحاكاة وكأنّها طرفة عين.

....

تتأمل المارة كعادتها تبحث عمّا يؤنس غربتها، فالغربة أحيانًا لا تكون خارج حدود الوطن، فعندما تكون بمفردك لا يشعر بك مَن حولك ولا تجد مَن يهتم بما هو داخلك، وقتها يكون شعورك بالغربة أصعب ممَن يجد مبررًا لذلك خارج بلاده... إنّه مرار الوحدة!

بعد فترة من الشرود أخرجت هاتفها من الحقيبة، فوجدت عدة اتصالات من والدها، اتصلت عليه فورًا لتدور مكالمة سريعة، أخبرها أنّه لن يعود للمنزل وسوف ينتظرها في فيلا نجيب لتعود معه ليلًا.

أغلقت الهاتف باستسلام وأخذت تبحث في حقيبتها عما تبقى معها من نقود؛ لتكتشف عدم وجود ما يكفي للركوب، وبعد تفكير يسيطر عليه الكبرياء قررت أن تسير لأقرب موقف لسيارات الأجرة وتركب بقدر ما معها من نقود، وتعود وتكمل سيرًا على الأقدام.

وبدأت السير بنشاط.

....

تناول الثلاثة طعامهم في إحدى المطاعم الراقية، في جلسة يسودها المرح، رغم اختلاف شخصياتهم إلّا أنّهم تعاهدوا على التفاهم وعدم الخلاف.

فارس انفعالي عصبيّ وأحيانًا كثيرة متهور، ولكنّه خفيف الظلّ يعشق الرياضة التي يخرج فيها طاقة الغضب بداخله.

عادل أكبرهم سنًا شخصية مسؤولة، هادئ الطباع والملامح، له طلّة بها وقار وهيبة تجذبك لاحترامه.

أما خالد يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، يكره العنف، وسيم، طيب القلب، حالم إلى حدٍ ما رغم مهارته وجديته في عمله، وهي صفة يتمتع بها الثلاثة فعملهم ونجاحهم يأتي في مرتبة متقدمة من اهتماماتهم.

اتّجه كلّ واحد لسيارته مسرعين فهم في غنى عن توبيخ والدهم وإعطائهم درسًا في احترام المواعيد، ولكن تفاجأ خالد بوجود عطل في سيارته ليعودا بدونه، وقد استغرق إصلاح السيارة بعض الوقت ليلحق بهما أخيرًا.

....

أنهى محسن وهاشم الغداء في جلسة ودية، وقد أخبره محسن عمّا مرت به ابنته من ظروف قاسية جعلتها تخشى من التواجد بمفردها في المنزل مما جعله مصممًا على مجيء الفتاة لتكون مع والدها.

أخبرهما هاشم بطلب الحاج نجيب تفاصيل الخمس سنوات الماضية بدقة، ونية أخيه مختار العودة من السفر.

حضر بعد فترة الشابان وبالطبع بررا عدم وجود خالد، ليظل العمل في الغرفة على أشده.

....

تحرك بسيارته مسرعًا إلى منزل العائلة، الموجود بعيدًا عن صخب المدينة وتطفل المارة والجيران، فهكذا يفضل الكثير ممَن يملكون المال، رغم أنّ غيرهم لا يستطيع العيش بعيدًا عن هذا الزحام ومظاهر الحياة، ولكن لولا اختلاف الأذواق.

يقود السيارة عبر الشوارع الفارغة تقريبًا من المارة، فكلما زاد الهدوء زادت سرعته، فما الذي يسلي قيادته إلّا جنون السرعة الذي يهواه الشباب؟

فتاة تسير بمفردها على الطريق الخال من المارة وقد أوشك النهار على المغيب، رأى وجهها في المرآة الجانبية بمجرد مروره جوارها، وكأنّها حلمٌ تظهر له كلمح البصر، مما جعله يوقف السيارة فجأة ككلّ مرة.

رفع رأسه ناظرًا للمرآة أعلى عجلة القيادة، كانت ملامحها غير واضحة من بعيد... فنتيجة السرعة لم يستطع الوقوف قريبًا منها، قرر الرجوع للخلف بسيارته فربما هي فتاة ضلت الطريق، يجب عليه مساعدتها.

في اللحظة التي أوقف فيها خالد السيارة، توقفت رحيق مفزوعة ترفض قدميها السير مرة أخرى وقد تذكرت فجأة إجهادها، أدركت أنّه صوت إطارات سيارة مسرعة مؤكد يقودها متهور.

قررت إكمال السير إلى أن وجدت صاحب السيارة يعود للخلف، ربما سبب رجوعه له علاقة بها، لتقبض يدها على حقيبتها بقوة تخبر نفسها أنّه متطفل جديد ممَن يملؤون الشوارع.

أدركت أنّها بمفردها في هذا الطريق مع هذا الذي يختال بسيارته الفارهة، لتفتح حقيبتها بسرعة تخرج منها الزجاجة التي لا تتحرك بدونها، رذاذ الفلفل للدفاع عن النفس، تلجأ له كثير من الفتيات، يسبب العمى المؤقت، تستخدمه ضد الاعتداء سواء من البشر أو من الحيوانات كالكلاب التي لا تقل خطورة عمَن سبق وأسميناهم بشرًا، وللأسف هو حال الكثيرات في عصر لجأن فيه للبحث عن طرق آمنة لحماية أنفسهن مع اختفاء النخوة والرجولة إلّا مَن رحم ربي، ففي لحظة الخوف تمر كلّ السيناريوهات السوداء أمام عينك، إنّه ترقب المجهول.

حاولت عدم إظهار خوفها، فالمتحرش أو حتى الخاطف يختار الضحية الضعيفة التي يستطيع السيطرة عليها.

سار بسيارته موازيًا لها لا يمكن أن يمر في خياله ما يجول برأسها الآن، تحاول عدم الاهتمام أو النظر إليه؛ ليقول بتردد وقد تأكد من الشبه بينها وبين الصورة الملعونة التي رآها يومًا رغم ارتدائها الآن الحجاب.

_ هل أستطيع مساعدتك يا آنسة؟

لم تبدِ اهتمامًا وأكملت السير دون النظر إليه.

_ المنطقة فارغة من المارة وقد أوشك الليل على الهبوط.

تأكدت من طريقة حديثه أنّه ليس مجرمًا، ولكن لا بد وأنّه ذلك الكائن اللزج المتطفل الذي يحشر أنفه فيما لا يعنيه؛ لتنظر له أخيرًا قائلة: انصرف من أمامي وإلّا ستندم.

أوقف السيارة وخرج منها مسرعًا بمجرد حديثها، ينظر لها بشدة مما أربكها فرفعت الزجاجة التي احتفظت بها في يدها قائلة: لا تقترب مني.

أدرك أنّه أخافها فقال مسرعًا: آسف... ولكن صدقيني خطر السير بمفردك هنا.

ارتبكت تحث نفسها على عدم البكاء، فقد شعرت بالوهن والضعف، ولكن أصرت على الصمود أمامه، قائلة: شكرًا لاهتمامك... دعني وشأني.

وهمت بالسير، ليلحقها ويعلم أنّ ما يقوله سيلاقي الرفض: اسمحي لي أن أُوصلك.

وقبل أن ترد أردف مسرعًا: اركبي بالخلف لتطمئني، صدقيني سيرك هنا بمفردك خطر.

وقفت تحاول لملمة أفكارها فهي مجهدة، ولكن عرضه مرفوض بالطبع لكلّ الأسباب التي ذكرها هو بنفسه، ربما لو كانت تعرفه لكانت ركبت.. ربما!

_ شكرًا لعرضك المغري، ابتعد عن طريقي من فضلك.

وانطلقت مسرعة، ليعود لسيارته ولكن ليس بالسرعة التي اعتاد عليها، وربما هذه المرة قلبه هو الذي يقود.

ابتعد عنها ولكن ظلت على مرمى بصره، قلبه لا يطاوعه أن يتركها حتى ولو لم تكن هي رغم أنّه لم يعد لديه شك.

ركن السيارة.. يراها من بعيد عبر المرآة، ليرفع الهاتف ويتصل بمحسن بلا تردد ولكن ماذا سيقول له؟ لا يعلم.

_ أهلًا عم محسن ما الوضع عندك؟

_ لا تقلق الأمور تسير على ما يرام.

ليقول بتردد: عم محسن هل... هل ابنتك... أقصد هل تنتظرك بمكان؟

قال محسن بدهشة: إنّها في الطريق إلى هنا لتعود معي، هل هناك مشكلة؟!

_ إذًا هي من أراها تسير بمفردها على الطريق، سأتصل بك مرة أخرى عم محسن.

أنهى المكالمة ونظر للمرآة لوهلة اعتقد أنّها اختفت كما يخيل له دائمًا، وجدها تجلس على الرصيف، فعاد لها مرة أخرى بسيارته، كانت تراه من بعيد يقف على جانب الطريق ورغم اندهاشها إلّا أنّها شعرت بالاطمئنان... فهناك أحدهم يحرسها.

خرج من السيارة متجهًا إليها قائلًا: لا يطاوعني قلبي على تركك، طريقنا واحد.

نظرت له بشك... كيف عرفها ولماذا يراقبها ويصر على مطاردتها؟ وقفت دون تردد تمسك حقيبتها بشدة وهذه الزجاجة التي ما زالت في يدها لتسرع من أمامه وكأنّها تجري لولا وجع قدميها، انطلقت أمامه كفراشة

تطير تاركة لجناحيها العنان، ترتدي فستانًا تملؤه الزهور بألوان مبهجة، ليضيق حاجبيه بانزعاج فهذا الفستان رغم أنّه فضفاض إلّا أنّ الهواء قام بواجبه تجاهها، وهذا الحجاب القرمزي بطرفيه يبتعد عنها بتمردٍ على ما تفعله به وبغيره، ترتدي سترة صغيرة من الجينز بلون السماء لتلهو بمشاعره أكثر.

ـ رحيق.

وقفت مكانها مع ندائه لها باسمها ليقترب منها قائلًا: حدثي عم محسن ليطمئن قلبك للركوب معي، لن أتركك تسيرين بمفردك مازال المنزل بعيدًا.

نفذت طلبه على الفور ربما لذلك الشعور بالأمان الذي انتابها تجاهه، أو كما تخبر نفسها أنّه الحل الوحيد لإنقاذها، فقد خشيت أن يصيبها الإغماء وهي في هذا الطريق بمفردها، وبعد مكالمتها لوالدها وقد طمأنها للركوب معه، أشار لها خالد بابتسامة هادئة باتجاه السيارة، تحركت بحرج لتركب بجواره منكمشة ومازالت متمسكة بتلك الزجاجة.

وبمجرد وصول السيارة للمنزل الذي رأته منذ سنوات عندما كان يصطحبها والدها وهي صغيرة، خرجت مسرعة من السيارة لتقف جانبًا كطفلة تنتظر والدها أمام بوابة المدرسة تضم حقيبتها إلى صدرها بإنهاك تستند على السور.

قطع أفكارها قائلًا: تصرفك صحيح لا تثقي بأحد لا تعرفينه أبدًا.

ابتعدت بنظراتها عنه؛ فقال أمام صمتها الذي يجد له مبررًا: لا تسيري بمفردك في مكان غير آمن مرة أخرى.

اصطحبها والدها داخل المنزل بعدما استقبلها بالخارج ليطمئن عليها، لترحب بها فاطمة قائلة: بسم الله ما شاء الله كبرتِ يا رحيق... تفضلي حبيبتي.

سلمت عليها بخجل واستجابت لطلبها بالجلوس، ودخل بعدها خالد ومحسن غرفة المكتب فهناك الكثير من العمل ينتظرهما.

رحبت بها فاطمة وطلبت من أم مسعد مساعدتها بالمنزل تقديم واجب الضيافة؛ فسلمت عليها السيدة هي الأخرى، فهي جارتهم بالحي ومحسن مَن رشحها للعمل عندهم بعد وفاة زوجها.

قدّمت أم مسعد واجب الضيافة وانصرفت وقد ظهر عليها الأسى، ذهبت فاطمة وراءَها تسألها: ماذا بكِ يا أم مسعد؟

_ مسكينة تلك الفتاة لا تستحق ما حدث لها.

فأم مسعد كحال كثيرات يتناولن الأخبار والحكايات، أحيانًا ليس بدافع الشر أو الإيذاء، ولا يدركن قوله تعالى: (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) رغم أنّ ما يفعلونه يسمى غيبة ونميمة حتى ولو كان ما يتناقلونه من أخبار صحيحًا.

لتبدأ أم مسعد في أكل لحم أخيها ميتًا وتقص عليها الروايات، وتسمع الأخرى بتقبل ودون اعتراض خوضًا في الأعراض لتبدأ الحكاية رحلة جديدة بقاصٍ آخر.

....

بعد مرور ساعة من العمل داخل الغرفة المغلقة استأذن خالد أن يصعد ليطمئن على والدته، وبالطبع لم يغب السبب عن الشابين المتربصين له بخبثٍ، غادر الغرفة ناسيًا إغلاق الباب خلفه، وبمجرد خروجه وقف وكأنّ على رأسه الطير ينظر للنائمة على الأريكة في يدها كوب العصير تسند رأسها للخلف ساكنة كهدوء الليل، مشرقةً كزهرةٍ بريةٍ لم تطُلها قسوة العابرين، تدعوه أن يتذوق رحيقها، فيتذكر تفاحة آدم التي أخرجته من الجنّة عندما عصى ربه، فيناجيه طالبًا منه المغفرة والسماح.

ظلّت أمامه لوحة تستحق الرسم ليفيق على نداء محسن عليه بعد أن لاحظ وقوفه بالخارج، وكأنّ أحدهم ألصقه بالأرض؛ ليخرج مسرعًا قبل أن يلفت انتباه أحد جازمًا أنّ للأمر علاقة بابنته.

_خالد ماذا بك؟

التفت ينفض تلك الأفكار اللعينة ونظر لمحسن الذي شاهد هو الآخر أميرته النائمة وكأنّها تنتظر الأمير لإنقاذها من التفاحة المسحورة التي أكلتها ولم يكن الواقع بمختلف كثير عن الخيال.

أسرع محسن باتجاهها؛ فقال خالد: لا تحرجها أمامي.

وانصرف تنتابه الكثير من المشاعر المتخبطة، لا يعرف أنّ هناك من تقف معترضة على نظراته للفتاة، تخطط كيف تنهي هذه القصة قبل بدايتها.

جلس محسن جوار ابنته بعد أن أخذ الكوب من بين يديها هامسًا: رحيق... حبيبتي.

_ فتحت عينيها لتقول بخجل: لا أعرف كيف غلبني النوم.

_ جذبها قائلًا: هيّا معي لتساعديني حتى ينتهي الأمر سريعًا ونغادر.

_ وماذا سأفعل؟!

_ ستفعلين كما نفعل في المنزل.

_ ولكن ماذا سيقولون؟

_ أنا سأوضح لهم الأمر.

دخل الغرفة جاذبًا ابنته التي سارت خلفه على استحياء ووجه حديثه لهاشم قائلًا: بعد إذنك رحيق ستساعدني.

اندهش هاشم فهو يعرف محسن لا يأمن لأحد في عمله بسهولة وقال: وهل تفهم في الحسابات؟

تحدث بفخر قائلًا: بالطبع.. رحيق تعمل معي بالمنزل منذ سنوات وتساعدني، لا أحد يفوقها في الحسابات.. تلميذتي.

جلست رحيق بجوار والدها أمام الحاسوب تبدأ في العمل الذي يعتبر بالنسبة لها غاية في البساطة؛ ليلاحظ الجميع مهارتها وسرعتها التي لا تعتبر عادية أبدًا.

ـ قال فارس لعادل بخبثٍ: الآن سيعود ابن عمك من الخارج خائب الآمال.

ـ قال عادل بجدية: لا دخل لك، أكمل عملك حتى ننهي هذا اليوم بسلام.

وبالفعل دخل خالد وقد ظهر على وجهه الإحباط ليجلس مكانه بجانب الشابين اللذين حاولا كتم الضحك، وقد أمسك أوراقه قائلًا بحدة: ماذا حدث وأنا بالأعلى؟

أشار فارس لمكان جلوس محسن، التفت خالد ليتفاجأ بوجود رحيق بجوار أبيها تختفي خلف الحاسوب، فتبدل حاله وابتسمت ملامحه ليعود للعمل بنشاط.

لفتت مهارتها الجميع وخاصة هاشم فقال:

ـ لماذا لا تجعلها تعمل معك بالمصنع؟!

ـ حاولت كثيرًا ولكنّها تريد إثبات نفسها بعيدًا عنّي.

ـ كيف ذلك؟ إنها ممتازة وأنت تعلم لا مجال عندنا للوساطة، حتى هؤلاء الشباب بدؤوا العمل من الصفر ونال كل واحد منهم ما يستحقه.

ونظر إليها وأردف: من الغد تبدئين العمل بالمصنع، والدك يعلم جيدًا أننا نحتاج لمَن يساعده ويثق به.

ابتسمت رحيق ولم تحاول الاعتراض فللرجل وأبيها احترامهما، ولقد أرضاها أنّه هو مَن عرض عليها العمل، ليبتسم في نفس الوقت ذلك الواقف بعيد يكاد يطير فرحًا.

انتهى اليوم وانصرف كلّ منهم لمرساه، صعد خالد لوالدته بقلب شغوف بلقاء الغد وكلّ غدٍ وهو واثق أنّ روتين حياته سيختلف.

....

عاد محسن وابنته مع السائق الخاص بهاشم، وبمجرد دخولهما المنزل أخذت رحيق نفسًا أخرجته من أعماق تعبها وإرهاقها.

_ ماذا بك؟

_ اليوم كان طويلًا يا أبي.

_ أعلم أنّ العمل كان مجهدًا ولم يكن لكِ ذنب.

_ ليس العمل، قدماي تؤلمانني بشدة.

_ قال بعتاب: لأنكِ فضلتِ السير على أن تخبريني.

_ لم أتخيل أنّ المسافة بعيدة لهذه الدرجة، اضطررت أن أُكمل سيرًا ولكن الطريق كان فارغًا إلّا من... هذا الشخص الذي تخيلت أنّه لص أو متحرش.

_ خالد!

_ قالت بخجل: ظلّ يراقبني من بعيد، وبعدها عرض توصيلي، هل كنت أركب معه وأنا لا أعرفه؟!

ـ ربت على وجنتها قائلًا: لا حبيبتي تصرفك صحيح.

ـ قالت بخجل: وهو أيضًا قال لي ذلك.

ـ ابتسم محسن وصمت قليلًا، ثم قال: لا أريد أن تثقي في أي إنسان سواي، ولكن خالد ابني هو الآخر علمته وأعطيته من خبرتي كما أفعل معكِ تمامًا وأثق به كما أثق في نفسي، أتعلمين أنا متأكد أنّه حتى ولو لم يعرفكِ كان سيفعل ما فعله.

ـ ولكن كيف عرفني؟!

....

وبدأت أرجل الغيبة تعرف طريقها لتسير بين لسان وأذن غير عابئين بالعدل الإلهي فـ"كلٌّ ساقٍ سيسقى بما سقى".

ـ ماذا تقول يا هاشم؟ أنت مَن طلبت منها العمل بالمصنع!

قالتها فاطمة بصدمة أدهشت هاشم، فقال بصرامة:

ـ وما المانع؟ الفتاة ممتازة وحقًا نحتاجها، محسن لم يعد يستطيع تحمل العمل بمفرده.

ـ ولكن أنت لا تعلم شيئًا عنها.

ـ وماذا تريدين أن أعلم؟ إنها ابنة محسن الذي لولاه لما ظلّ المصنع يعمل بنفس الكفاءة بعد موت إبراهيم، الرجل خدمنا سنوات وكان بإمكانه العمل في مكانٍ آخر عندما تعرضنا لأزمة مالية، والفتاة ممتازة.

_ لم أقصد كلّ ذلك، الفتاة جميلة... و... وما يقال عنها يقلقني... إنّها ستعمل في نفس المكان الذي به خالد وكان ينظر لها...

_ قاطعها قائلًا: وما المشكلة؟! الفتاة مهذبة وخجولة ومؤكد تربية محسن لا غبار عليها.

_ إنهم يقولون...

_ قاطعها قائلًا: مَن يقولون؟ ومَن هم؟ أنسمع للسفهاء ونكذب أنفسنا، لا أريد سماع هذا الحديث مرة أخرى أفهمتِ؟

....

أتى الصباح سريعًا وكأنّ غفوة عينيها لم تستغرق سوى لحظات، استيقظت على صوت والدها الذي أعد لها الفطور بسعادة فأخيرًا حقّق له الله أمنيته وهيّأت الظروف لتخدم ما يريد، وبين طرفة عين وانتباهها تغير حالها، أعدت أوراقها واستعدت لبدء يوم جديد مختلف.

بعد وقت ليس بالقليل استغرقاه في الأتوبيس المخصص للعاملين بالمصنع، دخلت خلف والدها الذي بدأ في إلقاء التحية على الجميع ممَن مروا حوله بمحبةٍ وودٍ، سارت خلفه تحتضن أوراقها تتمسك بيد أبيها محاولة اكتساب الثقة منه، دخل محسن غرفته قائلًا بسعادة: أخيرًا.

_ أخيرًا ماذا يا أبي؟!

_ سأطمئن عليكِ وتظلين أمام عيني.

ابتسمت وجلست تحاول جمع أفكارها فلقد أخبرها والدها أنّها كأيّ موظف جديد قائلًا: ستمرين بمقابلة عمل ولا بد عليكِ من ضبط النفس، وليس معنى أنّي والدك أن يتم التجاوز عن هذه الأمور فهناك فترة ستمضينها تحت التمرين عليكِ إثبات مهارتك بها.

أرضاها ذلك فهي تريد أن تثبت مهارتها، وهذا ما أراد والدها أن تشعر به، ولهذا السبب طلب ذلك من خالد عبر الهاتف بمجرد دخولها غرفتها بعد عودتهم، ابتسم بانتصار فرُبّ صدفة خير من ألف معاد، ها هو القدر شاء في الوقت المحدد.

_ أنتِ محظوظة لأنكِ تعرفين الكثير عن الشركة، لم أقابل أحد هنا في المصنع مر على المقابلة مع المهندس خالد إلّا وقد كان مرتاحًا وراضيًا فلا تقلقي.

_ المقابلة مع مَن؟!

_ مع مَن ظننتِ! إنّه المسؤول عن المصنع.

_ أليس الحاج هاشم؟

_ الحاج هاشم لا يأتي هنا كثيرًا، المصنع تحت إدارة خالد.. ألا تعلمين؟!

_ لا أعرف كيف غاب عنّي ذلك!

_ هل ستظلين جالسة أمامي هكذا؟ عندي عمل وأنتِ أيضًا.. اذهبي لتعرفي ما عملكِ واعلمي من الآن أنّي سأصبح مديرك ولست والدك.

حركت رأسها بالموافقة لتأخذ أوراقها وحقيبتها وخرجت مسرعة، ولكنها عادت مرة أخرى تنظر لأبيها ببراءة قائلة: أين أذهب؟

ردّ بتجاهل يظهر الاهتمام بأوراقه: اسألي بالخارج عن مكتب خالد.

خرجت تنظر حولها واتجهت إلى فتاة تجلس على مكتب، قائلة بود: من فضلك أين مكتب المهندس خالد؟

نظرت إليها الفتاة بابتسامة عملية، وأشارت لها باتجاه أحد الأبواب، تحركت رحيق بخطوات مترددة.. تتمنى ألّا تنهي أحلامها عند تلك اللحظة!

جلس خالد منهمكًا أمام أوراق الرسم الخاصة به يحاول إيجاد تصميم جديد، ولم ينتبه لهذه التي طرقت الباب ودخلت بعد أن فقدت الأمل.

أدركت أنّه لم يشعر بدخولها ولم تعد تعرف ماذا تفعل، لحظات مرت تتأمل الجالس أمامها يرسم، لم يكن لديها الفرصة بالأمس أن تركز في ملامحه، قمحي البشرة برموش كثيفة، تعتقد أنّ عينيه عسلية، شعره أسود، كانت كالقزمة أمامه فهو أطول منها بكثير، ملامحه الهادئة تشعرها بالراحة، لامت نفسها وهي تبتعد ببصرها عنه وتستغفر الله، ولكنّها سمعته يقول: وجدتها.

وصل أخيرًا لما يريد، الفكرة التي يبحث عنها لتصميم أحد الكراسي الكلاسيكية بنظرة عصرية، شعر بنسيم غريب حوله فرفع عينيه ليجدها كما توقع تقف أمامه على بعد خطوات من مكتبه؛ فأخبر نفسه أنّ هذا هو

سبب اكتمال الرسمة، ابتسم لهذه الخاطرة ليدرك فورًا خطورة الموقف، اعتدل على كرسيه ينظر إليها محاولًا رسم الجدية، قائلًا: ألا يوجد باب للاستئذان قبل الدخول؟

ـ ردت بحرج: لقد طرقت الباب أكثر من مرة.

_ ولماذا دخلتِ طالما لم تجدي ردًا؟

_ آسفة.

همت بالمغادرة فوقف قائلًا: انتظري.

استدارت مرة أخرى تنظر إليه دون أن تنطق بكلمة، تحرك بملامح جامدة، استند على حافة مكتبه في مواجهتها ليمد يده لها، ظلّت تفكر لحظات ماذا يريد؟

_ هل سأنتظر كثيرًا.

أعطته الملف بتردد، فتحه ببطء وأخذ يقلّب صفحاته بتعبيرات مختلفة يتعمد اللعب بأعصابها، لتخبر نفسها أنّها ليتها استخدمت الرذاذ بالأمس.

أمسكت حقيبتها بتلقائية وكأنّها تستعد لإخراج الزجاجة ولم تدرك أنّه لاحظ ما تفعل، وضع الملف على المكتب باستهتار قائلًا: إذًا أريني ماذا يفعل الرذاذ معكِ؟

رفعت حاجبيها بدهشة وشكّ أن تكون قد تحدّثت بصوت مسموع وقالت ببراءة: لم أكن أفعل شيئًا.

لم يستطع هذه المرة السيطرة على ضحكاته التي خرجت بعفوية لا تفهم لها سبب، ليعود ويحاول رسم الجدية قائلًا: هل لديكِ أي خبرات ليست بالملف؟

_ قالت بارتباك: أتعامل مع الكثير من برامج الحاسب ولكن ليس معي شهادات بذلك.

_ أخبرني العم محسن أنّكِ مررتِ بالعديد من المقابلات ولكن لم توفقي، أيمكن أن أعرف السبب؟

حاولت الأخذ بنصيحة والدها وقالت بتحدٍ: أعلم أنّ هناك مَن هم أفضل منّي للحصول على الوظيفة، ولكن متأكدة أنّي عمليًا أنا الأكفأ والأفضل هنا.

ابتسم قاصدًا إظهار إعجابه بكلامها ليمنحها القليل من الثقة التي سلبها إيّاها منذ دقائق ليسألها: العمل هنا روتيني هل تعتقدين أنكِ تستطيعين ممارسته؟

_ بالطبع وإلّا لم أكن لأحضر اليوم.. ولكن اسمح لي لا أعتقد أنّه روتيني أبدًا، العمل بالمصانع ماتع فهناك إنتاج مختلف دائمًا وفرحة بنتيجة المجهود الذي بذِل عندما تراه أمامك واقعًا.

_ هذا بالنسبة لعامل يرى نتيجة تعبه وليس لمحاسب.

_ وهل هناك متعة أفضل من أن تعمل في مكان الكلّ فيه سعيد بإنجازاته؟

كانت محاورة جيدة عكس ما تخيل تستطيع الصمود بكبرياء... فضل الاستمرار في الحوار فهو مستمتع به ليقول خارجًا عن توقعاتها: مررت بالكثير من مقابلات العمل فهل كنتِ تذهبين بمثل هذه الملابس؟

دار ناظرًا للنافذة خلف مكتبه ولم يحاول النظر إليها لإعطائها فرصة للرد والتقط الرسمة التي انتهى منها منذ دقائق يتأملها، ولكنّها ردّت بكبرياء قائلة:

_ وما بها ملابسي؟! نعم تبدو بسيطة ولكن هذا ذوقي وهذه هي قدراتي.

اندهش لما اعتقدت أنّه يقصده وقال وهو يعود بنظره إليها:

_ إجابتك متسرعة.

صمت قليلًا وقال بهدوء: ارتداء فستان كهذا في مقابلة عمل غير مناسب، لاحظتُ بالأمس أيضًا ارتداءَك مثله.

لتقول بحرج تنظر لنفسها فقد كانت ترتدي فستانًا فضفاضًا بلون وردي وعليه سترة قصيرة باللون الرمادي وحجاب بلون الفستان: وما المشكلة؟

تقدّم منها خطوة وقال بصوت أخفضه عن قصد:

_ ارتدي ملابس رسمية، هنا عمال ومؤكد ستمرين أمامهم باستمرار... و... عندما يتطلب الأمر السير في الطريق ووجود هواء لا داعي لهذه الفساتين.

شعرت بالخجل لما يرمي إليه، فقد كان فستانها يتطاير، هي حقًا تحب هذه الملابس تشعرها بالراحة.

_ سآخذ نصيحتك صوب الاعتبار.

نظر لرسمته وما زالت في يده يتخيلها وهي تطير أمامه كجنية خرجت من الأساطير، ثمّ ابتسم يريها إياها، نظرت للورقة بدهشة وهي ترى أحد المقاعد مرسوم كالفراشة فقال: أود أن أعرف رأيك في هذه الرسمة.. واعلمي أنّ رأيك سيكون في إحدى تصميمات مديرك بالعمل.

أخذ الرسمة تتأملها، مقعد دون ظهر، بيدين وكأنّهما جناحين فراشة، وقالت: رائع.. سيشعر مَن يجلس عليه وكأنّ له جناحين يطير بهما.. ولكن...

نظر لها باهتمام فقالت قاطعة كلامها: لا شيء.

قال يحثها على الإكمال: حقًا أريد أن أعرف رأيك ولا تقلقي هذا بعيد عن مقابلة العمل الخاصة بكِ.

_ مؤكد بعد التنفيذ سيكون مبهرًا لكنّه غير مريح.. تخيّلت نفسي أجلس عليه فشعرت للحظات أنّي كملكة على العرش مشدودة القوام مرفوعة الرأس، ولكن الأهم أن أكون مرتاحة.

نظر لها مدركًا أهمية ملاحظتها ليسألها باهتمام: وكيف يكون أكثر راحة؟

اتجهت إلى المكتب بثقة وأخذت أحد أقلام الرصاص الخاصة به لتأخذ معه روحه؛ فقد كان هذا القلم بيده منذ قليل، تفاجأ بها تكمل الرسمة بمهارة، ترسم ظهر بسيط للمقعد لا يكاد يظهر إذا جلس عليه أحد ليظل

الكرسي محافظًا على طابعه ورونقه، بل زاده فخامة، وقال: وكيف سيكون شكل هذا الظهر النهائي؟

_ يتم تنجيد الظهر بالكامل ويظهر جزء رفيع من الخشب عليه نقوش بسيطة جدًا كالموجودة باليدين.

أنهت كلامها ووضعت القلم في فمها بحركة تلقائية تنتظر رأيه فيما قالت.

ظلّ في حالة ثبات لحظات.. أيشعر بالغيرة من قلم رصاص ويريد القصاص!

خرج من هذه الحالة بصعوبة وأخذ منها الورقة ينظر لخطوطها التي رسمتها ببراعة وقال: أنتِ ترسمين؟! هذا ليس عشوائيًا أو مجرد فكرة أردتِ توضيحها رغم عدم دقتها.

_ ابتسمت بخجل قائلة: أحبّ الرسم منذ صغري، أرسم تصميمات ملابسي... التي لم تعجبك، وينفذها لي أحد الخياطين بالحيّ.

_ ولماذا لا أكون نصحتك لأنّها أعجبتني!

وأمام تلك الحمرة التي تمردت بسبب حديثه، أردف محاولًا الجدية: أعجبتني فكرتك التي أضفتها على التصميم... وسأُنفذها.

وأكمل مسرعًا منقذًا نفسه من براثن الاعتراف مع أول حُمرة خجل أودت بقلبه صريعًا للهوى: ستخبرك هدى بالخارج عن كلّ التفاصيل التي تحتاجين إليها لتعملي مع العم محسن، ومن بعده ستساعدين شخصًا آخر.

....

واظبت العائلة أن تزور الجد في مزرعته نهاية كلّ شهر، فقد أراد بعد مشوار طويل من الكفاح أن يستمتع بما تبقى من عمره في المكان المفضل له بجوار قريته بعيدًا عن تلوث المدينة وزحامها، خاصة بعد وفاة ابنه إبراهيم.

على مشارف إحدى القرى، مزرعة غناء داخلها منزل ملائم لمعمار القرية ولكنّه، يعلن ثراء صاحبه، يحيط به سور ضخم يؤكد على وجود شخصٍ مهمٍ بالداخل، كبير العائلة وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة، والذي قرّر فجأة توزيع أملاكه بين أبنائه في حياته، ولكن بشروطه!

اجتمعت العائلة حوله على مائدة الفطور يتبادلون الأحاديث، جلس بهيبة على رأس الطاولة، رجل مسن مر على العقد السبعين منذ فترة، أشيب الشعر يرتدي جلبابًا فضفاضًا وعلى كتفيه معطف أسود طويل اشتُهِرَ ارتداؤه بهذا الشكل كنموذج للأثرياء ممَن يستطيعون شراءَه يزيده وقارًا، بجانبه وضع عصاه الثمينة يتوكأ عليها مخفيًا ضعف الزمن، ورغم ذلك ما زالت نظراته ثاقبة كالصقر وملامحه حادة كنسر جارح، ولكنّه بين أحفاده شاب في مقتبل العمر.

لم يكن يجلس من أبنائه سوى هاشم وأحفاده الثلاثة، فابنه الأصغر خارج البلاد والابن الأوسط إبراهيم توفي منذ سنوات ليترك ابن واحد هو خالد يشفي روح هذا الكهل من فراق أحد أبنائه.

جلس هاشم أمام والده وبجواره زوجته فاطمة وإحسان والدة خالد، أمّا الشباب فاصطفوا كما يحب نجيب أن يراهم، وظلّ هناك مكانان على المائدة بانتظار أصحابهما مختار وابنته مليكة.

بعد تناول الطعام قال نجيب بصوته الأجش: منذ متى لم نجتمع؟

ـ ردّ هاشم رافعًا الحرج عن الجميع: تعلم يا حاج هذا الجيل لا يحب الأماكن البعيدة عن الترف والتكنولوجيا، وها أنا دائمًا معك.

ـ ردّ نجيب بثناء: بارك الله فيك يا هاشم.

جلس الجميع يتسامرون ويرتشفون الشاي الذي هو عادة أساسية عند هذا الشعب؛ ليحين وقت أذان الظهر استعد الرجال للذهاب للمسجد لصلاة الجمعة، وتظلّ فاطمة وإحسان تتابعان الخدم في المنزل في إعداد طعام الغداء لتتأكدا من سير أمور المكان على أكمل وجه، فنجيب يعيش بمفرده معتمدًا على ثقته فيمَن حوله من أهله وأهل قريته.

وبعد العودة من الصلاة وتناول الغداء تجوّل الشباب الثلاثة في الحديقة الكبيرة التي شهدت أيام طفولتهم تارة يضحكون وتارة ينزوي كلّ واحد منهم مع هاتفه يبحث في مواقع التواصل عن خبر يُشبع فضوله.

ابتسم عادل وهو يرى كلاهما يتجه لمكانه المُحبب.

هذا فارس منذ صغره يستأثر بالمقعد الخشبيّ ذي الأرجوحة الوحيدة الموجود في الحديقة، ولم يكن يتركه إلّا لشخصٍ واحدٍ غاب عن هذه الجلسة (مليكة)، كبر الجميع وما زال المقعد كما هو يفتقد الوحيدة التي

استطاعت مشاركته فيه، تذكّرها وهي تتأرجح على أخشابه كقطعة من حجر الياقوت الأزرق الذي هو بلون عينيها، وكأنّها الحياة التي افتقدها هذا المقعد المسكين ولم يعد يتحرك.

تذكّر يوم سافرت مليكة مع والدها لأول مرة، رغم أنّه كان يتركها دائمًا ويسافر إلّا أنّه في هذا اليوم أصر على اصطحابها، هربت قبل ركوب السيارة ليلًا وأخذت تطرق أبوابهم واحدًا وراء الآخر ليخرج ثلاثتهم بفزع فتخبرهم قرار أبيها المفاجئ بأخذها معه، علموا بعدها أنّه نشب شجار حاد بين جدّها ومختار الذي قرّر أخذها وكأنّه يعاقب الجميع بإبعادها عنهم.

أما خالد وقد حمل مسؤولية كبيرة باستلامه مكان والده بعد وفاته، يخشى عليه أن تجري به سنوات العمر وشبابها كما حدث، فعندما تأخذنا دوامة العمل نظلّ ندور حول أنفسنا دون توقف ولا نستطيع الخروج منها، فها هو شارف على الأربعين وما زال لا يستطيع إنقاذ نفسه من الدوامة.

أيتخيل أحد ممَن يتعامل معه أنّه طبيب قلب فضل ترك مجال الطب الذي كان حلمه ليرضي جدّه وينقذ العائلة بعد سفر عمه مختار، ووفاة والده إبراهيم وليس أمامه سوى الاستسلام لقدره ليتبعه الشابان الآخران آخذين منه قدوة.

كلما اجتمع الثلاثة في هذا المكان تذكروا الصغيرة التي لم تكن تفارقهم وخاصة فارس، كانت تلتصق به كظلّه، تقلّده في كلّ شيء، هنا على هذا

الكرسي كانت تجلس ليتسارع الجميع بتحريكه؛ مدللة كانت بين ثلاث شباب.

جلس خالد يتذكر جنّيته التي دخلت قصره تلهو به كما تشاء تطير أمامه هنا وهناك تخطف أنفاسه فيحاول غضّ بصره، ولكنّه بين الحلال والحرام شعرة وهو بشر.

أفاق خالد وفارس على أنغام فيروز (سألتك حبيبي لوين رايحين) التي تعمّد عادل تشغيلها؛ يبعث برسالته لهما مع نغمات تحمل الكثير من الذكريات، ليجيبه فارس من بعيد رادًّا على سؤال فيروز: لا أعرف.

ليفاجئهم خالد برده قائلًا: أنا عرفت.

اندفع الآخران بفضول تجاهه لمعرفة إلى أين هو ذاهب؟!

....

جلس نجيب مع ابنه يتحدثان فيما ينوي فعله ليقول هاشم: ولماذا تريد التقسيم؟ ولِمَ السرعة؟

_ أخوك ينوي العودة والاستقرار، طلق تلك الحرباء منذ مدة... وأنا لا أريد خلق مشاكل مرة أخرى بسبب بعض الأموال.

اندهش هاشم لعلمه موقف والده من أخيه فهو مَن طرده عندما أراد أن يأخذ نصيبه من الأموال وكأنّه يقسم التركة التي مازال صاحبها حيًّا يرزق رافضًا العمل معهم متهمًا أخويه بالاتفاق عليه والوقوف أمام أحلامه بالسفر والنجاح؛ ليكمل نجيب وكأنّه سمع ما يدور في رأسه: لم يعد للعناد

داعٍ فليس في العمر بقية، إلى متى ستظل مليكة بعيدة ونحن نعلم انشغاله عنها؟ أبناء عمومتها هم حمايتها وسندها في الدنيا، لابد أن تعود وتظل بجانبنا ولن يستطيع أخوك أخذها مرة أخرى.

****

لست هي

أوقف فارس سيارته أمام مبنى الشركة، ونزل مسرعًا غير مهتم بمَن حوله، لا يحمله الفضول لمعرفة ما يدور حوله أو مَن يمر، فجأة ارتطم بأحدهم وأسقطه أرضًا، نظر بضيق ليجدها فتاة حظها العاثر جعلها تمر بجانبه ليدهسها ويلقي بها أرضًا هي وأوراقها.

_ ما الذي أتى بكِ في طريقي؟

رفعت الفتاة حاجبيها بدهشة تحاول لملمة أوراقها تكاد تبكي قائلة: أنا التي جئت في طريقك أم أنت الذي تسير كدبابة غير مبالٍ بمَن حولك؟!

_ مليكة؟!

_ زاد اندهاش الفتاة وقالت: ماذا؟!

_ ارتبك قائلًا: آسف اعتقدت أنكِ أخرى.

_ قالت بغضب: أنت تعتذر عن اعتقادك، لا لإسقاطي أرضًا!

_ آسف آنسة.

لم ترد الفتاة التي ملأت الدموع عينيها؛ لتقف معتدلة تنظف ثيابها محاولة عدم النظر إليه، مما أشعره بالذنب فقال: هل لي أن أساعدك؟ كنتِ ستدخلين الشركة أليس كذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي تعدّل من هندامها فقال: أنا مدير في هذه الشركة.

أوضح لها منصبه ليجبرها على متابعة الحديث معه باهتمام بعد ما فعله بها؛ فقالت بضيق: أنا مندوبة إحدى الشركات وعلى موعد لأُقابل المسؤول عن العلاقات العامة هنا وأتمنّى ألّا تكون أنت هذا الشخص.

تحركت مسرعة داخل المبنى، ليبتسم بخبث وهو يرى خطواتها السريعة، حاول تجاوزها لينجح بعدما وقفت في منتصف البهو تبحث عن أي إشارة لتعرف إلى أين ستتجه، وقبل سؤالها موظف الأمن أسرع فارس يقف أمامها مشيرًا إلى المصعد وهو يقول: الطابق الخامس.

سارت جواره محاولة تجميع كرامتها التي بعثرها على الإسفلت، فتح باب المصعد، فدخلت ليدخل خلفها مبتسمًا، وقف قبالتها مفتول الذراعين وكأنه يستعرض طوله أمام طولها، فلم تكن هي أبدًا بالقصيرة، ولكن ما أزعجها أنّه كان ينظر لها بوقاحة وقد كان من الطول ما سمح له بإخفاء الباب والمفاتيح فرفعت رأسها بثقة أعجبته وقالت بجرأة لم يتوقعها:

ـ هل هذه طريقة وقوف تصلح في مصعد به فتاة؟

ـ ليقول بسذاجة متعمدًا: وما المناسب لوجود سيادتك؟

ـ قالت ببساطة غير مبالية إحراجه: أن تقف جانبًا، أو ربما كنت لا تركب من الأساس.

ـ ليرد ببرود: إنّها شركتي وأنا أركب كلّ يوم هكذا إذا كان لا يعجبك ذلك فتفضلي بالنزول مرة أخرى واصعدي على السلم فهي رياضة جيدة، وواضح أنكِ رياضية.

في هذه اللحظة وقف المصعد وفتح الباب لتبعده بأوراقها بغيظ قائلة وهي تتجاوزه: تركنا لك الرياضة يا كابتن كلاي.

وبمجرد أن تجاوزته سمعته محدثًا نفسه أو ربما يقصد معاكستها: فرس.

نظرت له بطرف عينيها قائلة: وقح.

أخذت تنظر حولها بحيرة محاولة البحث عن مسؤول، فوجد أنّها فرصة لتأملها من بعيد فجرأتها في الرد أحرجته حقًا ليحدث نفسه قائلًا: جميلة.. ربما رياضية.. لا.. لا يا فارس هذا لا يصح، منذ متى وأنت تنظر للفتيات هكذا؟! نبدأ من جديد قوية الشخصية، خفيفة الظلّ، نعم هكذا الوصف أفضل.

لتتبدل ملامحه وهو يكمل: نعم هي تشبهها.. كن صريحًا مع نفسك.

سمع أحد الموظفين ينادي عليه وبالتأكيد تقف هي معه، فتحرك باتجاههما على مهل.

_ الآنسة تسأل عليك أستاذ فارس.

اتسعت ابتسامته مع مغادرة الموظف ليشير لها بيديه أنّه لا فائدة، فقالت بتحدٍ ونبرة عملية: لا يهم، هل لي الحديث مع سيادتك لبعض الوقت؟

هزّ رأسه بالرفض؛ فقالت بسرعة ودون تردد: إذًا أريد الحديث مع المدير العام للشركة.

_ ولمَ كل هذا؟ تفضّلي.

أشار لها باتجاه غرفته، ولكنّها وقفت قائلة: لا أنت أولًا.

ابتسم واضعًا يده على شعره بحرج قائلًا: أنا مخطئ وددت التعامل معكِ بمبدأ السيدات أولًا.

_ عذرًا، معك يجب التعامل بمبدأ سيدنا موسى وأسير أنا خلفك يا سيادة المدير.

وبالفعل اتجه لغرفته وقد نجحت في إحراجه، وسارت هي خلفه بابتسامة نصر.

جلس على مكتبه بعملية لا تعرف أهي أدهشتها أم أعجبتها، ليشير لها بجدية: تفضلي.

جلست واضعة أوراقها على المكتب وبدأت في عرض ما لديها من مقترحات بعد إعطائه نبذة مختصرة عن الشركة التي تعمل بها، وبالطبع كما توقع لذلك علاقة بسفر خالد الأخير.

بعد انتهائها اتصل فارس بعادل الذي جاء من الغرفة المجاورة بمجرد إقفال المكالمة، جلس عادل أمام الفتاة قائلًا: بدايةً أود أن أتعرف عليكِ آنسة.

_ ملك.. مندوبة الشركة العالمية للدعاية والإعلان هنا في مصر.

استغرق الثلاثة في حديث طويل كانت هي المتحدثة الأولى بلباقة أدهشت الاثنين.

_ علمت أن شركتكم قد فتحت فرعًا خاصًا بالديكور منذ فترة قصيرة لتصبح شركة متكاملة.

هزّ الاثنان رأسيهما، لتكمل قائلة: يمكننا استخدام هذا الأمر لإقناع العميل، فمثلًا دائمًا ما يفضل الكثير تجهيز منازلهم خطوة بخطوة اعتقادًا منهم أنّ ذلك أفضل وأوفر من تكليف شركة، ولكن سنعرض عليهم الأمر بصورة مختلفة تشعرهم بمدى المشقة والمعاناة التي سيمرون بها، أي أنّنا سنعمل على الجانب النفسي للعميل، فبعد كلّ هذا التعب الذي سيمر به وربما لم ترضِه النتيجة النهائية بعد أن يكون مر بمعاناة مع الدهانات والكهرباء والسيراميك وغيرها، بالإضافة إلى أنّه لن يستطيع التنسيق بين العمال وربما يأخذ كلّ عامل عربونًا ويختفي لفترة، كلّ هذا سنوضحه في الإعلان ليجد في النهاية حياته ومستقبله يمضي في الجري خلفهم، ولن يصل لمرحلة الأثاث والديكورات النهائية والتي قبلها سيعاني تنظيف المكان، وفي الأخير لن يجد ما حلم به ويكون أمامه اختيارين إما أن يرضى بالأمر الواقع ويعيش في مكان غير راضٍ عنه أو يعيد إصلاح ما يمكن إصلاحه ويزيد التكلفة، والحل الآخر هو أن يوفر كلّ هذا العناء ويختار شركتنا والتي ستتولى كلّ شيء من تصميم وتنفيذ وحتى الأثاث

والمفروشات، ويستطيع من أول لحظة رؤية حلمه وأفكاره أمامه قبل البدء بها من خلال أمهر المصممين وبرامج الحاسب.

أنهت حديثها بسلاسة لترى نظرات الإعجاب في أعينهم واضحة، وعدها عادل بالرد خلال يومين على هذا الاقتراح بعدما أخذ منها رقم الهاتف الخاص بها.

انصرفت ليظلّ فارس ينظر إلى الفراغ الذي تركته، لاحظه عادل ليقطع الصمت قائلًا: جميلة أليس كذلك؟

انتبه فارس قائلًا: لوهلة تخيلتها مليكة، لا أعرف ما السبب ولا هذا الإحساس، منذ فترة وأنا أتوهم رؤية مليكة في كلّ مكان.

ابتسم عادل وقال: الفتاة مميزة ربما لا تأتي الفرصة مرة أخرى، لأنّك لو لم تأخذها سيأخذها غيرك بالتأكيد.

....

نظرت رحيق للأوراق المنتشرة أمامها بملل وقد تكدس بها المكتب الجديد الموجود بجوار مكتب أبيها، ورغم سعادتها عندما جلست بجوار والدها إلّا أنّ هذه السعادة تحولت عندما زاد ضغط العمل عليها.

عاد والدها ووضع أمامها بعض الشطائر، فنظرت إليه بيأس قائلة: أبي أنا منذ أكثر من أسبوع ولا يوجد وقت حتى لأتناول الطعام كباقي الموظفين، ألست ابنتك؟!

لتكمل بطفولة تستجدي عطفه: أين الواسطة هنا؟

ضحك محسن بشدة ليقول محاولًا تشجيعها: تحملي يا بطلتي أليس ذلك هو طلبك من البداية؟

لملمت أوراقها وهمّت بالمغادرة لمكتب مديرها المتعسف قائلة: كنت مخطئة.

تركت والدها في الغرفة مبتسمًا واتجهت هي لمكتب خالد الذي أعادها هذا اليوم بنفس الأوراق أربع مرات، طرقت الباب لتجده أمامها يفتح الباب مستعدًا للمغادرة، وكأنّه ينتظر مجيئها فقالت: لقد عدلت كلّ ما طلبته مني.

أخذ الملف يتصفحه، ظهر على وجهه علامات عدم الرضا ليعطيها إياه بإهمال وقد تقوس فمه باستياء قائلًا: أعيدي كتابتها مرة أخرى على الحاسب، هذا لا يصلح أن يصدر من تلميذة وغدًا يكون أمامي ملف كامل عن الأجور والمرتبات ومخطط سليم للزيادات المقترحة.

تركها مصدومة وانصرف، وبمجرد أن أعطاها ظهره أسرع ضاحكًا محدثًا نفسه: تماسكي يا جنيتي ما زال أمامنا الكثير حتى إخراجك من الشرنقة وإدخالك مرحلة الفراشة.

أما هي فاحتضنت أوراقها واتجهت لغرفة والدها وما إن دخلتها انخرطت في بكاء شديد، وقالت لوالدها بقهر: طلب مني مخططًا جديدًا يكون أمامه غدًا، أنا لم أعد أحتمل.

ابتسم وهو يضمها قائلًا: أُخبركِ سرًا.

حركت رأسها بالموافقة، فقال: أنا فعلت به أكثر من ذلك عندما جاء للتمرين قبل إنهائه الجامعة، وحتى بعد وفاة والده واستلامه العمل لقد وقف أيامًا طويلة بين العمال والموظفين ولم يشتكِ.

ـ ضمت حاجبيها باستغراب ليكمل: خالد يعلمكِ كما علمته من قبل.

ـ قالت بحسرة: يا أبي هو ينتقم منّي، يسيء استخدام سلطاته معي.

ـ ضحك محسن قائلًا: حبيبتي خالد شخص جاد في عمله، إنه تلميذي بل هو ابني ولكنّه غشيم بعض الشيء، أنا سأساعدك اليوم وسننهي كلّ ذلك، اتفقنا؟

ـ قالت بعدم تصديق: منذ عملي هنا وأنت تعاملني بجفاء.

ـ ابتسم قائلًا: كنت أريد أن تعتمدي على نفسك، ولكن أنسيتِ كم مرة ساعدتني! جاء يوم سد الدين.

....

هل هناك حقًا شيء يسمى تناسخ الأرواح؟ شخص يعيش في جسد آخر، يشبهه في صفاته أو بعض الملامح.

هذا ما كان يجول برأس فارس وهو جالس على طاولة الاجتماعات أمام ملك التي أخذت تشرح تصور الدعاية النهائي على شاشة العرض، هل تسيطر الذكريات القديمة على عقله لهذه الدرجة ليتخيلها في كلّ واحدة يراها!

ليس لون العيون فهذه الواقفة أمامه بعينين بنيتين.. مصادفة جعلت هذه الفتاة بالتحديد تسقط في طريقه، وسيصبح غبيًّا لو لم يستغل الفرصة ويطرد كلّ هذه الأفكار من عقله.

انتبه عادل لشرود أخيه، وقد أتى هذا الموعد بعد مكالمة منه لملك يخبرها موافقة الإدارة، وقبل التعاقد كان لا بد من اجتماع مطول للتحدث في التفاصيل، لتحضر برفقة مصمم الدعاية لشركتها.

احتاج عادل لوجود خالد فاتصل به لحضور الاجتماع فهو أكثر منهما دراية بهذه الأمور حسب مجال دراسته.

طرق خالد الباب وألقى التحية، فقام عادل بتعريفه على الحضور وقف المهندس وسلم على خالد وتبعته ملك بفعل نفس الشيء مما أثار غضب فارس والذي هو نفسه لا يجد مبررًا للغضب ليسأل نفسه ساخرًا لم تسلم على أحد والآن تسلم عليه!

ـ جلس خالد بجواره قائلًا بهمس: رد السلام واجب.

ـ قال فارس بتجهم وقد هم بالوقوف: عندما تنتهون من الاتفاق استدعوني من أجل الحسابات المالية فلا داعي لوجودي الآن.

وانصرف فورًا أمام دهشة الجميع ونظراتهم المتسائلة لتسبقهم ملك بالحديث قائلة: هل هناك مشكلة؟

رد زميلها قائلًا: ربما شيء في الكلام أزعجه.

تحدث عادل قائلًا: لا عليكما؛ فبحضور المهندس خالد لم يعد هناك داعٍ لتعطيل عمله أكثر من ذلك.

بدأ الجميع بالانهماك في العمل مرة أخرى واستغرق خالد في الحديث مع المهندس الآخر، ولكن عادل كان تفكيره قد انصب في طريق آخر على غير عادته ليجلس بالقرب من ملك محاولًا جذب أطراف الحديث معها مستغلًا فرصة انشغالهما، ليقول بابتسامة: الحياة في مصر أفضل أم بالخارج آنسة ملك؟

حاولت فهم مغزى سؤاله وهو ليس بالشخصية الثرثارة لتجيبه: مؤكد كلّ مكان لنا به ذكريات يصبح الأفضل في وقتٍ ما.

_ هذا يعني أنّ الأفضل لكِ مختلف.

_ لا أعرف ربما الخطوة الجديدة.

_ قال مصممًا على خوض هذا الحوار: وهل العودة لحياتك الأساسية مخيف؟! مهما بعدنا لابد يومًا من العودة.

هزّت رأسها بصمت محاولة إنهاء هذا الحوار، فلقد أربكتها محاولته في التقرب منها، لتتفاجأ بقوله: أعتقد لو أنكِ مرتبطة بأحدهم هنا ما فكرتِ في السفر أبدًا.

لاحظ خالد التوتر الظاهر على الفتاة وتركيز عادل معها وهذا ليس بطبعه؛ فحاول إدخالهما في الحديث وبعد الكثير من الوقت واستدعاء فارس مرة

أخرى لينتهي الاجتماع بنجاح، واتفاق بتوقيع العقود في اليوم التالي مع هاشم والمدير المسؤول عن الشركة بمصر.

وقفت ملك تجمع أوراقها في حين غادر زميلها بعدما رفضت عرضه بتوصيلها في طريقه، وظلّ الشباب الثلاثة في حوار جانبي غير مهتمين بالطرف الآخر، ولكن هذا ما كان ظاهرًا، المشهد من بعيد.

كان فارس يختلس النظرات بين الحين والآخر مترددًا في محاولة اللحاق بها للحديث عن أي شيء، ولكن كيف وهناك خالد وعادل ولم يغب عنه أنّ أخاه مهتمٌ بها ربما اهتمام لا يقل عنه.

اتجه عادل لملك قائلًا: هل جمع الأوراق يستدعي هذا التوتر؟

تبادل خالد وفارس النظرات باندهاش لما يفعله عادل؛ فلأول مرة يتصرف بهذا الشكل الفظ.

ولكن فارس لم يرَ الأمر من هذه الزاوية فقط، فقال بلهجةٍ حادةٍ:

_ أنا سأغادر، يمكنني توصيلك لأي مكان فالوقت تأخر.

_ أضاف خالد: أنا مع هذا الرأي.

قال عادل بنبرة لم يفهم الآخرون أهو يسخر أم يمزح بغير عادة:

_ أمامكِ حرية الاختيار بين ثلاثتنا، تحت أمرك جميعًا.

ظهر الخجل على الفتاة التي لم تحاول الرد، نظر فارس لأخيه بغضب لا يستوعب ما يفعله فتدارك خالد الأمر بسرعة ليقول موجهًا الكلام لعادل: أحتاجك قليلًا في بعض الأمور.

ونظر لملك مبتسمًا ينقذها من هذا الموقف وقال: آنسة سعدت بلقائك أرى أن يوصلك فارس أفضل من الركوب مع سائق لا تعرفينه.

وبمجرد أن حاول مدّ ذراعه بالسلام تلقفها فارس قائلًا: أراك بالمنزل.

وأشار لملك التي نظرت له مترددة أن تسير أمامه ليفهم مقصدها ويسبقها قائلًا بهمس: هذه المرة لم أقصد.

ابتسمت وكلّ ما تفكر به كيف سيمضي الطريق مع هذه الدبابة التي تسير أمامها.

وبمجرد مغادرتهما المكان قال خالد لعادل بتأنيب:

ـ لماذا تعاملت مع الفتاة هكذا وتعمدت إحراجنا جميعًا؟

ـ رد عادل ببرود: وماذا فعلت أنا؟! هل يجب أن أظل صامتًا لا أتحدث إلّا عن العمل؟

ـ عادل أنا لا أفهمك، مؤكد لاحظت اهتمام فارس بالفتاة لماذا فعلت ذلك؟

ظلّ ينظر له دون أن يبدي أي تعليق؛ ليكمل خالد بصدمة: عادل ماذا بك؟؟ لا يمكن.. هل أعجبتك؟!

ـ ضحك بسخرية قائلًا: حقيقة هي تعجب أي أحد لا تنكر.

ـ رد بريبة: عادل ماذا حدث لك؟!

ـ هيّا لنعُدْ للمنزل يكفي هذا اليوم.

ـ أوقفه قائلًا: أرجوك يا عادل لا تفعل ذلك بفارس.

ـ ربت على كتفه قائلًا: هل تراني بهذه السذاجة؟ أعدك لن يتكرر شيء بعد الآن سأترك الأمر كما تريد.

....

ركب فارس أمام عجلة القيادة تنتابه مشاعر مختلفة بسب قبولها الركوب معه، هل يسعد بهذا الأمر؟!

وجدت ملك نفسها كالفأر بجواره، فرغم طولها إلّا أن بنيانه الجسدي يفوقها، وقبل أن يُدير السيارة لاحظ توترها بمجرد ركوبه، ففتح سقف السيارة قائلًا: أليس هذا أفضل؟

ابتسمت دون محاولة للرد وتحرك هو بسيارته منطلقًا بها بعدما علم وجهتها وأين تسكن، ولكنّه لم يستطع كبت فضوله ليسألها قائلًا: لماذا رفضتِ الركوب مع زميلك؟

ـ تريد الصراحة؟

هزّ رأسه بالإيجاب دون النظر إليها محاولًا التركيز في الطريق، فقالت: لم أعتد الركوب مع أحد لا أعرفه.

لم يحاول التعليق فقط خطف نظرة سريعة لها وأعاد تركيزه في الطريق، عمّ الصمت بينهما بعض الوقت ليتحدث أخيرًا قائلًا: بما أنكِ ستظلين بمصر أعتقد أنّه من الأفضل شراء سيارة، مؤكد لست متواجدًا بكل الشركات التي ستتعاملين معها.

ـ ابتسمت بخجل وقالت: أنا لا أستطيع القيادة.

_ تعلّمي الأمر سهل.

_ قالت بتوتر: عندي رهاب، لا أستطيع القيادة بمفردي.

_ أطلق فارس ضحكة وقال: تخشين القيادة ولا يفرق معكِ ركوب المصعد بمفردك!

_ قالت بخجل: الأمر مؤكد مختلف هناك مَن يهابون الارتفاعات ولا يخشون من الأماكن المغلقة.

_ اقتربنا من الوصول هل ستنزلين أمام المنزل أم بعيدًا؟

_ نظرت له بغيظ قائلة: وهل أفعل شيئًا خاطئًا لأنزل بعيدًا عن الأنظار؟!

...

في صباح اليوم التالي جلس خالد على مكتبه مشغول العقل بما حدث بالأمس، انتبه لطرقات الباب الهامسة، دقات عرف صاحبتها ليأذن لها بالدخول، وقفت رحيق مرتبكة كعادتها تضع أمامه الملف في صمت، التقط الملف ليفتحه ويمر عبر صفحاته، وبين كلّ صفحة والأخرى يرفع عينيه متعمدًا النظر إليها، أُلقي بالملف على المكتب بعنف فانتفضت معه الواقفة أمامه كالتلميذ الذي ينتظر تعليق المعلم على واجبه المنزلي، وقال أخيرًا وهو يدق بقلمه على المكتب: وهل لي أن أُعدل على الأستاذ محسن؟

_ نعم؟!

_ هل أنا ساذج لدرجة ألّا أعلم مَن قام بذلك.

_ قالت ببراءة معترفة: لقد ساعدني فقط.

بالطبع لم ينتظر تأكيدًا منها فما بالملف يحتاج خبرة سنوات طويلة، ولكنّه تظاهر بالجدية أمام سرعة اعترافها التي لم يبذل من أجلها أي مجهود، وقف قائلًا بغضب مصطنع:

ـ غدًا يكون أمامي المقترح الذي طلبته.

ـ قالت محاولة عدم البكاء: كيف يومين فقط؟

ـ هذا لا يهمني، أمامك عمل أنجزيه وأُحذركِ من الاستعانة بأحد.

خرجت مسرعة تكاد تبكي، ندم على ما فعل فقد كان فظًا أكثر من اللازم، وما طلبه صعب تحقيقه خلال يومين خاصة أنّ ليس لديها الخبرة الكافية.

اتجه إلى مكتب محسن فوجده بمفرده، جلس أمامه لا يعرف ماذا يقول، نظر محسن له بابتسامة، فقال خالد: كنت مبالغًا؟

حرك محسن رأسه بالإيجاب وعلى وجهه نفس الابتسامة، ليكمل خالد قائلًا:

ـ مؤكد أنت غير راضٍ على ما فعلت، كنت أريد تعليمها تحمل ضغوط العمل وألّا تعتمد عليك، هي سريعة البكاء وردود فعلها لا تصلح في العمل و...

ـ قاطعه قائلًا: أعلم يا بني.

ـ قال بحرج: سامحني.

ـ لم أقل أني غير راضٍ عمّا تفعل أو أنّك أخطأت حاشا لله يا بني إنه مَالُك ومصلحتك.

ـ لم أقصد إهانتها، يعلم الله أنّ مكانتها في قلبي لا تقل عنك.

صمت قليلًا وتوقع محسن أنْ يصححَ ما قال دون أن يشعر، ليؤكد قائلًا:

ـ نعم مكانتها مختلفة عندي و..

ـ قاطعه محسن قبل أن يكمل بما يندم عليه وقال: يعلم الله ما في القلوب يا بني، في الماضي عندما ضغطت عليك في العمل وعنّفتك لتجلس مكان أبيك وتتحمل المسؤولية من بعده، واعترضت على تفكيرك في السفر وترك كل شيء وراءك كأنك تعيد خطأ عمك؛ كنت أفعل ذلك لأني أردت أن تشتد وتقوى.

ـ قال خالد بأدبٍ: سأظل طوال حياتي مدينًا لك.

ـ أريدك أن تعرف الفرق بين رجل نشتد عليه ليجمد وبين فتاة إذا شددنا عليها ستنكسر، يا بني لا يجب أن نكسر الفتاة، بل يجب أن تشتد وتقوى بنا وليس بسببنا، أن تكون معها الهين اللين وليس الفظ الغليظ.

نظر خالد بإعجاب له وقد أعطاه درسًا سريعًا فهمه جيدًا كعادته ليقول:

ـ معك حق.

ـ قال محسن مبتسمًا: عندما تنجب بنتًا أُحذرك أن تكون غشيمًا هكذا.

ـ ابتسم خالد قائلًا: حينها سأسألك كيف ربيت رحيق لتكون مثلها.

ـ أصلح الأمر كما ترى وأعطها مهلة فأنا شخصيًا لن أستطيع إنهاء هذه الحسابات في يومين.

ـ ابتسم خالد ببراءة قائلًا: أنا لا أعرف كيف طلبت ذلك من الأساس.

عاد خالد إلى غرفته فوجدها تنتظره، وما زالت آثار الدموع تغزو عينيها، وقفت أمامه تحاول التماسك قائلة:

ـ جئت لأُخبرك أني لا أستطيع العمل هنا، وبما أني لم أكتب إلى الآن أيّ عقد فأردت إخبارك بنفسي أني أعتذر عن العمل.

ـ هل عم محسن يعلم ذلك؟

ـ وما دخل أبي بالأمر؟ أنا هنا شخص مستقل.

ـ أليس مديرك بالعمل؟

ـ قالت بتحدٍ: إذًا سأخبره وأنصرف.

وهمت بالمغادرة ليوقفها نداؤه.

ـ رحيق.... تحرك ليقف في مواجهتها وقال: أعلم أني ضغطت عليكِ، آسف.

ومع مفاجأتها من اعتذاره الذي لم تتوقعه لم تجد ردًا، فقال: ما طلبته منكِ أمامك مهلة لإنجازه، ولكن... ليصمت قليلًا وحاولت هي التركيز فمؤكد هناك أمر أصعب من سابقه، اقترب منها خطوة لتتشتت أفكارها ويدرك هو تأثيره عليها قائلًا: سأطلب منكِ مهمة أخرى أكثر تعقيدًا ولكنها سهلة إذا كنتِ عند حسن ظني.

أغمضت عينيها بشدة لتفتحها بيأس قائلة: أكثر تعقيدًا؟!

تحرك يتخطاها فأغمضت عينيها لا تعرف ماذا يحدث لها بقربه وكأنّ هناك هالة حوله كلما اقترب دخلت بها دون إرادة، اتجه لمكتبه فوجدها ما زالت تقف أمام الباب، فقال ضاحكًا: رحيق، هل سنتحدث هكذا؟

تحركت بصعوبة باتجاهه، فأمسك بعض أوراق الرسم ليعطيها لها قائلًا: هذه مهمتك الجديدة.

ـ تناولت الأوراق بدهشة قائلة: لا أفهم.

ـ ردّ بابتسامة: ارسمي ما يحلو لكِ.

ـ نظرت له ببلاهة وقالت: ماذا أرسم؟!

ـ أي شيء حتى ولو جنيات الأساطير.

ليصمت لحظة مدركًا خطأه أمام اندهاشها، فأكمل: بالتأكيد لو حاولتِ رسم قطع أثاث سيكون أفضل، لأني مصمم أن تكوني مساعدتي.

ـ قالت بعدم تصديق: أنا لا أفهم شيئًا عن الأثاث.

ـ ارسمي وأنا سأُساعدك ومع الوقت ستفهمين كل شيء.

لم تحاول الرد وكأنها ليست مقتنعة فقال: تخيلي ماذا تتمنين أن تجدي في منزلك، مثلًا الطاولة التي تحبين الأكل عليها، كيف تحلُمين أن تكون غرفتك؟ أو حتى مطبخك أي فكرة ولو بسيطة ارسميها وأنا سأعلمكِ كيف تحوليها لحقيقة، كلّ ما أريده منكِ أن ترسمي بجرأة.. بحرية.. لا تضعي قيودًا في رسمك واتركي الباقي لي.

التقط مجموعة من الأقلام المصفوفة على المكتب ليعطيها إيّاها قائلًا: أحتاج لأفكار جديدة ولا يوجد أحد يرسم هنا غيري، كنت أبحث عن مساعِدة ولو لم تكن أنتِ سأبحث عن أخرى بالتأكيد.

أنهى كلامه بخبث منتظرًا ردها فقالت بعد فترة ليست بالقصيرة: مساعِدة؟! ألا يوجد مساعدون رجال، هل لا بد أن تكون بتاء التأنيث؟! غريبة حقًّا!

قال بابتسامة وقد وصل لما يريد: صراحة أريد أفكار الجنس الآخر لأنني لاحظت ذلك عند تعديلك للمقعد، تفكيركن مختلف عنا، فلو أن العرض بالنسبة لكِ ليس جيدًا فلا بأس سأتصرف.

أمسكت الأقلام والأوراق بقوة ونظرت للمكتب وعادت تنظر له فاعتقد أنّها تفكر في إلقاء الأدوات من يدها، ولكنّها مالت على المكتب تلتقط الممحاة خاصته وهي تقول: ينقصني هذه.

وانصرفت بسرعة وتركته مع نسيمها ليظل فترة مغمضًا عينيه يخشى هروب طيفها من أمامه.

....

قد تلتقي بأحدهم لأول مرة في حياتك وبعد دقائق تشعر أنك تعرفه منذ زمن، وقد تعيش حياة مع آخر لتكتشف أنّك لم تعرفه أبدًا هذا حال البشر، أتكون العشرة دليلًا على المعرفة؟! أم أن تلاقي الأرواح لا يحتاج الكثير من الوقت؟

الغضب، الحيرة، الشك، انفعالات حاول فارس كبتها وعدم إظهارها وهو يرى ملك أمامه كلّ يوم، فظهورها في الشركة أصبح معتادًا وتعاملها معه ومع أخيه أصبح أمرًا طبيعيًا، معاملتها معه كانت ببساطة وعلاقتهما

طبيعية، مما كان يشتت تفكيره ولا يستطيع وضع توقع لمشاعرها ولا مشاعره.

ولكن لم يستطع منع نظرات الإعجاب التي كانت تخونه لتصل إليها، وللأسف دائمًا ما كان عاجز عن تفسير نظراتها له ولأخيه أهي متشابهة أم مختلفة! هل نظرات أخيه لها تحمل أيّ معنى؟

وكما اعتاد يخرج كلّ انفعالاته في هذه الصالة الرياضية الصغيرة التي صممها في منزل العائلة فيصبح من حظها العاثر أن تكون هي مكان تلقي غضبه الدائم والذي يحاول عدم إظهاره لأحد.

مر شهر والعمل يسير في مؤسسة نجيب على أكمل وجه، هاشم سعيد بما وصل له الشباب من نتيجة وتغيير دماء العمل بأفكار جديدة مما أسفر عن نجاح لم يتوقعه أحد، وها هي حملة الإعلانات أثمرت أكثر مما توقع، خائف هو من لحظة وصول أخيه مختار، مترقب اليوم الذي يتصل فيه والده ليخبره بوجوده.

وقد جاءت أسرع من اللازم، ورغم سعادته بعودة أخيه إلّا أنه قَلق مما ستسببه قرارات والده بمستقبل العائلة.

....

في المصنع وتحديدًا في مكتب مديره، جلس خالد وأمامه على المكتب جلست رحيق والتي أصبح هذا الكرسي مكانها الدائم أكثر من غرفة والدها.

بدأ الأمر بتعديل خالد لبعض رسوماتها التي وجدها مميزة بالفعل كما توقع، ينقصها الخبرة وقليل من المهارة راهن نفسه على أن تصل لها سريعًا.

تطور الأمر بعد ذلك لإعطائها دروسًا في تصميم الأثاث كل يوم، لتكون فرصتها في الإبداع أكبر، ولكن بالطبع هذا الأمر لم يرضِ محسن الذي وجد فيه ضررًا لابنته أكثر من نفعه، تحدث مع خالد في إحدى المرات قائلًا:

_ ألا يكفي ذلك؟

_ رد بعدم فهم: وهل فعلت شيئًا أغضبك؟

_ الأمر طال.. كفى يا بني.

_ يعلم الله أني أحافظ عليها حتى من نفسي، ألا تثق بي؟

_ بلى يا بني، ولكن الناس لا تترك أحدًا... و... ولا أريد أن يمس ابنتي أي سوء.

_ رحيق حقًّا فنانة، أفكارها مختلفة وخيالها مميز، لذلك سعيت لتطوير مهاراتها.

_ وتطورت وانتهى الأمر.

_ لا تخف عليها مني أرجوك، أنت تعلم باب الغرفة دائمًا مفتوح و...

_ يكفي يا خالد، ومع ذلك سأقولها لك وتذكر ذلك جيدًا رحيق أمانة في رقبتك.

_ رحيق في عيني وقلبي أعدك أن أفعل ما يرضيك في أقرب وقت.

غادر محسن وهو يخبر نفسه أنّه هو السبب، هو مَن سكب الجاز وأشعل النار بجواره، ولم يفكر جيدًا في النتيجة التي وصل لها الآن!

دخل غرفته ليجدها تعد أوراقها للذهاب له فقال: تابعي عملك من هنا.

نظرت لوالدها باندهاش قائلة: ما السبب؟!

_ حبيبتي هذا أفضل لكِ.

_ أنا لم أعد أفكر في هذه الأمور يا أبي أنت تعلم و...

_ قاطعها قائلًا: أنا أعلم ما بداخلك جيدًا.

ليصمت لحظة قبل أن يردف: وما بداخله ولذلك لي عندكِ رجاء، لأول مرة أطلب منكِ شيئًا منذ سنوات.

نظرت لولدها بترقب، فقال: أخبري خالد بكل شيء، هذا أفضل لكِ وله.

_ قالت بذعر: لا يا أبي أرجوك أنا سعيدة هكذا.

_ ولأول مرة يعلو صوته عليها بتهديد قائلًا: تركتكِ بحريتك كثيرًا.

غادرت مسرعة غرفة والدها، متجهة للمكان الذي وجدت به نفسها، تتضارب الأفكار برأسها ما بين ذكريات من سنوات مضت لا تريد تذكرها، ولحظات جميلة لأيام قليلة مرت بسرعة.

دخلت بهدوئها المعتاد ولم يكن حاله بمختلف عنها كثيرًا، ليتبادلا النظرات، فلقد فضلت العيون التحدث بما هو أبلغ من الكلام.

جلست بترددٍ تخشى أن يكون والدها قد أباح له بشيء، وضعت أمامه الأوراق ليأخذها ويبدأ العمل معها كما اعتاد، وكلّ منهما يخبر نفسه أنّه ربما هي المرة الأخيرة.

لم تغِب عنه عيناها الدامعتان ولا رعشة يدها وهي ممسكة بالقلم؛ ليعلم أن حديث محسن لم يختصه فقط، وبعد انتهاء عملهما الذي كانت نتيجته مبهرة لكليهما، قال: لم أتخيل أن نصل لتصميم كامل بهذا الجمال.

نظرت له بشك قائلة: ولماذا مظهرك لا يوحي بذلك؟!

ابتسم قائلًا: لأنّ هناك ما هو أكبر من أن أصل لتصميم رائع يا رحيق.

_ وما هو؟

_ أن تظلي هنا جواري.

_ قالت محاولة المرح وكأنّ رده بدا عاديًا: وهل يحب أحد أن يكون له شريك في مكانه لقد احتللت الغرفة تقريبًا!

_ أنت احتللتِ ما هو أكبر وأغلى من كلّ ذلك.

وقفت فجأة لتوقف حديثه وغادرت مسرعة.

....

أما في مقر الشركة لم يختلف الحال كثيرًا..

جلس فارس يفكر في هذه التي ملكت فكره منذ أول لحظة رآها، ولكن هناك شيء يقلقه من نظرات عادل لها، شيء يصيبه بالخوف، لا إنه يكاد يجن لو حقًا إحساسه بنظرات أخيه حقيقيًا، ليقرر المواجهة مع الجميع.

أمسك بهاتفه واتصل برقمها يطلب منها لقاء خارج الشركة، مرات معدودة جمعتهما وفي كلّ مرة كان هناك حاجز بينهما يزول سريعًا، أهذا هو الحبّ؟ أيجعله الحبّ يشك في أقرب الناس إليه؟

هل يحبّها حقًا أم يحبّ ذكرى أخرى يراها بها؟

انطلق مغادرًا غرفته ودخل مندفعًا لغرفة عادل الذي تفاجأ به أمامه حاد الملامح تنتفض عروق جبينه كما يعرف عن أخيه عندما ينتابه الغضب، فوقف بهدوء قائلًا: ما وراء هذه الثورة؟

_ أريد الحديث معك في أمر خاص.

_ وهل علاقتنا تستدعي الاستئذان!

_ هل بداخلك أي مشاعر تجاه ملك؟

وانتظر الرد الذي طال، ورغم معرفته الجيدة بأخيه إلّا أنّ عادل كان من الدهاء ما جعله يتحكم بتعبيراته ليظلّ صامتًا ينظر لفارس دون رد، مما أثار غضبه أكثر فقال بصوت احتدت نبرته: إذا لم ترد على سؤالي سأعتبر صمتك هذا إجابته نعم.

اقترب عادل منه ولم يغِب عنه سرعة أنفاس أخيه، ليضع يديه على كتفي فارس قائلًا بنفس الهدوء معاتبًا إياه: أهذا الغضب كلّه بسببي أنا؟! هل هذا ظنك بأخيك؟!

ابتعد بعدها عنه موليًا له ظهره، فاقترب فارس منه يجذبه قائلًا: لم أكن أقصد ذلك، ولكن... مشاعرنا ليس لنا سيطرة عليها.

ابتسم عادل قائلًا بمكر: أنا مشاعري أُسيطر عليها كما أُريد، أما مشاعرك فأنت حر بها.

ـ قال فارس بعدم فهم: هل كان هناك شيء لتسيطر على مشاعرك تجاهه؟

_ ما الذي جعلك تقول ذلك؟

_ نظراتك، معاملتك لها، كلّ شيء مختلف.

ـ ضحك بشدة قائلًا: وهل لا بد أن أكون عديم الذوق مغرورًا؟!

_ عادل إنها المرة الأولى والأخيرة التي أسألك فيها.

قاطعه رنين هاتفه باتصالها، ارتبك وهو يعيد الهاتف لجيبه مرة أخرى وينظر لأخيه بقلة حيلة.

_ اذهب حيث أتيت يا فارس ورد على هاتفك، وإلّا ستصبح عديم الذوق كما تريدني أن أفعل.

خرج فارس من الغرفة مشتت الذهن، أمسك هاتفه ليتصل بها معتذرًا عن عدم الرد، واتجه بعدها إلى حيث حدّد اللقاء في إحدى الأماكن الهادئة والبعيدة عن الزحام.

رآها من بعيد تقبل عليه بخيلائها وعنفوانها المغري ليسأل نفسه مع كلّ خطوة تقربها منه: هل ما سيقوله هو الصواب؟ أم سيندم بعدها؟

وقفت قبالته تلقي السلام كعادتها بابتسامة ساحرة، وبعد أن رحب بها جلست أمامه ليسود الصمت لبعض الوقت، نسي نفسه وهو يسرح

بتفاصيلها ولم يفق إلّا أمام خجلها الواضح وهي تقول: سأندم أني لبيت الدعوة.

_ أكنتِ مترددة؟

_ ردت بثقة أدهشته: أبدًا لم أتردد لحظة.

_ فقال محاولًا استفزازها: صراحة أنا أندهش لقبولك السريع.

_ ابتسمت بدهاء مدركة محاولته قائلة: ولماذا أُخفي موقفي؟ أنت طلبت لقائي في مكانٍ عامٍ خارج الشركة، وأنا قبلت لأنّ لديّ فضول أن أعرف السبب.

لاحظت ضغطه على مفاتيحه بشدة فقالت: ألم يعجبك الرد؟

_ ملك أنا تعودت أن أكون واضحًا فلا داعي لأن يكون حديثنا مبهمًا نواري فيه ما نريد.

_ وهذا ما عهدته بك، صراحة رغم نظراتك الجريئة أو الوقحة أحيانًا.

لتضحك دون النظر إليه وتكمل سريعًا: إلّا أنّني عرفتك بما يكفي لأفهم أنك واضح ولا تحبّ المراوغة.

_ وهل أنا بهذه السهولة لتستطيعي معرفتي هكذا؟

_ لم أقصد ولكن.. عندما تهتم بأحدهم فستجد نفسك تفسر له كلّ تصرفاته.

وكانت جملتها الأخيرة مفتاحًا له للبوح بما يريد، وكأنها تشجعه على بداية الخطوة التي لا يستطيع أخذها ليقول: واثق أنكِ من الفراسة والذكاء ما يجعلكِ تفهمين ما أُكنه تجاهك.

دائمًا ما تحاول عدم إظهار مشاعرها، ولكن هذه المرة تغلبت بها الأنثى، ظل صامتًا لحظات يعطيها فرصة لاستيعاب ما قال؛ ليجدها تداركت حديثه سريعًا قائلة: معرفة ذلك لا يحتاج لذكاء، يكفي أن أترك الأمر لإحساسي لأعرف.

أخذ نفسًا عميقًا محاولًا طمأنة نفسه أنّه سيصل لما يريد، فها هي تعطيه الفرصة وراء الأخرى: وماذا أخبركِ إحساسك؟

_ إحساسي لا يجب أن يخبرك، عليك أنت أن تخبره أولًا.

كانت تتحدث دون أن تنظر إليه وكأنها تسرح في المشهد الهادئ من بعيد، ليرمي بمفاتيحه جانبًا ويقف حاملًا كرسيه يضعه جوارها ليجلس ناظرًا كما تنظر هي، ارتبكت مما فعل رغم أنّه ما زال بعيدًا عنها، لم يدع لها فرصة للحديث ليقول:

_ منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها وأنتِ تسيطرين على تفكيري، لو كنت وضعت صورة لفتاة أحلامي لم أكن أجد غيرك، لا أعرف كيف اجتمع بكِ كلّ ذلك، لا أعرف كيف دخلتِ لأعماقي.

صمت يأخذ أنفاسه وينظر لها محاولًا الوصول لرد فعل، ولكنّه وجد دموعًا تتلألأ بعينيها بكبرياء ليقول بدهشة: ملك لماذا هذه الدموع؟

حاولت جمع مشاعرها التي بعثرها للمرة الثانية وقالت: تذكرت عندما أسقطتني أرضًا.

قال بدهشة: أقول كلّ ذلك لتبكي على سقوطك بعد هذه الأشهر؟!

نظرت له بمشاكسة تحاول تغيير مجرى الحديث: أهذا تأنيب الضمير مما فعلته بي حينها؟

قال مجاريًا حديثها: أنتِ من المفترض مَن يؤنبها ضميرها عما فعلته بي.

_ أنا! ماذا فعلت؟

_ أعطيتني درسًا في آداب الطريق ومن بعده درسًا في آداب معاملة النساء وسنن الأنبياء.

_ ضحكت بشدة قائلة: أنت تستحق ذلك، كنت جريئًا للغاية، أهكذا تنظر للفتيات دائمًا؟

_ ليقول بصدق ظهر في نبرته: لم أنظر هكذا أبدًا لفتاة في حياتي سوى واحدة.

نظرت له متسائلة ولم يخفَ عليه بعض من الغيرة في عينيها فقال: هل لو أخبرتكِ أمرًا ستقدرينه؟

_ قالت بريبة: أهناك شيء يمكن أن يزعجني؟

_ لا أعلم، ولكن ذلك من حقك بعد أن أخبرتك عن مشاعري تجاهك وقبل أن أكون وقحًا كالعادة فأسألك عن مشاعرك.

_ ضحكت على وصفه لنفسه قائلة: صريح أنت أكثر من اللازم.

_ أتذكرين أول مرة رأيتك؟

_ وهل أنسى بعثرتي على الطريق.

_ من هنا بدأت مشكلتي، منذ أول مرة رأيتك وأنا أتذكرها، تشبهينها إلى حدٍ كبيرٍ.

_ قاطعته تشير بيدها أن يصمت قائلة: حبيبتك؟

_ قال مدافعًا عن نفسه وكأنّها تتهمه: لا، لم تكن لي حبيبة يومًا إنّها ابنة عمي لم أرَها منذ سنوات طويلة، منذ كانت في الخامسة عشر من عمرها تقريبًا.

مسحت دمعة خانتها وكأنّها تعيدها من حيث أتت فقال: رغم مشاعري تجاهك ولكن بداخلي ذنب أن يكون ما لفت نظري إليك هو التشابه بينكما، وردة تفتحت أمامي وأنا أحلم باليوم الذي سأقطفها فيه وأستأثر بها لنفسي.

_مليكة... ناديتني بها أول مرة.

_ سنوات طويلة منذ سفرها وأنا أنتظر عودتها، كانت كظلي ترافقني كقريني منذ وعت للدنيا وتعلقت بي، لم يكن بعيدًا عن كلّ مَن حولنا أن تكون مدللة العائلة مكتوبة لابن عمها، ولم يكن هناك مرشح غيري.

هنا شاهد دموعها التي لم تعد تقوى السيطرة عليها، ليكمل قائلًا: وجئتِ أنتِ لأكتشف أني عشت وهمًا وأنّ هناك حقيقة أمامي أخشى ضياعها.

وضعت يدها على وجهها تخفيه عنه، ليقول مكملًا: صدقيني كلّ ما أعرفه أنكِ ما أريد، متأكد أنّ أحلامي وجدتها فيكِ أنتِ.

ظلّ الصمت يخيم عليهما دقائق أمضاها هو بتوتر، ليكسر الصمت الذي أحرقه وقد هدأت قليلًا: هل لي أن أعرف تعليقك.

_ سألتني لماذا وافقت على الركوب معك؟ ولماذا أتيت بهذه السهولة للقائك؟ وأخيرًا ماذا أخبرني إحساسي؟

_ ابتسم قائلًا: كنت دائمًا أتمنى فتاة لماحة تفهمني سريعًا، ولكن بدأت أخشى هذا الذكاء.

_ إجابة السؤال الأول الثقة ما جعلتني أركب معك؛ فعندما يكون هناك شخص قريب منك لدرجة لا يتخيلها هو.. لماذا أرفض؟

لمعت عيناه ولم يحاول مقاطعتها، لتكمل قائلة: لأول مرة في حياتي آخذ موعد للقاء أحدهم خارج حدود عملي.

صمتت لحظات تنتقي الكلمات التي يحاول هو جمعها، وقد بدأ تفكيره يتشتت أكثر من اللازم.

_ لأنّك أقرب لي مما تشعر، أخبرني إحساسي منذ اللحظة الأولى التي أسقطتني فيها أرضًا أنّك ستبعثر مشاعري كما بعثرت أوراقي، ولكن..

قاطعها لأول مرة قائلًا بانفعال: لا أريد ولكن، أرجوكِ إلى هنا ونقف، فقط أخبريني أنّ ما بداخلك مثلي.

ـ لتقول بجرأة: إنّه أكثر بكثير مما وصفته أنت، ما بداخلي لا أستطع إخبارك به إلّا عندما يكون من حقنا ذلك، لأنّ حقنا وقف عند هذه النقطة ويجب ألّا نكمل الحديث بها.

ـ هزّ رأسه بتفهم وقال: أعدك في أقرب وقت سيكون.

ـ لي طلب واحد.

نظر لها يحثها على الإكمال، فقالت وهي تنظر بعينيه لأول مرة: عدني ألّا تتركني أبدًا، عدني ألّا أكون إلّا لك، عدني ألّا تجرح مشاعري بعد أن صدقتك، لا أريد أن أندم يومًا.

ـ لو هناك وعد يكتب لكنت فعلت، لو أنّ هناك وثيقة للحبّ لوقعت، لن أسمح أن تكوني إلّا لي، لن أسمح لنفسي أن أتركِ بعد أن وجدتك، الحبّ وعد والوعد دين وأنا مديون لكِ من الآن يا ملك.

....

في بيت المزرعة اجتمع الأب بابنيه لأوّل مرة منذ فترة، ورغم حسرة قلبه على فراق ثالثهم إلّا أنّه سعيد بعودة هذا الابن المتمرد مرة أخرى.

كان اللقاء حارًا بين أب أخذ الشيب بقوته وابن عاد مخذولًا نادمًا على تركه لوالده كلّ هذه السنوات، وهناك يقف هاشم ما بين سعادة وخوف من القادم، فما أخبره به والده لا يعرف كيف سيمر.

وبعد الكثير من الوقت الذي مرّ بين ندمٍ وعتابٍ، أخذ مختار يخبرهما تفاصيل ما حدث لابنته.

وقف نجيب مستندًا على عصاه يقول بانفعال: وكيف يحدث كلّ ذلك ولا تخبر أحدًا! ما تخبرنا به الآن كارثة حدثت للفتاة.

ظلّ مختار جالسًا يشبك أصابع يده ببعضها ينظر أرضًا بانكسار، فقال هاشم: كلّ ذلك ولم تلجأ لنا؟!

ـ قال بحسرة: أعود لأُخبركم أنّ المرأة التي تركت ابنتي سنوات معكم لأجلها وسافرت لم تتحمل أن تصبر معي بعد ما حدث لابنتي، أنفذ طلبها بأن أبعثها لكم تتحملون مسؤوليتها ومصاريف علاجها بدلًا مني.

ـ قال نجيب بحزن: وما النتيجة جئت في النهاية.

ـ رد مدافعًا عن نفسه: لا يا حاج عدت بابنتي تقف على قدميها حتى ولو كانت لم تتعافَ بعد.

ـ قال هاشم: لم يعد يفيد العتاب، لقد كانت بين أبنائنا مكرّمة منذ وفاة والدتها، كانت إحسان لها نعم الأم، تعود وتعيش مع أمها التي أرضعتها وحرمتها أنت منها، تعيش بين إخوانها من أولاد عمومتها.

ـ قال نجيب برفض: لا يا هاشم الفتاة لها أخ واحد فقط هو ابن إحسان، ابنيك ليسا أخويها.

ونظر لمختار قائلًا: عودتك مشروطة، هاشم يعلم أني قررت تقسيم أموالي بما يرضي الله، لن أنتظر أن تختلفوا على الإرث بعد وفاتي.

ـ اعترض هاشم قائلًا: كيف ذلك يا حاج، أهذا عهدك بأبنائك؟

_ ألم يسافر بعدما رفضتُ إعطاءَه نصيبه وأنا على قيد الحياة؟ ألم يكن هذا سبب حسرة إبراهيم بعدما اتهمه أخيه الأصغر أنّه يطمع في المصنع لنفسه!

قال هاشم محاولًا تهدئة الموقف: ليس لهذا الحديث داعٍ، مختار طوال عمره صغيرك المفضل يا حاج.

ليقول نجيب متحاملًا على نفسه: لم يقدر أنّه هو الوحيد بينكم الذي تركته يكمل تعليمه بالخارج، وبدلًا من أن أفخر به استعر هو من مصنعي الصغير، وأراد أن أُكمل تفضيله عليكما وأبني له مشفى، ترك ابنته رضيعة بعد أن ماتت أمها بمجرد ولادتها لتصبح يتيمة الأب أيضًا، لم يراع أنّ أخاه الذي اتهمه بالبحث عن مصلحته كان هو وزوجته خير والدين لابنته، ليأخذها منهما بعدما رآها شابة تفرح العين، أخذها لأنّه أبوها بحكم الأوراق، أخذتها يا مختار بعدما رأيت تعلقي بها لتحرق قلبي وقلب إبراهيم عليها، والآن تعود بها بعد أن دمرتها تطلب مني السماح وأنت واثق أني سأسامحك لأجلها.

اقترب مختار من والده ومال مقبلًا يديه قائلًا: كلّ ما يحدث لي بسبب عدم رضاك.

_ أبعده نجيب قائلًا: أحضر ابنتك ولا تتركها بمفردها مرة أخرى، أسبوعان من الآن ويكون زفافها على أحد أبناء عمها، واعلما أنتما وأبناءَكما أنّ مَن

سيرفض لا نصيب له في أموالي وليس عندي له عمل بعد ذلك وهذا آخر ما عندي.

ـ قال مختار بتوتر: ولكن مليكة لن توافق على الزواج بهذه الطريقة يكفي ما بها، كيف سأقنعها؟

ـ فضّل هاشم الصمت ليقول نجيب: أحضرها ولا دخل لك بعد ذلك.

غادر الاثنان بصمت، نعم كان هاشم يعرف ما ينوي عليه والده ولكن ليس بهذه الصورة، كان يتخيل أنه سيعطي للأولاد فرصة ليسير الأمر بصورة طبيعية، ركب كلٌّ منهما سيارته مع اتفاق بالاتصال صباحًا.

قرر مختار العودة في نفس اليوم مصطحبًا ابنته، فهو لا يملك الجرأة لفتح هذا الحديث معها.

أما هاشم، فقرّرَ عدم التسرع وإعطاء فرصة لنفسه للتفكير أيهما يعرض عليه الأمر.

....

عاد فارس من لقائه بقلب تعزف نبضاته لحنًا جديدًا للحبّ، جلس بجوار والدته متخيلًا رد فعلها عندما تعلم أنّه وجد ضالته وقرر الارتباط، وبالفعل احتضنته فاطمة بسعادة قائلة: أخيرًا سيريح أحدكما قلبي.

ـ واثق أنكِ ستحبينها.

ـ قالت بمشاكسة: أخبرني أولًا هل هي جميلة؟ أنا لا أثق بذوقك لماذا لا تتركني أختار لك أنا؟

ـ ضحك قائلًا: لن تجدي أجمل منها.

....

عاد خالد لوالدته بنفس الأحلام مع سيمفونية أخرى للحب سرعان ما أوقفت إحسان عزفها صارخة: أضاقت بك الدنيا ولم تجد سوى ابنة محسن؟!

ـ قال بصدمة: ما به عم محسن؟ أليس هو الرجل المخلص الذي وقف بجواري بعد رحيل أبي ولم أكن أفعل سوى توجيهاته؟!

ـ وهل رد الجميل بأن تتزوج ابنته المطلقة؟

ـ لحظات مرت عليه بغير استيعاب ليقول: ماذا تقولين؟؟

ـ نعم مطلقة وبدلًا من المرة اثنتين.

ـ قال بصعوبة: أنتِ تقصدين خطبة أليس كذلك؟

ـ يعلم الجميع ذلك واسأل وستعرف كيف أنّ زواجها الثاني من ابن عمها كان بعدما فضح أمرها.

ـ صرخ بها قائلًا: يكفي يا أمي لا أريد سماع أكاذيب أكثر من ذلك.

ـ لتقول بقهر: أنا أكذب يا خالد.. اذهب واسأل فاطمة، اسأل أم مسعد أليست من حيهم؟ اسألها ماذا يقول الناس على ابنة محسن التي أعادها ابن عمها يوم زفافها.

أبدًا لم تكن والدته تلك المرأة التي تلفق الأكاذيب، غادر وداخله ثورة على مشاعره وعقله الذي يشعر بالخداع، لم يستطع تصديق ما يقال حتى ولو قالها مَن في الأرض جميعًا، هذا الرجل أبدًا لم يربِ ساقطة... ماذا؟ أيصفها بذلك! كيف لهذه الكلمة أن تجتمع معها؟ هذا الرجل أبدًا لم يغرس سوى الخير فكيف يحصد فجورًا؟

ركب سيارته وانطلق لا يعرف إلى أين، تذكر حينما دعاه محسن منذ سنوات لزفاف ابنته، ليس لمحسن ابنة سواها كان مسافرًا حينها لمليكة وعندما عاد أخبره محسن أنّه لا نصيب، إذًا لم يكتمل الزواج ولكن لماذا يقول الناس ذلك؟

تذكر يوم رأى الصورة وقد أمسكها محسن بيده ليخبره أنّه حزين على حظ ابنته.. أيمكن أن يكون ما قالته أمه صحيح؟

لا يعرف كم من الوقت مضى تارة يتذكر حديث والدته الذي قلب موازين أفكاره، وأخرى جنيته التي قلبت موازين قلبه.

وها هي الشمس تصعد في الأفق ربما تنير ظلام عقله، وتهدِّئ ثورة الشك التي اندلعت بداخله، أيكذّب كلّ الناس ويصدّق قلبه؟

عاد لسيارته وقد كان أكثر هدوءًا، ليتحرك متجهًا لمنزل جده، واثق أنه الوحيد الذي سيريح قلبه ويرضي ضميره.

قصّ عليه حكايته مع مَن خطفت قلبه قبل أن يراها، إلى أن وصل لحديث والدته، ظلّ نجيب يسمعه دون مقاطعة منذ البداية، فمؤكد هناك عقدة بالحكاية طالما جاء في ذلك الموعد وبهذا الشكل.

وبعد أن أنهى قصته قال بيأس: ماذا أفعل يا جدي؟

_ أنت أخبرني أولًا ماذا تشعر؟

_ قال بتشتت: أخشى أن يكون هذا الكلام حقيقيًا أو حتى جزءًا من الحقيقة.

_ قال نجيب بحكمة: إذًا لا بد من وضع فرضين وموقفك منهما، إذا لم يكن حقيقة أو جزءًا منها وإذا كان فعلًا حقيقيًا.

_ أنا مشوش.. مصدوم.. ورغم كلّ شيء أصل إلى نفس النتيجة التي أخشى عواقبها.

_ إذًا وصلت لما يريح قلبك وعقلك يا بني.

_ أريد منك العون، أريد خبرتك وحكمتك.

_ وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان يا بني!

_ نظر له باندهاش قائلًا: كيف عرفت ذلك؟

_ ابتسم قائلًا: لأنّ أحفادي رجال كجدّهم.

_ لا يا جدي لا أقصد ذلك، كيف عرفت أني أريد رد الجميل؟!

ـ ضحك نجيب قائلًا: وهل بعد هذا العمر كله تتوقع أن يصير شيء من وراء ظهري؟ أعلم أنّ محسن مَن أدار المصنع بدلًا منك، أعلم أنّه السبب في أنك ما زلت بيننا، هو مَن وقف بجانبك وفعل ما لم يفعله عمّك نفسه.

ـ قال بحرج: أهو مَن أخبرك؟

ـ ليس هو، ولكن عندما علمت ما يحدث في المصنع وواجهته أخبرني بكل شيء، عرفت منه حالتك بعد وفاة والدك وإصرارك على السفر، عرفت كيف بحث عنك وأعادك لوالدتك، كيف أخذك في منتصف الليل عنوة ليجلسك على مكتب أبيك ويريك أوراقه التي كتب فيها أحلامه للمصنع وما يريد تحقيقه، وها أنت نفذتها يا بني وأزدت عليها من روحك وموهبتك، أنت أردت أن ترد له الجميل عندما علّمت ابنته كيف تطور من نفسها وهذا ما كنت تبرره لنفسك، ولكن الحقيقة أنّك كنت تتقرب منها لتسعد روحك... صمت قليلًا ثمّ أكمل: لو كان هذا الحديث افتراء ورمي محصنات بالباطل فأنت أولى الناس برد كرامتها لأجل والدها ولأجل هذا القلب الذي أحبها.

ـ وإذا لم يكن؟

ـ بعد ما أخبرتني عنها من يوم عملها معك من أدبها وأخلاقها حتى خجلها وعزة نفسها، فالله غفور رحيم وأنت أيضًا أولى الناس بستر ابنة الرجل الذي وقف معك بشهامة.

أغمض عينيه يأخذ نفسًا عميقًا فما قاله جده أراح قلبه وضميره، وغادر حتى قبل أن يعرف بوجود عمه وابنته.

مر يومان قضاهما هاشم يفكر كيف سيفرض هذا الأمر على شباب في هذا السن؟ وافقت ابنة أخيه لا يعرف كيف أقنعها جدها بذلك، وعليه الآن التصرف في أسرع وقت.

حاولت فاطمة فتح أمر خطبة فارس معه، ولكنّه كان دائمًا يرفض سماع أي شيء فذهنه مشغول بما يكفي ولا يريد أن يربك أفكاره، وطلب منها تأجيل أي حديث فيما بعد.

وفي مكتبه بالشركة استدعى ابنيه ومعهما خالد ربما يحتاج لمساعدته، وبالطبع اختار الحديث في الشركة بعيدًا عن فاطمة وزوجة أخيه.

جلس الثلاثة على الأريكة الكبيرة المقابلة للمكتب ينتظرون معرفة سبب الاجتماع الطارئ الذي جاء فجأة.

_ هذا الاجتماع عائلي وليس له علاقة بالعمل، دون مقدمات عاد عمكم مختار وابنته نهائيًا وقد قرر جدكم تقسيم أمواله وأملاكه.

تبادل الثلاثة النظرات بدهشة وقال عادل: ما الداعي لذلك؟ جميعنا متفاهم، كلّ واحد بمكانه وأهلًا بعمي المؤسسة كبيرة والحمد لله.

_ قال هاشم مؤكدًا على كلامه: هذا صحيح ولكن لجدك حكمة في ذلك وهذه ليست المشكلة.

انتظر الثلاثة بترقب فقال: هناك شرط لتسير الأمور كما نريد جميعًا.

ليقول الثلاثة باندهاش: شرط؟!

_ أجل

صمت قليلًا ناظرًا لابنيه مقررًا رمي الكرة لينتظر ربما هناك مَن يتلتقطها: أن يتزوج أحدكما ابنة عمه وخلال أسبوعين.

نظر عادل لأخيه بصدمة، في الوقت الذي ابتسم فيه خالد، ليكمل هاشم: لو لم يتم ما يريده سيحرم الرافض من الميراث.

_ قال فارس بذهول وكأنّ الدنيا دارت بسبب حلمه: تقصد مَن؟

_ قال خالد ببرود: مؤكد لست أنا.

_ نظر له فارس بحدة؛ ليصمت خالد مقررًا أخذ دور المشاهد، فقال هاشم: إما أنت أو أخوك، ماذا قلتما؟

_ قال فارس بتوتر وقد التزم عادل الصمت: لا يمكن هذا.

ليتفاجأ بعادل يقول بابتسامة ملأت وجهه: ليس عندي أي مشكلة.

وقف فارس وقد بدأ يفقد أعصابه يمسك بكتف أخيه قائلًا: ماذا تقول؟

_ رد عليه عادل بنفس البرود المثير للأعصاب: ماذا أنت تريد؟ لو وافقت على الزواج بها خير، لو لم توافق أنا أحل المشكلة.

أمسك فارس رأسه لا يستطيع الرد ولا حتى التفكير أيترك حلم عمره بهذه السهولة أم يترك حبه الذي وجده أخيرًا؟

دار حول نفسه ناظرًا في وجوه الجميع، لماذا وجوههم تبدو باردة أمام ما هو فيه؟!

أثار رد فعله دهشة هاشم فقال: أنت لا تريد الزواج بها ماذا يغضبك في موافقة أخيك الآن؟!

ـ قال فارس بتشتت: تريدون جنوني أليس كذلك؟

وقف خالد مشفقًا على حاله فهو خير مَن يعلم ماذا يفعل الحب في الرجال وقال: اهدأ وتعال معي لنتحدث قليلًا.

أبعده فارس عنه بعنف ولم يراعِ وجود أبيه وقال: أنا غير راضٍ عما يحدث، انصرف مسرعًا، فقال هاشم باندهاش: ماذا يحدث؟

تبادل عادل وخالد النظرات فهما يعرفان مشاعره القديمة لابنة عمه وبالطبع يعرفان مشاعره الحالية، تفاجأ الاثنان بهاشم وقد اتصل فورًا بمختار ليخبره موافقة عادل السريعة، فجلس الاثنان بصمت مكتفيين بتبادل النظرات ومنتظرين اندلاع حريق مؤكد.

....

في الجانب الآخر اتجه مختار لمكان جلوس أبيه الذي أخذ حفيدته بين أحضانه منذ وصولها ولم يتركها.

ـ وافق عادل على الزواج.

انتفضت الفتاة من بين أحضان جدها تحرك رأسها برفض، بدأت تجهش بالبكاء قائلة لجدها: أخبرتني أنه فارس أليس كذلك؟

ـ نظر نجيب لمختار قائلًا بعصبية: ما هذا الهراء؟

ـ رد بدهشة: أنت قلت أحد أبناء عمها ولم..

ـ قاطعه قائلًا: اتصل حالًا بأخيك وأعطني الهاتف.

ـ ناوله مختار الهاتف ليرد هاشم متفاجئًا بثورة أبيه: ما الذي يقوله أخوك؟ هل تريدني أن أزوجها لأكبرهم سنًا؟ مليكة لن تتزوج سوى فارس، أخبره ذلك جيدًا إن كان غاب عنه أنّ مليكة له فذكّره ربما يحتاج لذلك.

أغلق الهاتف وهو ينظر لحفيدته التي ابتسمت باطمئنان بعد ما فعله جدها ولم تشغل بالها بالآخر الذي أوشك عقله على الجنون.

....

بعدما أغلق هاشم المكالمة مع والده تحرك فورًا وهو يشير لعادل وخالد أن يتبعاه لغرفة فارس، فوجدوه يمسك برأسه في حالة من الهذيان لم تدهش سوى والده الذي قال بصرامة: فارس.

رفع رأسه بشرود، فقال والده: لم توافق الفتاة سوى بك.

ظلّ ممسكًا برأسه ولم يبدِ أي ردة فعل، فأسرع إليه عادل ممسكًا بيده محاولًا قياس النبض له ليجد يده كالثلج فقال موجهًا حديثه لخالد: هل أنت سعيد بما هو فيه، هل هذا ما تريده أنت وهي؟

ـ قال خالد بتوتر: أكنت تعلم؟!

ـ أنهِ هذه المهزلة فورًا.

ـ نظر خالد لعمه قائلًا: أمعك صورة لمليكة؟

ـ قال هاشم بعصبية: أنا لا أفهم ماذا يحدث؟!

طاوعهم ليفتح هاتفه ويقلب به ليضعه أمام فارس على المكتب قائلًا: هل هكذا سيختلف الأمر؟

نظر فارس للصورة بذهول وقف دافعًا أخاه بهمجية وقال: مَن هذه؟ انطقا مَن؟ مِن أين لك بصورة ملك يا أبي؟

ـ قال هاشم باندهاش: ماذا بك إنها ابنة عمك مليكة.

هز رأسه رافضًا ما يسمعه وقال: لا ليست هي.. كيف؟! ليست ملامحها، ليست عينيها كيف تكون مليكة؟ كيف غيرت شكلها، كيف لم أعرفها؟

قال هاشم بأسف: تعرضت لحادث منذ سنوات وقامت بعدة عمليات تسببت في تغيير ملامحها.

تحرك فارس مبتعدًا عنهما وقد حاول كتم دموعه حتى لا يظهر بهذا الضعف، لا... إنّه ليس ضعفًا إنّه الإحساس بالخداع؛ ليقول وما زال بداخله الشك: ليست هي.

نظر لخالد متمنيًا أن يجد عنده الرد الذي يريحه، قال بأسف فهو لم يتخيل أن يصل لهذه الحالة: إنّها مليكة يا فارس.

ـ قال بصدمة وهو ينظر لعادل: أنت أيضًا خدعتني.

ـ قال خالد: لم يكن أحد يعلم سواي.. ولم تأتِ للشركة وبها عمها.

أبعده خالد بيده ليقول لأبيه وهو يغادر الغرفة: أخبرها أني لست موافقًا، أخبرها أنّي لا أريدها.

أوقفه هاشم وقد حاول أن يفهم ما يحدث فهناك ما هو أكبر من عناد شاب يجبر على الزواج بهذا الشكل، وقد حاول تجميع الخيوط ليفهم أنّ شيئًا بين ابنه وابنة عمه يعلمه الآخران فقال بدهاء: لو صممت على الرفض لا حل سوى زواجها من أخيك.. فكر جيدًا.

نظر فارس لأبيه بجمود، فقد أنهكه هذا الصراع بداخله ليظل صامتًا، ويتفاجأ بصوت أخيه قائلًا: لا مشكلة عندي.

أغمض فارس عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، نظر إلى أخيه بعتاب، ثمّ قال لوالده بحسم: لن يتزوجها سواي.

ليعود وينظر إليهما قائلًا: لا تبحثا عني من الآن لموعد عقد القران، أرسلا لي التفاصيل عبر الهاتف.

وقبل أن يهم بالمغادرة قال عادل بتحدٍ: لو تأخرت دقيقة عن الموعد المحدد سوف أتزوجها.

وقف فارس مكانه لحظة، ولم يحاول النظر إليه ليغادر بعد ذلك بهدوء، ولم ينشغل هاشم بما دار بينهم، فقد غادر المكتب هو الآخر وعلى وجهه ابتسامة ليخبر أخاه بهذا الخبر السار.

مرت الأيام بسرعة ليحين الموعد المحدد للزفاف فأقل من أسبوعين غير كافٍ لتجهيز عرس كبير يليق بأبناء العائلة.

بالنسبة للعريس فقد صدق فيما قاله ولم يستطع أحد العثور عليه ولا معرفة مكانه، ولم يجب على رسائلهم، ولم يكن بيدهم فعل شيء سوى

إرسال كافة التفاصيل إليه كما طلب، الشيء الوحيد الذي طمأنهم هو أنه يجيب على اتصالات والدته.

قام عادل وخالد بتجهيز كلّ شيء على أكمل وجه، أما العروس فقضت هذه المدة في منزل إحسان والتي قامت بمهامها كأي أم بسعادة.

وقفت إحسان تحدث ابنها بحزن على حالة الفتاة وقالت: ما زالت نائمة إلى الآن، لا بد أن تستعد للذهاب إلى الفندق لم يعد هناك وقت، حاولت معها كثيرًا، أيرضيك ما يفعله ابن عمك، ماذا حدث لكما؟!

أغمض خالد عينيه يعلم ما يرمي إليه كلامها، ولكنه اتفق معها على تأجيل الحديث لبعد زواج مليكة فالوضع لا يحتمل توترًا أكثر من ذلك وخاصة بعد معرفتها كيف يتم هذا الزواج ليتفقا على هدنة مؤقتة.

ذهب إلى غرفتها ولم تجب على طرقاته فدخل على مهل، وجدها ما زالت نائمة منكمشة داخل الغطاء، جلس محاولًا إزاحته عن رأسها قائلًا: مليكة لا بد من الذهاب الآن، لم يعد هناك وقت.

_ فتحت عينيها بوهن وقالت: لم يعد هناك وقت على ماذا؟! أمتأكد أن هناك زفافًا من الأساس؟

_ بالطبع هناك زفاف وهناك أجمل عروس في الدنيا.

ابتسمت بأسى فأكمل: وصراحة أجمل عريس وهذا لا ينفي عنه الغباء.

_ ولكنّه ليس غبيًا، أنا خدعته ولم أفكر في مشاعره، أنا الأنانية.

_ لا داعي لهذا الحديث سبق السيف العذل حذرتكِ، هيا.... أمامنا يوم طويل.

قالت بصوت مهتز وقد بدأت دموعها في الثورة عليها:

_ أخشى ألّا يحضر... ليته واجهني، كنت سأتقبل أي شيء ولكنّ اختفاءَه يقتلني، هو عاقبني أسوأ عقاب، أن أشعر بكل هذا الخوف يوم زفافي على الشخص الوحيد الذي عرفه قلبي وكبرت على حبه.

_ أخبرتك أنكِ تلعبين بكبريائه يوم صارحك بحبه، تعرفين جيدًا أنه سريع الغضب، احمدي الله أنّه ابتعد ولم يخرج غضبه هذا لا بكِ ولا بي فقد كنت أستعد لأحضر زفافك مكسور العظام، أو معوج الأنف.

_ ضحكت مؤكدة كلامه: لقد صدمني بالخطأ فطرحت أرضًا وظلّ ألم كتفي يومين ما بالك لو تعمد، يا الله أنت لم تخبرني أنه أصبح كالدبابة هكذا.

ابتسم خالد لاستطاعته إخراجها من هذه الحالة وقال:

_ هيّا استعدي لكي لا نتأخر على الدبابة وتدهسنا جميعًا.

....

بعد ساعة كانت العروس في غرفتها بالفندق برفقة إحسان وفاطمة، اجتهد الجميع لإسعادها وتجهيز كلّ ما تحتاج، يعاملونها كملكة يوم تتويجها، ورغم ذلك لم تشعر بالفرحة، خرجت فاطمة من الغرفة واتصلت بفارس الذي كان سببًا في توتر الجميع في هذا اليوم ليجيب عليها فورًا:

_ أمي، كيف حالك؟

ـ قالت بعتاب: لست أنا المهمة الآن، هناك غيري أنت سبب في حزنها.

ـ ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ قالت بأسى: عندما كنت فتاة صغيرة أتخيل يوم زفافي كيف سيكون؟ وماذا سيقول لي عريسي؟ يا بني مهما تغير الزمن سيظل هذا اليوم حلم كل فتاة.

ـ ألم يسِر كلُّ شيءٍ كما أراد الجميع وسوف أحضر في الموعد المحدد، ما المشكلة الآن؟

ـ المشكلة أنّ هناك فتاة زفافها اليوم ولم تغب الدموع عن عينيها، تعلم محبتي لها لقد كبرت أمام عيني؛ فجميعنا حاولنا تعويضها غياب أمها وعدم مبالاة أبيها، هي لا تستحق ذلك.

ـ لم يحاول الرد فأكملت: لم أتخيل أن تفعل هذا بابنة عمك، ليس لها ذنب أنك أردت الزواج بأخرى.

ـ قال بسخرية: ماذا تقولين؟! واضح أنّ ابنك الكبير لم يخبرك أن المشكلة أنّها هي مَن أرادت.

ـ ألم تخبرني بأنك تريد الزواج؟!

ـ أجل، كانت هي ولا يوجد في حياتي سواها، اطمئني لا أنوي تعكير الحفل.

....

بدأت خبيرة التجميل مهمتها التي زاد عليها إخفاء ما ظهر على وجه العروس من إرهاق، استأذن خالد الدخول ومعه عادل يحمل الفستان الذي

اختاره بنفسه، وضعه برفق على الفراش وطلب من السيدة الموجودة المغادرة لدقائق، ابتسم وهو ينظر للعروسة بسعادة وربما يتخللها بعض الشفقة بعدما أخبره خالد حالتها، جذب كرسيًا ووضعه أمامها ليجلس عليه وفعل خالد مثله وقال: أترفضينني من أجل ذلك؟

أبعدت عينيها عنه بخجل، ليقول خالد مازحًا: ماذا بك يا هذا أصدقت نفسك؟

_ لن أعاتب كلاكما على ما حدث فأنا أكتفي بفارس، ولكن بما أنكِ تتعمدين الهروب مني منذ أن عدتِ إلى المنزل ففرصتي الآن أن أسألكِ، كيف تخيلتِ أنك تستطيعين خداعي؟!

_ قالت بحرج: كنت واثقة أنك عرفتني، ولكن كذبت نفسي لأنّ فارس لم يعرفني.

_ ضحك قائلًا: هذا الأبله تخيل أنّه يراكِ في كلّ فتاة، ولكن أنا يا مليكة حملتك طفلة رضيعة تبكين يوم وفاة والدتك، وقد انشغل الجميع لأجدك تهدئين بين يدي، دخلت حينها عمتي إحسان وأخذتكِ مني؛ لأقول لها لماذا تركتها أمها، قالت حتى أكون أنا أمها.

مسحت مليكة دمعة سقطت تحاول تلطيخ زينتها، ليكمل قائلًا: لم أنسَ عينيكِ حينها وأنت تستنجدين بي، مهما غيرتِ لونهما كيف لا أعرف ابنتي، نفس النظرة كانت لأوافق على عرض الإعلان، ورغم ثقتك من نفسك إلّا أنكِ كنتِ تستنجدين بي.

ليضحك قبل أن يردف: بالإضافة أنكِ أخطأتِ وسط الحديث وناديتني كما تناديني طوال عمرك دون أن تشعري.

_ قالت بصدمة: متى ذلك؟

_ قال خالد: وأنا أين كنت؟!

_ ضحك عادل قائلًا: لم يشعر كلاكما أنّ هناك خطأ بالأمر بالإضافة لخطأ آخر سأتركِ تعرفينه بمفردك، هيّا أكملي تجهيزاتك يا ملكة عائلة نجيب، وفستانك هذا هدية مني لكِ، ولذلك الأبله الذي ستتزوجينه.

نظرت للفستان الذي اختفى داخل حقيبته بحزن وقالت: هل سيأتي؟

ضحك مؤكدًا: سيأتي ليس لديّ شك.

قالت: لماذا هذه الثقة؟

_ لأني أخبرته لو تأخر دقيقة سأتزوجكِ أنا.

نظرت له بصدمة ليكمل: وهو لن يفعلها أبدًا، لدرجة أنّه نام في الفندق ليلة أمس.

_ ضحك خالد قائلًا: أنت داهية.

_ أردت أن أسرع من مجريات الأمور وألّا أترك له فرصة للانتقام والتلاعب بنا، واثق أن كلامي سيربك أفكاره وسوف يخشى أن أفعلها حقًا.

ثمّ وقف قائلًا: هيّا ارتدي فستانك واتصلي بي أخبريني أنه أعجبك.

غادر عادل الغرفة وخلفه خالد بعد أن قال: لا تحملي هم شيء في الدنيا طالما نحن بجوارك.

دخلت خبيرة التجميل تقول: أعتقد أن عروسنا الجميلة ستبتسم بعدما تحدثت مع عريسها.

_ ليس العريس، إنّه ابن عمي.

صمتت السيدة مدركة أنّ هناك خطبًا ما، بعد فترة رنّ هاتف مليكة بمَن طال انتظاره فأبعدت يد السيدة عنها وهي تحاول حبس دموعها حتى لا تفسد ما صنعته خبيرة التجميل للمرة الثانية، أمسكت هاتفها يتمنى قلبها أن ترضيها مكالمته، تحركت متجهة للشرفة وقد خرج صوتها بصعوبة ولم تنطق سوى اسمه بترجٍ: فارس.

سمعت أنفاسه المتهدجة يحاول بها كبت مشاعره التي تمنت أن تكون اشتياقًا، تنتظر حديثه بجسد مرتجف، لاحظت خبيرة التجميل حالتها فقالت: عزيزتي ستدمرين زينتك مرة أخرى، لم يعد هناك وقت.

هزت رأسها باستسلام ومسحت آثار دموعها، لا تعرف أنّه على مقربة منها يراها من وراء إحدى النوافذ المقابلة لغرفتها، ليقول بعد صمت طال عليها وبدا ينهي آخر أمانيها: لو أفسدتِ زينتك ستندمين أكثر تأكدي من ذلك.

غلبتها ابتسامة تحاول إخراج هذا الأسى، ليردف: واحذري ألّا تعجبني العروس فلدي مواصفات قياسية تعرفينها جيدًا.

نادت باسمه متوسلة إياه ألُا يعذبها هكذا: فارس.

_ واحذري أن تنطقي اسمي هكذا أثناء الزفاف، وإذا وجدتك ترتدين كعبًا مرتفعًا سأكسره كما أخبرتك من قبل.

أغلق الهاتف ليتركها تدور حول نفسها بسعادة يتابعها من بعيد، غضبه وثورته بقدر لهفته لرؤيتها تزف إليه، دوامات الخداع الذي شعر بها بقدر دوامات الشوق الذي يدور ويتراقص الآن في قلبه مع دورانها وهي تحتضن هاتفها، جذبتها السيدة مبتسمة وهي تشاهد عروسها التي كانت تصفها بينها وبين نفسها منذ قليل بالكئيبة.

حان وقت ارتداء فستان الزفاف، لحظة تنتظرها منذ وعت لكونها فتاة، حين أحضروا لها هذه اللعبة الرفيعة ذات الشعر الطويل وأخبروها أنها عروس مثلها، مُذ رأت في صغرها فتاة ترتدي الفستان الأبيض وتطل كالأميرة تبهر الحضور في حفل أقيم من أجلها.
نظرت بانبهار إلى الفستان الذي طغت هيبته المكان بمجرد إخراجه من الحقيبة، لتعود بذكرياتها لسنوات قبل سفرها...

كانت تجلس بينهم كعادتها في الحديقة الكبيرة بمنزل جدهم بعدما حضروا زفاف إحدى أقاربهم بالقرية، يسخرون من حفل بدا لهم بسيطًا إلى درجة كبيرة، هم تربية المدينة يعتادون الترف، يستمتعون بأفراح يملؤها الصخب والبذخ، لتقاطعهم قائلة بحكمة بدت لهم غير مناسبة كونها أصغرهم سنًا: وهل ستكون سعادتهم أكبر عندما يكون الحفل أكثر رفاهية؟ أبدًا، لقد

رأيت الفرحة بعيون العروس وهي ترقص بين صديقاتها، رأيت كيف ينظر لها عريسها بحب، هذه هي السعادة.

ـ قال خالد بسخرية: عندما تصبحين عروسًا سنقيم لكِ حفل الزفاف والحناء هنا.

ـ قالت بثقة شبت عليها منذ نعومتها: لا يهمني الحفل ولا مكانه.

ـ ليسخر عادل قائلًا: ولا يهمك العريس.

ـ ردّت قائلة: مؤكد يهمني ألّا يكون العريس سطحيًا مثلكم، يهمني أن يفرح بي كما فرح عريس هذا الزفاف البسيط بعروسه، لا يهمني طاولات الطعام ولا مَن سيغني، ولكن يهمني فستاني أكثر من أي شيء آخر.

ـ ليسألها فارس بسخرية: وما مواصفات فستان أحلام الملكة؟

لتجيب ببراءة لا تستوعب سخريتهم، وكأنّ بداخلها نصفين أحدهما يميل للطفولة والآخر يتطلع للشباب لتدور حول نفسها قائلة: لا يهمُّ أن يكون منفوشًا ولكنّه واسعٌ، لا أريده ثقيلًا أتعب في حمله، أريده بسيطًا خفيفًا يطير خلفي، لا أريد نقوشًا ولا أحجارًا أريده ناصع البياض قماشه ناعم كالحرير بأكمام عليها ورود محفورة، أرتدي تاجًا كالملكات فأنا مليكة هذا الكون، وطرحتي طويـــلة.

وأشارت خلف ظهرها تنظر لهم بغيظ وهم يضحكون وأكملت: لتبعدكم عني وأنا أسير.

ـ قال فارس بتلقائية: لكني لن أسير وراءَك يا ساذجة سأكون بجوارك.

أكملت حلمها الماسي دون أن تلتفت إليه، فلم تشعر بغرابة في حديثه: وحذائي لامع كحذاء سندريلا، بكعب طويـــل لأُصبح أطول منكم جميعًا وأنظر لكم كالأقزام، وأطول منك أنت بالتحديد.

أنهت أحلامها وهي تشير على فارس فهو بالفعل أطولهم، فرد فارس قاصدًا استفزازها: وأنا سأكسر لكِ هذا الكعب لتظلي قزمة.

عادت من أحلامها تمسك الهاتف بسعادة تتصل بالرقم الذي سجلته منذ أول يوم قابلته فيه (أبيه عادل) لتضحك، فمؤكد رأى ما سجلت به اسمه، هذا هو الخطأ الثاني الذي كشفها بسهولة لتقول بمجرد أن فتح الخط: أدامك الله لي خيرَ أخٍ، يعلم الله أني بعيدًا عنكم كنت تائهة.

....

وقف الجميع خارج الغرفة في انتظار أن تطل العروس بثوبها الأبيض، بدأ يظهر التوتر على خالد، فقد أوشكت العروس على الانتهاء ولم يظهر العريس، فقال لعادل: لا أعرف كيف لك كلّ هذا البرود!

ابتسم الأخير وأخرج من جيبه رابطتيّ عنق خاصة بالمناسبات والتي على شكل فراشة ليعطي إحداهما لخالد ويلبس الأخرى، فقال خالد: أليس هذا مبالغًا به؟

_ ارتدِها وابتعد من هنا الآن ولا تظهر إلّا عندما يحضر.

_ لماذا؟! وأين هو؟ ما الحل لو تأخر؟

نظر عادل في ساعته وقال: خمس دقائق ويحضر اذهب أنت وقف بعيدًا وعد بمجرد أن يأتي وسوف تعرف السبب.

طاوعه خالد بقلة حيلة وانصرف مبتعدًا، ليظل عادل واقفًا مع الجميع ينتظر اللحظة المرتقبة بابتسامة هادئة يحمل طاقةَ زهورٍ بالطبع مناسبة للعروس.

نظر عادل للساعة في يده وهو يبتسم رافعًا رأسه ليظهر فارس أمامه في موعده تمامًا، أكسبته بدلته الرسمية طلة مختلفة بطوله المميز وبنيته الرياضية، توجه إليه عادل قائلًا: في موعدك بالدقيقة.

قال فارس بحدة: ما هذه الزهور؟

_ إنّها طاقةُ العروس التي لم تحضرها أنت.

أخذها فارس من يده بغلاظة وهو يمسك رابطة عنق أخيه قائلًا: وما هذا؟

_ قال عادل ببساطة: لأني أخو العريس.

ظهر خالد خلفه وقد أدرك ما يفعله عادل ليقول هو الآخر: والعروس أختي.

مال فارس برأسه يمينًا ويسارًا في حركة لا إرادية يحاول بها ضبط النفس، جاء صوت إحسان وفاطمة من خلفه يفتحان باب الغرفة ويطلقان زغاريد الفرح في طقس لم تخلُ منه أفراح مجتمعاتنا العربية حيث تبدع في نغمتها كلّ امرأة تجيدها حسب النغمة الخاصة ببلدها، وفجأة سلطت الأضواء على العريس وقد بدأت الكاميرات في تسجيل هذه اللحظة التاريخية في حياة أي عروسين.

ظهرت أمامه وكأنّها عروس البحر خرجت لتوّها من بين الأمواج لا ترفع رأسها عن الأرض، أهذا خجل أم خوف؟ ليقترب منها وتقترب منه في لحظة نسي ما كان وما دبر، رفعت وجهها تنظر حولها برهبة ما كانت أبدًا في أحلامها، لتعود وتنظر له بتوسل ألّا يكسر فرحتها بهذه اللحظة، رآها بفستان الأحلام وتاج الملكة وطرحتها الطويلة فوق حجابها البسيط رغم أنّه لم يكن في أسطورتها الصغيرة إلّا أنّه زادها عفة وجمال، تقدم خطوة بعد أن وقفت تنتظر منه الإشارة بالعبور، ومع اقترابه زادت ضربات قلبها لتعلن عن الاستسلام لأي شيء يحكم به السلطان.

تفاجأت به يقترب غير آبه بكاميرات المصورين ولا بعيون هؤلاء المتلصصين، يرفع رأسها بأصابعه ليثبت عينيها عليه مخرجًا إيّاها من دوامة الخوف، ما زالت ترتدي هذه العدسات وهل هناك أجمل من عينيها؟!

_ فاتنة أنتِ يا عروسي.

مال مقبلًا جبهتها، فأغمضت عينيها لا تقوى على ما يفعله بها، ليعود وينظر إليها قائلًا بهمس: لا تخافي يا ابنة العم، سيمر اليوم ولكن استعدي لما بعد ذلك.

عادت تفتح عينيها وتنظر له بتوسل، مَن يراهما يسبح متخيلًا كلام الشوق الذي يذوب بين هذه الهمسات، والحقيقة الشوق بداخلهما مخنوق في أسره يخشى الاقتراب.

ناولها طاقة الزهور ووقف بجوارها ثانيًا ذراعه لتضع يدها المرتجفة، فتتحطم آخر حصون عناده، ويشفق عليها بعدما شعر بانتفاضة جسدها وثقل حركتها.

أكملا سيرهما لمكان عقد القران في مشهد من أحلامهما، يسير هو بجوارها كما وعدها مرتين! لتبعد طرحتها الطويلة الجميع عنها برضا وسعادة من أخويهما.

وما إن دخلا مكان عقد القران إلّا وعلت الزغاريد مرة أخرى، شرفة واسعة مليئة بالزهور في وسطها طاولة كبيرة مفروشة بالأبيض.

يقف هاشم ومختار في استقبالهما بسعادة، اتجه العروسان لمكان جلوس الجد على الطاولة يقبلان يده وبداخل كلّ منهما اعتراف بفضله في هذه اللحظة حتى وإن كان هذا الاعتراف لن يعلن.

_ قال نجيب لحفيديه: ستعرفان يومًا أنّ ما فعلته لصالحكما.

جلس الجميع حول المأذون على الطاولة لإتمام طقوس عقد القران المعروفة، أشار مختار على والده ليكون وكيلًا للعروس تبجيلًا له، وبالطبع هل هناك سوى خالد وعادل يصلحان لهذه الشهادة.

انتهى عقد القران ليقف فارس مستقبلًا التهاني ومال عليها جاذبًا يدها تقف قبالته مقبلًا جبهتها مرة أخرى، دافعًا لها بالقليل من الثقة والتي يعلم جيدًا متى سيفقدها إياها، ومع همهمات النمامين من حولهم لم يغب

عن سمعه، الحديث عن تغير شكلها وعدسات عينيها وأين ذهبت؟ ومتى عادت لتتزوج بهذه السرعة من ابن عمها؟!

نظر فارس لعمه متعمدًا رفع صوته أمام الجميع قائلًا: عمي لم نكتب في العقد مهرًا ولا مؤخرًا، بالطبع نحن عائلة ولا فارق بيننا، ولكن هذا حق العروس.

وأخرج من جيبه شيكًا أعطاه لخالد قائلًا: هذا مهرها تضعه في البنك باسمها في أي وقت.

نظر الجميع له مندهشًا فأتى صوت جده قائلًا: رجل ابن رجل يا ولدي.

وقف مختار آخذًا الشيك من يد خالد لينظر على المبلغ الذي أصاب خالد نفسه بالذهول.

وبدأ التقاط بعض الصور الفوتوغرافية للعروسين لتكون شاهدًا على ذكرى لا يخلو منها منزل ولكن بداخل كل منزل صورة بقصة حلم مختلف، جذب يدها لتسير معه باتجاه القاعة الكبيرة، وبدأت مراسم الصخب المعتادة.

سار خالد بجوار عادل يريه الشيك قائلًا: من أين لأخيك بهذا المبلغ!

ضحك عادل وهو يشير باتجاه جده: أعتقد أنه اقترض من أحدهم.

هزّ خالد رأسه مؤيدًا أنّ هذا الكهل وراء كلّ شيء، متمنيًا أن يقف معه فيما قرر المضي فيه، فبداية من غد ستعلن والدته الحرب مرة أخرى بتوجيهات أكيدة من زوجة عمه بعد معرفة قراره الأخير.

وجاء دور رقصة العروسين الفردية لتختفي أضواء القاعة إلّا من هذا الضوء الهادئ حولهما وهذه الأبخرة المتطايرة في كلّ مكان تخفيهما عن أعين الموجودين لحظات يبقى فيها هما فقط وهذه المشاعر المتناقضة.

بدأت الألحان تتصاعد لتأخذهما لعالم آخر، وضعت يديها على كتفه ودون إرادة احتضن خصرها بين يديه ليبدأ رقصة متعارف عليها بين الأحبة، ومع كلمات الأغنية.. ظلت تتأمله تبحث عمّا حلمت أن تراه في عيني عريسها؛ وظل هو على جموده متعمداً وأد أحلامها، ليقول أخيرًا ببرود مصطنع: لن تجدي ما تبحثين عنه يا ابنة العم.

بدأت الدموع تتراقص في عينيها قائلة: ابنة العم؟!

قال بسخرية لا تناسب تمايلهما مع الأنغام: أي اسم أُناديكِ به؟!

وأمام تصميمه على جرحها وبثقة أنثى تعرف كيف ومتى تبدأ حربها، وجدها تستند برأسها على كتفه تخفي دموعها عمَن حولها إلّا هو، فقال بارتباك: ماذا تفعلين يا ملك؟ ابتعدي.

ابتسمت أمام نطقه اسمها رغمًا عنه حتى ولو كان غير معترف باسمها الحقيقي، وقد نجحت في خلخلة حصونه فزادت من احتضانه لتربكه قائلة: ابتعد أنت إن استطعت وأخبرني أني لم أعد بداخلك.

من بعيد ابتسم عادل قائلًا لخالد: وبدأت الحرب الباردة.

_ وفقد أخوك آخر دفاعاته.

وبين المدعوين تجلس بجوار والدها تلتقي عيونهما بين الحين والآخر، فيدور بينهما حديث صامت، يسألها ولكن لا تجيب، تنظر بانبهار لرقصة العروسين، رأى بعينيها دعوة صريحة بأن يكون أمير أحلامها، حلم بسيط لفتاة ككثيرات جالسات في هذا الحفل وكلّ حفل ينظرن لرقصة الأحلام بتمنٍ، هي إحداهن وهو الفارس للأسف ليس الأول ولكنّه مصمم أن يكون الأخير.

وهناك على الطاولة القريبة نظر مختار لأخيه باندهاش قائلًا: متأكد أن ابنك رفض الزواج في البداية؟

ـ فقال هاشم بنفس الدهشة: متأكد أنت أن ابنتك كانت معك بالخارج؟

ـ ضحك نجيب قائلًا: لم تتعلما مني شيئًا للأسف.

اقترب عادل وخالد من العروسين وقد جلسا بعد هذه الحرب التي انتصرت فيها المشاعر، أخرج خالد من جيبه علبة صغيرة من القطيفة بها خاتمان لم يغب عنه أن يحضرهما فهو متعلق فؤاده بإحداهن ينتظر لحظة كهذي يرتدي فيها الأحبة صك هذا الحب، نظر له فارس بامتعاضٍ ووضع يده بجيبه يخرج علبة أخرى قائلًا: احتفظ بها لنفسك.

وضعها خالد بجيبه سعيدًا باقتراحه، ووقف العريس جاذبًا معه يدها؛ لتقف باستسلام تشاهد ما يفعله بها، أمسك إصبعها بين أنامله يشعر بنبضاتها ليضع بها الخاتم، ويأتي دورها فنظرت في عينيه باحثة عن هذا الحلم.

أمصمم أنت على عدم إكمال أحلامي؟

وأنهت المهمة لتسرق نظرة أخيرة وهو ينظر ليده بابتسامة قتلها قبل أن تظهر.

شارف الحفل على الانتهاء، غادر معظم المدعوين إلّا أقرب الأقربين ممَن يصمدون للنهاية، غادر الجدُ وابناه، فقد أرهقهم السهر والأضواء المتصارعة لتظل العروس برفقة عريسها يحيطهما أخواهما.

أشار خالد على سيارته التي زينها لتناسب العرس، تجاهله فارس وقد جذب يد عروسه التي سارت معه باستسلام، واتجه لسيارته؛ ليدخلها بشيء لم يخل من العنف وهو يغلق الباب دون أن ينطق بكلمة، قال خالد محاولًا إيقافه: فارس يجب أن نتحدث، أنت لا تعرف شيئًا ولا ماذا حدث لها.

قاد سيارته دون أي اهتمام بمحاولات عادل الحديث معه ولا نداءات خالد، وقبل أن يستعد الاثنان بسياراتهما انطلق فارس كومضة أضاءت أمام أعينهم ليصرخ خالد قائلًا: المجنون.. لديها رهاب السرعة.

انطلق غير مبالٍ بالمسكينة الجالسة بجواره، وقد أمسكت بفستانها يعلو صدرها ويهبط بأنفاس متقطعة، يختلس النظرات بين الحين والآخر وكأنه يتلذذ بخوفها، يرن هاتفه دون انقطاع فلم يستطيعا اللحاق به.

وبعد أن تحقق نصره المؤكد في هذا السباق نظر لها فوجدها مغمضة العينين بقلب مزقه جفاه، وأنفاس خنقها عناده، ولكنه لم يدرك سبب خوفها ليظن أنها تخشاه فقال: ماذا بكِ؟ هل أنا مرعب لهذه الدرجة!

قالت بصعوبة: أخفض السرعة.

نظر لمؤشر السيارة الذي تجاوز السرعة المسموح بها منذ فترة دون أن يشعر، ليعود وينظر إليها قائلًا: لماذا أصبح قلبك خفيفًا هكذا؟

وضعت يدها على صدرها قائلة: عندي رهاب.. أرجوك.

هدأ من سرعته دون تعليق ربما خشي أن يضعف أمام حالتها، فقرر السير معتدلًا ما تبقى من الطريق، وبعد فترة ركن سيارته أمام إحدى الشاليهات الموجودة في قرية سياحية بالقرب من المدينة، فيلا صغيرة من طابقين على البحر بحديقة صغيرة مناسبة لها وللمكان.

لم تدرك وهي تخرج من السيارة كيف وصلت أو كم الوقت الذي استغرقته، أخذ يدها كمشهد عادي لعروسين يوم زفافهما، ولكنها تشعر بأن القادم ليس أفضل؛ أما هو فخطوات ويبدأ ثأره.

دخلت المكان مسحوبة اليد دون مقاومة فما الداعي للاعتراض فالقادم آتٍ لا محالة، جذبها صاعدًا السلم مدخلًا إياها غرفة نوم واضح أنها غرفته فأغراضه بداخلها.. ربما هنا قضى الأيام الماضية!

حاولت الحديث قائلة: أهذا المكان للعائلة؟

لم يرد عليها لتبلع ريقها قائلة بتوتر: هل أحد يعلم أننا هنا؟

وأيضًا لم تجد ردًا أمام نظراته المتفحصة، لم تكن نظراته هذه المرة كسابقتها مما تعودت عليها منه، لا تعرف كيف سيطر على نفسه ليظهر أمامها بهذا الجمود؛ لتعود وتقول: فارس اسمعني أولًا.

خلع سترته ورمى بها على المقعد وبدأ في خلع ربطة عنقه فقالت: فارس أرجوك اسمعني.

جلس على الأريكة الوحيدة الموجودة في الغرفة ينظر لها بنفس النظرة القاتلة فقالت: فارس، لم أتخيل أن تسير الأمور هكذا حاولت إخبارك يوم..

قاطعها قائلًا بصرامة: اخلعي العدسات.

_ فارس...

صرخ بها وقد جلس كالملك على عرشه يعطي الأوامر: قلت لكِ لا تنطقي اسمي هكذا مرة أخرى، واخلعي هذه العدسات فورًا.

وقفت صامتة ليعيد عليها الحديث بنفاد صبر: اخلعيها.

رفعت يدها باستسلام تخلعها لترمي بها أرضًا بقهر قبل أن ترفع عينيها تنظر إليه، تأملها قائلًا بأسى: مليكة.

وقال بنفس النبرة التي استجمع نفسه لإخراجها: اخلعي الطرحة والحجاب.

قالت بجمود: ماذا تريد يا فارس؟

_ نفذي.

لم يهتز أمام دموعها لترفع يدها محاولة خلع ما بها من دبابيس، فوقف بتردد يخشى الاقتراب منها فيظهر ضعفه أمامها، وصل إليها وقد كاد يسمع دقات قلبها، خلع تاجها ورمى به بعيدًا محدثًا صوتًا انتفضت على إثره، وكأنه يسقطها من عرش مملكتها.

بدأ في فك طرحتها ومن بعدها حجابها، ظهر أخيرًا شعرها الأسود ينساب بظلمته كالليل على كتفيها، وسماء عينيها الزرقاوين الصافية، مرر يده بتردد على شعرها ينادي عليها لأول مرة منذ زمن: مليكة.

لا تعرف أتسعد من ندائه أم تنتظر الإعصار القادم في عينيه، ليقول وكأنه يحدث نفسه: كيف لم أعرفكِ؟ كيف استطعتِ خداعي بهذه السهولة.

وصاح فجأة ممسكًا شعرها بشدة قائلًا: لماذا كل ذلك؟ ماذا تخفين؟ ما الذي جعلكِ توقعين بي في هذا الفخ؟ انطقي.

أمسكت يده التي تجذب شعرها بألم وهي تترجاه: فارس سأخبرك كل شيء أعطني فرصة.

ترك شعرها أخيرًا فابتعدت بظهرها خطوات عنه.

_ هذا مخطط أبيكِ ليعود أليس كذلك؟ وأنا القربان المقدم لجدك وتضمنين أنتِ وأبوكِ موافقتي.

نظرت له بذهول ليكمل: أم أنّ هناك شيئًا آخر؟

حركت رأسها ترفض حديثه قائلة: لم أخدعك.

ضحك بسخرية مقتربًا منها مرة أخرى قائلًا: أي صدقٍ أخبرتني إياه؟ أنتِ مجرد خدعة.

_ لا...

_ أتدركين إحساسي عندما علمت بعودة مليكة؟ أتتخيلين شعوري عندما أخبروني أني العريس المنتظر! كنت تائهًا بين وعد بالحب ووعد

بالأمان، كنت ضائعًا بينك وإليكِ... بمَن أضحي؟ بمَن أتخلى وأمضي؟ أخذتِ وعدًا ليس من حقك.

_ لم يكن من حق أحد سواي.

_ كدت أصاب بالجنون وأنا أبحث عن توارد الأرواح وتشابهها، أبحث عن مرضي النفسي الذي يجعلني أرى مليكة بكِ وأراكِ بها، كدت أجن وأنتِ تتسلين بي!

_ لم أتخيل أن يحدث ذلك.

_ ماذا كنت أفعل لو تركت مليكة حلم العمر التي اشتهى لها قلبي لأخي؟

_ لم أكن إلّا لك.

_ أنتِ مَن؟ أتعرفين لماذا أكملت الزواج؟ أتعرفين لماذا لم أرمِ بكلّ حلمي أرضًا؟ وأنا لست ذلك الذي يقبل الخداع، أتعلمين سبب إكمالي الزواج بكاذبة؟

_ لست كاذبة.

_ حتى لا يتزوج أخي بمَن حلمت بها بين ذراعيّ، حتى أستطيع النظر في وجه أخي بعدها.

_ لا يا فارس تزوجتني لأنك تحبني لا تقل غير ذلك.

_ كنت يا مليكة وجاءت غيرك أخذت هذا الحلم، واحدة نسجها خيالي لم تكن أنتِ هي ولم يعد لها وجود.

_ قل ما شئت، أنا هي وهي أنا مهما حاولت... وعدتني ألّا تتركني.

_ وعدت ونفذت، ولكن وعد القلب غاب يا مليكة لم يعد لي حكم عليه، قدرنا أكمله جدك، وطاوعته فقط لخوفي على تفكك العائلة، لست أنا مَن يقبل أن تحركه الخيوط.

_ أنت لا تستطيع التحكم بقلبك، اليوم ورغم كل غضبك حاولت تحقيق أحلامي.

وبنظرات قاسية قال: من أجل سمعة العائلة وحتى لا أبدو كالمغفل أمام الجميع.

ابتعدت عنه تهز رأسها برفض، تبكي قهرًا يرتجف جسدها منذرًا بالانهيار، ليقترب أكثر منها قائلًا: قبلت أن أُكمل اللعبة للنهاية لأخذ حقي وحق قلبي الذي لعبتِ به.

اقترب أكثر حتى التصق بها وقال: ولن أتنازل عن أخذ حق قلبي الذي أحبكِ مرتين وكرهك مرتين.

حاولت إبعاده بكلتا يديها قائلة: اصمت.

_ أكثر ما أوجعني أني أحببت ملك أكثر عندما أصبحت مليكة، أكثر ما أثار جنوني أني فرحت أن مليكة موجودة في ملك وفزت بالاثنتين معًا، كيف فعلتِ ذلك بي؟!

ضمها إليه حتى كاد يكسر عظامها ليتحول عنفه فجأة لمشاعر لم يستطع كبحها فذابت بين يديه للحظات كادت تفقد فيها صوابها ويفقد هو إرادته؛

ليفيق وهي تبعده، ترفضه، تأبى الخضوع لحبه بعدما أظهر ضعفه أمامها، هل تكمل خطتها؟ هل تُريد اعترافًا صريحًا بالهزيمة؟

كاد يجن أمام ما فعلت وهي تصرخ بفزع: ابتعد عني، لا تلمسني.

تلاعب الشيطان بعقله إلى أن تمكن منه ليوجه لها صفعة أسقطتها أرضًا، احتضنت نفسها بانهيار لا تردد سوى: لا تلمسني.

جذبها من الأرض بعنف صارخًا: ماذا تخفين؟ انطقي وإلّا قتلتك، لماذا أصر جدي على الزواج بهذه السرعة؟ لماذا لم تعترضي أو يعترض أبوكِ؟ ما الذي تخفونه؟

صفعها مرة أخرى، لم يهتمِمْ بانهيارها أمامه، ليقول بحسرة على حب خائن: ماذا فعلتِ يا مليكة؟ انطقي وإلّا جننت وقتلتك لأقتل نفسي بعدها.

رمى بها على الفراش وقد بدت في يده كمَن لا روح بها، فقط دموعها التي لم تخبره أي شيء، بل زادت ثورة الشك بداخله: سأعرف ماذا فعلتِ يا مليكة.

بدأ في خلع فستانها الذي تمسكت به لتأجج بركان الغضب بداخله أكثر، انهال عليها ضربًا ممزقًا إياه بقوة، مما أفقدها وعيها بين يديه فقد نجح الشيطان في تملك عقله.

فجأة جلس بجوارها كتمثال لا روح فيه ينظر لها بصدمة، يقرب يده منها بتردد ليدير ظهرها بخوف وقد بدت صدمته أكبر، ارتجف كيانه يرتعش جسده كله ولم يشعر بدموعه من هول ما رأى.

مشاهد سريعة مرت أمام عينه.

ـ هي تقول: لا أستطيع القيادة بمفردي.

ـ والده وهو يقول: حادث قامت بعده بعدة عمليات أدت لتغير ملامحها.

ـ خالد يقول: يجب الحديث أنت لا تعرف شيئًا، أنت لا تعرف ما بها.

ـ هي تقول: لدي رهاب من السرعة.

حادث...

حادث...

أي غبي هو!!

أي شيطان لعب بعقله ليفعل بها هكذا؟

ظهرها مشوّه وكأنّ أحدهم طبع عليه خريطة، آثار لحروق على بشرتها البيضاء يظهر لونها البني ببشاعة لا تدل إلّا على هول ما حدث لها.

جذبها بين ذراعيه قائلًا: ماذا حدث لكِ حبيبتي؟ أفيقي، سأسمعك صدقيني، فقط أخبريني أي وجع هذا الذي تحملته.

نظر حوله محاولًا التركيز، تحرك لطاولة الزينة جاذبًا زجاجة عطر، يحاول إفاقتها بيد مرتعشة، تستجيب ببطء... تفتح عينيها بسمائها التي لم تعد صافية، يحاول الابتسامة والسيطرة على نفسه بعدما رأى ما كانت تخشى أن يراه.

كانت تخفي ظهرها في الحائط ولم يفهم.

حاولت إخفاءه بفستانها ولم يفهم.

لم تهتمِمْ بما ظهر منها أمام عينيه، كانت تخفي ظهرها، ولكنّه كان أعمى البصر والبصيرة.

نظرت حولها بوهن تستعيد وعيها لتعود وتنظر له برعب مسترجعة الدقائق الأخيرة الماضية، تحركت ترجع بظهرها للخلف تلتصق بالفراش تخفي تشوهها عن عينيه.

اقترب منها بحذر حتى لا يرهبها أكثر بعدما استوعب متأخرًا نوبة الذعر التي أصابتها، أمسك كفها برفق ليميل مقبلًا يدها محاولًا طمأنتها.

_ ابتعد عني.

ولكنّه اقترب أكثر، يحاوط كتفيها بذراعيه يضمها إلى صدره قائلًا: هل هذا يستحق كلّ ذلك؟

انخرطت في نوبة بكاء؛ ليقول محاولًا تجفيف دموعها بأنامله لامسًا أثار أصابعه على وجهها: آسف، لا أعرف كيف فعلت ذلك أخبريني عن أي اعتذار تقبلينه سأنفذ ما تأمرينني به، ولكن فقط سامحيني، ألا تعرفين أن ابن عمك لا يرى أمامه عندما يغضب؟! تحملي اختيارك إذًا.

شك أنها تسمعه أو تستوعب ما يقول فاقترب يقبلها وكأنه يريد بث الحياة بروحها مرة أخرى؛ وكأنه يقدم اعتذارًا ضمنيًا على استحياء، ونجح ذلك الحب بداخلها من إخراجها من هذه الحالة لتتمسك به بقوة تدفن رأسها بين ضلوعه تقول بقهر: وعدتني ألّا تتركني، لا تخلف وعدك معي.

قال وقد فهم أخيرًا حقيقة ما تمر به: وهل أنا فكرت في تركِكِ لحظة! هل كل ما تفعلينه هذا بسبب هذا الجرح البسيط؟!

حاولت الابتعاد عنه، ولكنّه ظل ضامًّا لها بذراعيه؛ لتنظر ليده التي أمسكت بيدها وكأنها تخشى أن تلتقي عيونهما لتقول: لم أكذب، لم أعد سوى ملك، منذ الحادث ينادونني بملك، اسمي كان ثقيلًا عليهم بالخارج وأنا في المشفى.

لم يحاول الحديث ليتركها تقول ما تريد، يكفي ما فعله بغبائه عندما رفض سماعها؛ لتكمل قائلة تريد التخلص من هذه الاتهامات التي وصمها بها: لم أقصد تغيير شكلي إنّه أفضل ما توصل له الأطباء لإصلاح التشوّه، حتى العدسات ألبسها في الضوء ولا أستطيع السير بدونها، عندي مشكلة في الجهاز العصبي منذ الحادث، ولم يكن معي سواها.

زاد بكاؤها فأمسك رأسها بين يديه يقبل جبهتها باعتذار لم يملك غيره على ما فعله بهمجية.

فتحت عينيها بذعر تستوعب أن كتفها وظهرها ما زال مكشوفًا أمام نظره، حاولت جذب شراشف الفراش لتضعها على كتفها فأخذها من يديها قائلًا برفق: لا داعي لذلك.

هزت رأسها برفض قائلة: كنت أريدك أن تحب ملك كما هي، مليكة لم يعد لها وجود، حرقتها النار في السيارة... شوهتها وبقيت ملك بعيوبها، أقسم أني كنت سأُخبرك، لم أكن أنوي خداعك.

صمتت قليلًا ولم يجد ما يستطيع الرد به، لتقول وقد فهمت صمته هروبًا: كنت سأُخبرك وأنا ملك أني مشوهة لأبتعد حينها كما جئت دون أن أسبب لك الحرج، ولكن جدي...

أمسك كفيها بقوة قائلًا: غبية يا مليكة، كيف تتخيلين أن ذلك يمكن أن يكون سببًا؟

_ كنت واثقة مما سيفعله جدي، كنت أعلم أنه سيصمم على زواجي منك، كنت أعرف أنك ستشفق على حالي.

_ وافقك خالد على هذا الهراء؟!

_ رفض ولكني أخبرته أنه لو لم يساعدني لن أعود أبدًا.

ضمها إليه وكل ما يجول بخاطره هل هذا كان حال وجهها؟ يا الله..

أكان أسوأ من ذلك؟ ألذلك قطعت أخبارها عنهم؟

_ ستعودين كما كنتِ، يكفي أنكِ بخير.

مدد جسده على الفراش ومازالت بين أحضانه، يعطي لها ولنفسه قسطًا من الراحة بعد عناء طال لأيام قائلًا: غدًا أفضل يا حبيبتي.

ليغمض عينيه بإرهاق محاولًا النوم، أما هي فنامت بابتسامة فآخر كلماته أشفت أنين روحها.

....

دخل خالد غرفته في المصنع ممسكًا رأسه، جلس على مكتبه طالبًا كوب القهوة الخاص به لعلّه يستطيع التركيز فهو لم يستطع النوم الليلة الماضية،

ظل عقله منشغلًا ما بين مليكة التي لا يعرف مكانها الآن وأمه التي مؤكد لن تمرر قراره مرور الكرام.

اتصل بعادل بعدما أنهى قهوته التي لم تستطع التأثير على طواحين الهواء في عقله: هل لديك أخبار؟ سأجنّ لو لم أطمئن عليها.

_ لن يفعل شيئًا بها اطمئن.

_ كيف تتحدث بهذا الهدوء؟! ألا تعرف أخاك؟

_ وماذا تريدني أن أفعل؟! أنسيت أنه لا أحد يعلم ما فعلته مليكة وأن أمر تشوهها لا يعرفه أحد، ماذا سيحدث لو علمت والدتك؟ بل ماذا ستفعل والدتي لو علمت أن ابنها تزوج....

لم يكمل وقال: اهدأ حتى نصل لحل.

_ ماذا يمكن أن يفعله عندما يكتشف تشوّه زوجته؟ أخبرني هيّا لأجلس مثلك أنتظر انتهاء شهر العسل.

رد بتوتر: وهل تتوقع أن يكون عديم الإنسانية إلى هذا الحد؟ إنه يحبها، ومَن يحب لا يستطيع أن يرى عيوب حبيبه، هل سأُخبرك أنا ذلك وأنت مغرم للثمالة يا أخي!

ارتبك خالد قائلًا: ومن أين لك بذلك؟

_ أتتخيل أن يغيب عني تعلق عينيك بإحداهن؟

_ قال بشك: ومَن أخبرك أني لا أرى عيوبًا، لماذا هذه الثقة؟

_ لأن هذا حال مَن يحب، يتغاضى عن أي عيوب.

_ و... ولماذا تعتقد أنّ هناك عيوبًا؟

_ لأنّه لا أحد بلا عيوب، نحن بشر.

أخذ خالد نفسًا عميقًا وكأنّ عادل يعرف الكثير أو ربما مصادفة ليقول: وهل كلّ العيوب يمكن ألّا تراها عين المحب؟

_ أجل، ولكن ليس كل العيوب يجب أن نتغاضى عنها.

_ قال محاولًا عودة الحديث لأصله: وهل تعتقد أن فارس يمكن أن يتغاضى عما حدث لمليكة؟

_ فارس عصبي، عنيد كثيرًا مما يجعله يبدو غير متفاهم، ولكنه طيب القلب، تعلم أنه يثور ويعود كالطفل بعدما يخرج غضبه... جدك هو الأمل لأن نجدهما، مؤكد هو مَن أقرضه ليكمل الشيك.

_ إذًا سأتصل به الآن.

أغلق الخط فورًا واتصل به قائلًا بترجٍ: جدي الأمر ليس سهلًا، أرجوك أريد أن أطمئن عليها، لقد مرت بانهيار عصبي بعد الحادث، تأخذ علاجًا لا بد أن أُوصله لها بالإضافة لحقيبتها التي ما زالت معي بالسيارة.

رد نجيب بهدوء اندهش له خالد: لو كان عندي شك أنه لن يحافظ عليها لما زوجتها له، ولكن..

صمت قليلًا لينتظر خالد القرار بأمل فقال: سأخبرك أين هما، لا تذهب إلّا مع عادل لا أُريد أن يحدث صدام بينكما، خذ ما يلزم لهما وعودا فورًا، وأُحذرك أن تعود بأختك مهما كان، أفهمت؟

_ لا تخف يا جدي .

_ إنهما في فيلا الشاطئ الخاصة بعمك.

تنفس خالد الصعداء، ليتفق بعدها مع عادل أن يحضر اللازم ويتجه إليه في المصنع ليذهبا معًا.

حاول العمل في هذه الفترة ليجدها تقف أمامه مرتبكة لا يعرف متى دخلت كعادتها.

_ عذرًا ولكن لدي أمر وددت إخبارك به.

_ قال بجمود: ليس الآن اذهبي وأكملي عملك.

_ قالت بصدمة من الطريقة التي يتعمد معاملتها بها في الفترة الأخيرة: لم أُخبر أبي أني آتية إليك، ربما لن أجد فرصة أخرى قبل ذهابي.

_ انتبه قائلًا: ذهابك أين؟

_ طلب أبي أمس في الزفاف من الحاج هاشم نقلي لمقر الشركة لأن.. لأن المكان هنا بعيد وهو لم يعد يستطع المجيء كل يوم معي و...

_ أنا.. أنا أحتاجكِ هنا من أجل التصميمات.

_ أبي اتفق معي أنّ ما سأرسمه سيوصله.

_ صاح قائلًا: رحيق.. رأسي سينفجر ولم أستطع تحمل أي سخافات هذا اليوم يكفي ما أنا به اذهبي الآن.

_ أ.. أذهب؟!

_ نعم.. اذهبي وأخبري والدك أني موافق.

تركها واقفة في منتصف الغرفة واتجه خارج المبنى كله ينتظر عادل بجوار سيارته.

وقفت مكانها فترة تتسابق دموعها بصمت مؤكدة لنفسها أنّ والدها محق، ربما هي مَن فهم خطأ وربما فهمت ولكن هو مَن تراجع.

....

انتظر خالد في سيارته لفترة قضاها في معاتبة نفسه وكلما راوده شعور بالذنب تجاهها عاد شيطان الشك في عقله يقنعه بأنها تستحق.

ليصل عادل أخيرًا ينقذه من هذا الذي أجاد العبث برأسه، واتجه الاثنان سويًا إلى العروسين في صمت لم يبدُ غريبًا على طباع عادل، وقاتلًا بالنسبة للآخر.

....

استيقظ فارس باكرًا ليجدها كما هي تنام بين ذراعيه متمسكة به كقطة تلتصق بصاحبها، جلس يتأملها لفترة، صحيح ملامحها اختلفت، ولكن اختلاف بسيط بجانب فارق السن وبعض التغيرات، كيف لم يدرك ذلك؟ أهو خطأها أم خطأه؟ ابتعد عن الفراش ينظر حوله يبحث عن شيء مناسب لترتديه فهو بغبائه لم يحضر حقيبتها، خلع قميصه الذي ما زال يرتديه منذ الحفل ليلبسها إياه برفق لا يريد أن يوقظها، اقشعر بدنه عندما رأى ظهرها مرة أخرى، ليكمل ما بدأ وقد كانت تغط في نومٍ عميقٍ يؤكد

عدم نومها الأيام الماضية، تحرك في هدوء وفتح الخزانة يلتقط منها ما طالته يداه من ملابس، يلوم نفسه على ما فعله بها، استغفر الله على ما فعلته به الظنون، وضع أصابعه على وجنتها نادمًا؛ فكيف يخفي هذه الآثار من أمام عينيه، وماذا لو رأت هي وجهها بالمرآة؟ هل بعد أن تستوعب ما قال وما فعل بها ستسامحه؟ هل ستظل تأمن له وتحبه كلّ هذا الحب بعد شكه واتهامه؟

جالسًا أمامها رأسه يعيد كلّ ما حدث منذ يوم رآها إلى هذه اللحظة، يلوم حماقته وسوء الظن بها، حتى سمع صوت سيارة بالخارج، لم يفكر كثيرًا كان متأكدًا من محاولتهما العثور عليه، خرج من الغرفة متجهًا للدور السفلي ليجدهما في منتصف البهو، اتجه إلى الأريكة بإرهاق يرمي بنفسه عليها في صمت أمام اندهاشهما من رد فعله حال تواجدهما.

قال خالد بقلق: أين مليكة؟

_ نائمة.

اقترب خالد منه يحاول ترجمة تعبيرات وجهه، ليقول متظاهرًا بالهدوء: ماذا فعلت؟

_ لماذا لم تخبرني؟ أنت السبب في كلّ ما حدث.

جذبه خالد من ملابسه دافعًا إياه على الوقوف قائلًا: ماذا فعلت يا غبي؟ الفتاة معرضة لانهيار عصبي، ألهذه الدرجة أنت أحمق!

أبعد فارس يده ليجلس مرة أخرى ممسكًا رأسه ساندًا بمرفقيه على قدميه، ابتعد خالد مسرعًا إلى الغرف باحثًا عنها، وتحرك عادل ليجلس بجوار أخيه قائلًا: ماذا فعلت؟

رفع فارس رأسه ينظر لأخيه بعينين بلون الدماء ولم ينطق بكلمة، ضربه عادل بقبضته في كتفه صارخًا به: ماذا فعلت؟

_ كنت... كنت سأفعل.

أخذ عادل نفسًا عميقًا ورجع بظهره على الأريكة، فأكمل فارس قائلًا: لم أعد ألومها على ما فعلت.

ووضع يده على وجهه يخفيه عن أخيه قائلًا: صعب شكل ظهرها.. صعب تخيل ما حدث لها.

قال مستنكرًا كلامه: وماذا بعد صعب؟ ألم تستطع أنت مشاهدة ما تحملته هي؟

أبعد يده ناظرًا لأخيه قائلًا: ماذا تقصد؟

لم يرد عادل ليعود ويقول بخيبة أمل: أتظن أني بهذه الحقارة؟! تعتقد أنّ شيئًا كهذا يمكن أن يسبب لي مشكلة! إذا لم يكن للقلب حكم يا عادل وإذا لم يكن الحب بداخلي لا يسمح، فأين إحساسي كإنسان؟ أتراني أنانيًا بهذا الشكل؟

لم يحاول عادل الحديث ليعود ويقول: أشعر بتيار كهربائي يتصل بأحشائي كلما تخيلت كم من الألم تحملت، أشعر بكياني يهتز فقط عندما أتخيل

إحساسها بنفسها بعد الحادث، مليكة التي عاشت بيننا كملكة تزهو بجمالها، مدللة العائلة التي أسرت قلوبنا تعذّبت وتألمت بهذا الشكل، انهارت ونحن نعيش حياة هادئة.

لم يشك في مروءة أخيه، ولكن أحيانًا يسيء الإنسان الظن بأقرب الناس لديه.

....

في الغرفة بالأعلى جلس خالد بجوارها وهي نائمة مكذّبًا نفسه وسط بقايا زينتها المتلطخة، وآثار أصابع هذا المجنون على وجهها، أيقظها داعيًا أن يخيب ظنه، شك أن تكون فاقدة للوعي إلى أن استجابت وبدأت تفتح عينيها.

_ مليكة هل أنتِ بخير؟

نظرت حولها فقال: ليس هنا لا تخافي، تكلمي ماذا فعل بكِ؟

حاولت الجلوس بصعوبة لتخبر نفسها أنّها يد هذا المتوحش ما فعلت بها ذلك، وابتسمت ببساطة قائلة: لم يفعل شيئًا.

نظر خالد بعمق لعينيها ربما ليست بوعيها فقالت: أنا بخير لا تخف.

_ أتتخيلين أني سأقتنع؟!

وضعت يدها على وجهها لتقول بابتسامة: وهل ساء عما كان عليه من قبل؟

_ ماذا حدث يا مليكة؟

ـ ابتسمت قائلة: صدقني أنا بخير، كان يجب أن يحدث هذا الصدام توقعنا ذلك، ما الغريب؟

ـ توقع ماذا؟! هذه آثار ضرب.

ـ أحببته وأنا أعلم أنه همجي وأحمق ما الجديد؟!

نظر لها غير مصدق، هي أبدًا لم تكن من النوع الذي يرضى بالإهانة، فقالت بهدوء: لم أفكر عندما وقع الحادث إلّا أنه سيرفضني، سيكره النظر لي عندما يراني مشوهة، استجمعت كلّ قوتي وبحثت عن كل سبل العلاج حتى أصل إلى هنا ويحبني، أستحق ما فعل؟ كذبت عليه وخدعته لا تنكر.

ـ قال بتردد: ماذا فعل بكِ أكثر مما أرى؟

ـ لا شيء، راهنت نفسي عليه وكسبت رهاني.

لتكمل وقد عرفت دموعها الطريق: كنت أخشى أن.. أن ينفر مني بعدما يرى ظهري ولكنه لم يفعل ضمني إليه ولم يبتعد.. كنت.. كنت أنوي أن أقتل نفسي لو....

نظر لها بذهول فهي لم تفكر في الانتحار رغم تحذيرات الأطباء بعد الحادث وقال: ألهذه الدرجة؟

ـ لم أحلم إلّا به، كنت طفلة أحضر الأفراح وأتخيل عندما أكبر وأصير عروسًا وهو بجواري، أنت وعادل لم ترفضا لي طلبًا ولكن هو كان يحقق أحلامي، يفهمني دون أن يسأل، حتى وأنا أمامه ملك فهمني وشعر بي.

لتكمل ضاحكة وسط دموعها: إنه يعيش داخلي كما عشت أنا داخله.

ـ ضمها محاولًا المزاح قائلًا: وهذا الذي يفهمك كيف نزع العدسات؟

ـ ضحكت قائلة: الحمد لله ترك لي هذه المهمة كي لا يفقأ عينيّ.

استكانت بين ذراعيّ أخيها لا يعرفان أنّ هناك مَن هو بجوار الباب يجلس أرضًا ساندًا على الحائط، يسمع ما زاد وجع قلبه وآلم ضميره، وعادل الذي يقف كحارس ينتظر أن يتدخل في أي لحظة، جذبه عادل من الأرض قائلًا: لا داعي لدخولك الآن.

ليستجيب له ويبتعد عن الغرفة، وبعد فترة وقف خالد قائلًا: إذًا هيا قومي وخذي حمامًا ونظفي وجهكِ هذا مما حل به، وسأُحضر حقيبتك لتبدلي ثيابك.

نظرت لنفسها بصدمة وعادت تنظر له بخجل؛ فهي لا تعرف متى ارتدت ذلك، ابتسم وخرج بهدوء، نزل السلم مندفعًا بغير ما كان عليه أمامها، واتجه لفارس الجالس في صمت، جذبه كالمرة السابقة ليقف أمامه ولكن هذه المرة فاجأه بلكمة على وجهة قائلًا: هكذا متعادلان.

انتفض عادل مفزوعًا مما يمكن أن يكون عليه هذا الصراع وربما يكون خالد الخاسر الأكبر، ولكنه تفاجأ بفارس لم يتحرك أو يحاول الرد، مسح خيط الدماء الذي سال بجوار فمه وجلس بهدوء مرة أخرى، نظر عادل لخالد بلوم؛ فقال خالد مدافعًا عن نفسه: لو رأيت وجهها لما نظرت لي هكذا.

_ أنا أستحق أكثر من ذلك، صدّقني لو ضربتني مئة مرة لن أعترض.

ـ قال عادل مشفقًا عليه: يكفي إلى هذا الحد، هناك دواء للأعصاب لابد أن تأخذه في مواعيده.

ـ قال فارس بخجل من نفسه: أدوية أعصاب؟

صعد خالد لها مرة أخرى فوجدها بحمام الغرفة، وضع الحقيبة وغادر لينزل هذه المرة أقل حدة مما سبق فوجد فارس ما زال كما تركه، جلس بجواره فمهما حدث لم يكن هناك أقرب منهما يومًا وقال: حالتها كانت حرجة، الحادث كان بشعًا خرجت منه بمعجزة.

ـ فقال فارس: كيف وقع الحادث؟

ـ كان عمك مسافرًا كعادته تركها مع زوجته ليسافر لإجراء جراحات في عدة دول، ولكنّها للأسف عادت يوم لتكتشف..

صمت لا يريد ذكر ذلك ليقول عادل: ما الذي اكتشفته؟

ـ عمكما لا يعرف أني أعلم شيئًا، هو نفسه لم يعلم إلّا بعد فتره من علاج مليكة، اعتقدت زوجته أن مليكة ستقضي الليلة مع صديقتها كعادتها ولكن لسوء حظها عادت لتكتشف خيانتها، جرت مصدومة تقود السيارة ليلًا وبسرعة لا تدركها، انقلبت السيارة في منعطف ونشب بها حريق لولا ستر الله رآها أحدهم ليبلغ فورًا عن الحادث، أخرجوها في حالة صعبة كادت النار تلتهم جسدها كله ولكن عناية الله، ولم ينشغل وقتها أحد سوى بجانب وجهها الذي احترق وأصبح بشعًا.

صمت قليلًا يأخذ أنفاسه ليكمل: تعرضت لانهيار عصبي بعدما اكتشفت شكل وجهها ولكن أدهشت الجميع بصمودها لتصر على العلاج وإجراء عمليات التجميل، والتي من كثرتها لم أعد أعرف عددها.

ـ ليقول عادل: لأجل ذلك كنت تسافر كثيرًا بحجة العمل؟

بعد وقت قصير استعد الاثنان للمغادرة لينظر عادل لأخيه قائلًا: هناك ملابس لك أفضل من ذلك وما يكفي من الطعام، سافر عمك لإنهاء بعض الأعمال قبل عودته النهائية، اعتنِ بها.

انصرفا وتركاه لا يعرف كيف سيتعامل معها بعد الآن.

****

وعد وفاء

يقولون دائمًا الرجولة مواقف، حتى إن كانت تلك المواقف مخالفة لاعتبارات البشر، حتى ولو كان هؤلاء البشر أقرب الناس إليك، فهناك مواقف لو لم تأخذ فيها القرار السليم ستعيش بندم ووجع الضمير طوال العمر.

اتجه خالد لغرفة والدته بعدما تجنبها الفترة السابقة، وفضلت هي البعد عنه ليعتاد تجاهلها، يأمل أن تكون قد هدأت، جلس أمامها على الفراش ليدور ناظرًا للشاشة التي تحاول الظهور بالاهتمام بها، أخذ نفسًا عميقًا قائلًا: ألا تريدين الاطمئنان على مليكة؟

_ قالت بسخرية: وهل أنتظرك إلى الآن؟! لقد حدثتني منذ وقت لا تشغل بالك وابتعد أريد إكمال البرنامج.

نظر خلفه لمقدم البرنامج الشهير الذي لا يقول جديدًا منذ ظهوره على الشاشات؛ فجميعهم وجه لنفس العملة، يقولون نفس الأحاديث والأخبار الموجهة، يكفي رؤيتك لأحدهم لتعرف ما يدور ببرنامج الآخر، وقف مستجيبًا لرغبتها في عدم الحديث وقبل أن يغادر نظر لها قائلًا: هناك يا أمي أُناس لا نستطيع التخلي عنهم ولو فعلنا لعشنا طوال حيانا بندم وحسرة.

وانصرف قبل أن تحاول التفكير فيما قال ليعود لغرفته، يبدل ثيابه بعد عناء يوم طويل، ويقرر النوم أخيرًا بعد أن اطمأن على توْءَم روحه؛ فلقد أصبحت في يد الإنسان الوحيد القادر على إسعادها.

يجري مقارنة سريعة بين نفسه وابن عمه الذي لكمه منذ بضع ساعات عقابًا لسوء تصرفه.. أين هو مما فعل فارس؟! (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم...) يأخذ هو هذا الدور أمامهم وفي الحقيقة هو إنسان ضعيف، غير قادر على المواجهة، تذكر رد فعله المحبَط عليها صباحًا، يعلم جيدًا سبب موقف والدها، تمادى هو فيما يفعل ولم يفكر في العواقب، أغراب هما تقابلا على الطريق الخطأ، ولكن ما المانع أن يصحح كل منهما طريقه ليتقابلا في النهاية!

....

ومع صخب تلاطم أمواج الشاطئ الهائجة، أخذ يفكر في حديثها مع أخيها، هل يستحق أن يكون هو الحلم الوحيد والأمل الباقي؟ غُرس بداخلها إلى أن أصبح اقتلاعه صعبًا ، يشعر بالخجل أنّه أحبّ غيرها حتى ولو كانت هي! عاشت من أجله وظلّ هو يبحث عن بديل يشبهها، ولكن يقال إنّ الحبّ دواء وبما أنّه دواؤها فقرر أن يبدأ بالعلاج.

حمل الأغراض التي وضعها عادل، أخرج الطعام وأحضر صينية وضع عليها كل ما لذّ وطاب واتجه إليها، وجدها منكمشة على الفراش تحتضن نفسها

كجنين لم يخرج بعد للحياة، وقد بدلت ثيابها وخلعت قميصه، ترتدي إحدى مناماتها، بنطال قصير وبلوزته الوردية.

وضع الطعام على الطاولة واتجه إليها مبتسمًا، فمليكة ما زالت كما هي تحب اللون الوردي، اقترب يجلس بجوارها يعاتب نفسه لتأخره عليها.

وضع يده بتردد على ظهرها الذي أخفته بهذه الملابس، شعر باهتزاز جسدها تحت يديه فقال: ألن تكبري على ذلك، تمثلين النوم! أنسيتِ أني كشفتك كثيرًا من قبل؟

جذبها إليه غير مبالٍ بمقاومتها وقد اعتمد على قوة بنيته مقارنة بها، أجبرها على الجلوس وقال: آسف.. سامحيني لا أعرف كيف فعلت بكِ هذا.

ابتسمت بسخرية، فقال: أنتِ عرضي... أختي رغم أني أهواكِ، أنتِ لي كالماء والنار يا مليكة.

_ قالت وكأنها لم تسمعه: يزيد الغضب مع الحب.

_ آسف.

أغمضت عينيها واستندت على صدره قائلة: أنا التي يجب أن أعتذر، أردت أن أكون هنا بجوار قلبك أيًا كانت الطريقة، أنت تستحق الأجمل.. أنت...

قاطعها وقد غاص بوجهه في خصلات شعرها يتنفس أريجها: لا يوجد أجمل من ملكتي.. لم ترَ عيناي أجمل منكِ سواك.

ليكمل كلامه بعدما شعر ببكائها وقد شك أنها لا تستوعب ما فعله بها فقال محاولًا تشتيتها: أخبريني هل تمارسين الرياضة؟ أنا متأكد من ذلك منذ أول يوم رأيتك، ولكن لم أسألكِ حتى لا تتهميني بالوقاحة.

_ لا فائدة ستظل زائغ العينين.

_ مصرة أن تشعريني أني زير نساء.

_ لتقول بسخرية: حاشا لله.

ابتسم ينظر لها متأملًا، يملأ عينيه بها مما أخجلها فأمسك وجنتيها قائلًا: أتصدقين... أنا لم أنظر هكذا إلّا لكِ، كنت دائمًا أستمتع بخجلك.

قالت وما زالت بين يديه تحاول إبعاده: أصدق وقد وقفت تشاهدني بوقاحة وأنا أجمع أغراضي من الأرض بعد أن دهستني؟

_ لأول مرة تلفت نظري إحداهن، لأول مره تخطف عينيّ فتاة وتجبرني على النظر إليها، بعدك كنتِ أنتِ لا غيرك.

_ نظرت له بعدم تصديق ليقول: هل تريدين إقناعي أنكِ لم تتعمدي الاصطدام بي.

_ قالت تبرئ نفسها: كنت أفكر ماذا سأفعل لو عرفني أحد منكم، وفجأة وجدتك تنطلق أمامي وكنت أكثر سرعة من أن أُعطي قدميّ أمرًا بالوقوف.

_ حتى تصدقي أني لا أهتمُّ بالنظر لإحداهن، هيّا أنا جائع للغاية وهناك معونة قد وصلت لنا منذ فترة ويجب علينا التهامها.

جذبها إلى حيث وضع الطعام، يعشم نفسه بأن يمضي كل شيء ويقضيان أحلى أيام العمر.

....

وبدأ يوم جديد بغير حماسٍ كذي قبل، ينتظره الكثير من العمل الروتيني بالمصنع، يعطي نفسه فرصة للتفكير حتى لا يندم، يحاول إشغال نفسه بمهامه التي تراكمت في الأيام الماضية بسبب الزفاف، ولكن متى كان للإنسان قدرة للسيطرة على قلبه؟!

بين كل لحظة وأخرى يتذكرها وهي ترسم بجوار مكتبه، كيف كانت تمسك القلم ليطير برقة فوق الأوراق، نظر للقلم في يده يحركه في نواحي الورقة محاولًا الرسم، يشعر أنّه يسمعه يئن، كيف لها أن تبث الحياة في كل ما تطاله يدها ليسألوا عنها الآن؟!

أوراقها التي ما زالت على جانب المكتب كحمام أبيض أسير لا يستطيع الوصول للسماء، أقلامها تصطف وكأنها تقف حدادًا، حتى هو لا يشعر بالراحة، حزين الروح مخنوق الفؤاد، اعتاد رؤيتها كل يوم فماذا سيفعل؟

أسبوع مضى يتجنب فيه اللقاء بمحسن الذي تعمد عدم التعامل معه هو الآخر، ولكنه وبعد هذه الأيام ظل كما هو.. بل زاد الشوق من نار ثورته، حائرًا بين مواجهة قلبه وعقله ويضاف مواجهة والدته وربما عمه.

في الجانب الآخر على إحدى المكاتب الصغيرة بمقر الشركة، جلست رحيق أمام أوراقها والحاسب، يعاملها الجميع بلطف، ولكنها لم تمسك أوراق

الرسم وترسم منذ آخر مرة كانت معه، وكأن بُعده أفقدها ما اكتسبته بجواره.

....

هناك لحظات تمر على الإنسان وكأنه في حلم يخشى أن يستيقظ ليصدمه الواقع الذي لم يكن جميلًا أبدًا.

جلست على رمال الشاطئ تستند على كتفه، ترتدي نظارته الشمسية؛ فهي الحل الوحيد للخروج من المنزل دون العدسات، تضع عليها شالًا أبيض فهذا الموعد من العام ما زال الجو متغيرًا، رغم حلاوة جو الربيع وابتهاج شمسه ولكن دائمًا الأمر مختلف أمام البحر الواسع بأمواجه المتصارعة.

يحاولان الاستمتاع بوقتهما وأول أيامهما سويًا، نظر إليها وقد اعتاد تأمل تفاصيلها يضحك بداخله، فرغم اتهامها له بجرأة نظراته إلّا أنه أبدًا لم يحاول خيانة أمانة عمه، ولكن للقلب شروط مختلفة عندما يحب يحلل لنفسه أشياء لم تكن أبدًا حقه! والآن وبعد ارتباطهما بهذا الميثاق الغليظ أصبح الأمر مختلفًا.

_ ألن تكف عن هذه النظرات؟

_ لم أكف عنها عندما كنتِ ابنة عمي فقط، ولم أكف عنها عندما سقطتِ أمامي من السماء، تريدينني أن أكف عنها عندما أصبحتِ حلالًا لي؟!

لم ترد كما تفعل دائمًا عندما يثني عليها بكلمات الغزل، ولكنه قرر هذه المرة أن يسألها: لماذا دائمًا لا تحاولين الرد.. ألا تصدقينني؟

_ ربما أشفق عليك من مجاملتي.

_ مجاملة؟!

قالت وهي تنظر للبحر: أعلم أنك تحبني واثقة من ذلك، ولكن أنا ضغطت عليك بما يكفي أربكتك وكذبت عليك، لتأخذني لأحلام أبعد مما كنت أتمنى؛ فهل تريدني بعد كل ذلك أن أطمع بالمزيد؟!

اعتدل في جلسته ليصبح في مواجهتها حتى الرمال لم تستطع إبعادهما بوصات، احتضن يديها قائلًا: لماذا داخلك إحساس بأنكِ لا تستحقين؟ مَن في هذه الدنيا يستحق الغزل مثلك؟! أتعرفين ما يزعجني الآن حقًا هذه النظارة التي أحقد عليها لحجبها عينيك عني.

_ مشوهة أنا يا فارس، روحي مشوهة، حتى عيناي.

_ نظر للسماء قائلًا: يغيب النور عن السماء ولكن سمائي أنا لا تغيب يا مليكة.

_ قالت بخجل: لا تجاملني.

_ لكلّ شيء علاج رغم أني لا أرى بكِ شيئًا يستحق المخاطرة.

_ انفعلت قائلة: لا أرجوك لو كنت أعلم أنّه لا فائدة من العمليات ما عدت، أنا لا أستطع أن أعيش هكذا أمامك.

أخذ نفسًا عميقًا محاولًا ضبط حديثه، فقد عرف من خالد تفاصيل حالتها النفسية، بالإضافة لحديثه مع عادل والذي قام بدوره بالاستفسار عن كيفية إكمال علاجها وإمكانية رجوع الجلد التالف كما كان، وهناك إمكانية معالجة مشكلة عينيها طالما سبب المشكلة معروف.

وقف يجذبها معه واقترب منها في مشهد يستحق الرسم لحبيبين على الشاطئ تخجل الشمس لرؤيتهما لتقرر الانسحاب خلف الأمواج بهدوء.

_ سيمر كلّ ذلك وتعودين كما كنتِ دائمًا، كوني واثقة أني معكِ إلى أن تصلي لما تريدين، ولكن الآن علينا الدخول فالجو أصبح باردًا وغدًا يوم طويل حتى نصل إلى جدك، لا أعرف سبب إصراره على ذهابنا إليه بهذه السرعة وأن نكمل ما تبقى من إجازتنا عنده، وكأن هذا الرجل يتعمد إحباطي، أسبوع واحد هنا لا يكفي هذا ظلم.

جذبها فجأة لتجري خلفه في اتجاه المنزل، يغيبان بداخله ليعطيا فرصة للقمر على الظهور فربما يخجل هو الآخر أن يراقبهما!

...

صباحًا حيث موعد الاجتماع الشهري لمسؤولي الحسابات ومديري المؤسسة، اصطحب خالد محسن في سيارته ليتجها إلى مقر الشركة، انشغل الأخير في النظر لأوراقه ولكن مَن بجواره لم ينشغل بالقيادة فحسب فقد سيطر على تفكيره رؤية فراشته التي لم يستطع طوال الأيام الماضية أن يتصورها غير ذلك.

مضى الاجتماع كالعادة بين الأرقام والحسابات وبعض من الأفكار والاقتراحات التي لم تلفت انتباهه نهائيًا، وبدأ الجميع بالانصراف وقبل أن يغادر محسن المكان، قال خالد بتردد: عم محسن سأوصلك.

لم يخفِ على الرجل تردده فقال: لا داعي يا بني اذهب أنت فأمام رحيق بعض الوقت وأنا سأنتظرها.

_ قال عادل مسرعًا: لا يصح يا عم محسن كما جئت معه ترحل معه.

_ لم يرد الرجل فقال خالد بأدب: سأنتظرك بالأسفل.

ذهب محسن لابنته ليستعجلها، ووقف خالد مع عادل أمام مبنى الشركة ليبادر عادل قائلًا: لمَ أنت متردد هكذا؟ لا يعيب الرجل شيء أن ترتبط بابنته؟!

_ مستحيل أن توافق والدتي.

رفع عادل حاجبيه بدهشة قائلًا: عمتي إحسان ليست بهذه الطبقية.

قرر خالد أن يخبره ربما ساعده هو الآخر وحل له مشكلته مع نفسه والتي يعلقها الآن بوالدته، ليقول: كانت متزوجة من قبل.

_ مستحيل.

_ مرتان.. والأدهى ما يشاع عن سبب طلاقها الأول ثمّ الثاني.

لم ينطق عادل ليكمل قائلًا: وكلّ ذلك تعرفه والدتي ووالدتك.

_ هي ليست من هذا النوع، أنا تعاملت معها لو كنت رأيت عليها شيئًا لكنت نبهتك، مستحيل ابنة هذا الرجل تكون كما تقول، هناك حلقة مفقودة.

_ هذا ما أخبرت به نفسي، ولكن يظل الأكيد أنّها تزوجت.

ظهر محسن يخرج من المبنى بإجهاد متجهًا إليهما، ليقف قبالتهما قائلًا:

_ آسف على التأخير، اذهب أنت لا داعي لتعطيلك، ما زال لديها عمل.

متأكد أنّها رفضت العودة معه، أتتخيل أنها تستطيع حرمانه من رؤيتها؟ أمسك هاتفه واتصل بسكرتيرة الشركة قائلًا بحدة: أخبري مدام رحيق أني بانتظارها مع والدها.... بسرعة من فضلك.

أغلق الهاتف أمام دهشة عادل من تصرفه وما تلفظ به للتو، حاول محسن الحديث وكأنّ هناك ثقلًا على لسانه يصعب عليه الكلام: مـــــ... مدام مَن يا بني؟

لم يبالِ خالد وابتسم بتهكم وكأن الرجل يصر على خداعه، وظهرت هي من بعيد مسرعة لا تحاول النظر إليهم وقالت: آسفة لم أكن أعلم أنّ أحدًا بانتظاري.

قال خالد بلا مبالاة يتعمد أن يظهر عكس ما بداخله: كنا بانتظار العم محسن، لم نكن نعلم أنكِ مشغولة أكثر منّا.

وكأنّ هناك أحدًا ممن يطلق عليهم مصاصي الدماء غرس يده في صدرها يخرج قلبها وداس عليه بقدمه، ليته أكله أو امتص منها الدماء ولم يفعل

ما فعل، أفاقت على صوت أبيها المتقطع يقول: معك حق يا ولدي تأخرنا كثيرًا.

شعر خالد باهتزاز صوت الرجل واختلال توازنه لتسرع يده إليه قائلًا: عم محسن هل أنت بخير؟

هزّ محسن رأسه بالإيجاب وقد وضع يده على صدره ولم ينطق، اقتربت من والدها بقلق قائلة: أبي ماذا بك؟ أعاد الوجع مرة أخرى؟

التفت عادل لكلامها قائلًا: هل يعاني من شيء؟

لتقول وقد بلغ القلق منتهاه: نعم منذ فترة يعاني من ألم في صدره ويرفض الكشف، دائمًا يخبرني أنه بخير.

لم تغب الأعراض عن عادل ليسند الرجل مع خالد وساعداه في ركوب السيارة، ركبت رحيق بجواره تبكي قلقةً على والدها، وقف خالد ينظر للرجل وابنته بجمود؛ فدفعه عادل للركوب ليقود الأخير السيارة.

وبعد وصولهم المشفى وإجراء كلّ الفحوصات وأشعة الصدر اللازمة، كان التشخيص المبدئي كما توقع عادل جلطة نتيجة تصلب الشرايين، وتأكد الطبيب من شكوى المريض من قبل، لتكون النتيجة أنه لا بد من تركيب دعامات للقلب في أقرب وقت ممكن.

وقفت رحيق جانبًا تدعو الله أن يصبح والدها بخير، لم تكن تعي ما يحدث حولها حيث تحرك عادل وخالد فورًا لإنهاء الإجراءات اللازمة لإجراء الجراحة العاجلة.

حان وقت إجراء الجراحة لتخرج الممرضة قائلة: يريد أن يرى ابنه قبل التخدير.

_ قال عادل: تقصدين ابنته؟

_ لا يريد ابنه خالد.

تأثر خالد ودخل معها أمام ذهول رحيق ولم تقل سوى: وأنا!

دخل خالد ليرى الرجل كأنّه مرّ عليه الدهر فجأة، اقترب من الفراش يقول محاولًا التماسك: ما بك يا عم محسن؟ أكل هذا لتهرب من العمل؟

قال بصعوبة: اسمعني يا بني أنا لن أدخل هذه الجراحة إلّا بعد أن تعدني.

_ أنت تأمر وأنا أنفذ.

_ لا إنه وعد سأسألك عليه يوم الدين.

لم يحاول خالد مقاطعته ليكمل بصعوبة: ابنتي أمانة في رقبتك ليس لها من بعدي سواك، لا تتركها وحدها في هذه الدنيا أنا أعلم أنك الوحيد الذي يستطيع حفظ هذه الأمانة.

_ رد خالد بتأثر: أمانتك في عيني يا عم محسن، ألم أخبرك من قبل أنها بقلبي.

_ وصيتي لدى الشيخ مصطفى يا ولدي اسأله عنها عندما تراه.

خرج من الغرفة يرن في رأسه صدى صوت الرجل، وبمجرد خروجه أسرعت رحيق قائلة: خالد، كيف حاله؟ ماذا قال لك؟

انتبه من شروده على ندائها فقال: أخبرني أن أطمئنكِ، ويقول لك لا تبكي.

ابتسمت مصدقة حديثه بسهولة لتجلس بعدها جانبًا مستكينة، فقال عادل له: لم يقل ذلك.

_ أوصاني عليها، طلب مني أن أعده ألّا أتركها، قال ابنتي أمانة.. ألم أخبره من قبل أنها في قلبي ولم أستطع إبعادها؟!

ربت عادل على كتفه ليصمت الجميع بعدها وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

....

عندما تغيب الشمس عن أحدهم تأكد أنها تشرق عند غيره في أبهى صورها، تعطيه أملًا بحياة جديدة كزهور ظلت تنتظر طوال الليل لحظات ترى فيها النور لتفتح أوراقها للحياة.

نزلت من السيارة أمام منزل جدها، تنطلق بسعادة داخل الحديقة التي شهدت القسط الأكبر من طفولتهم، ولكنّها دارت عائدة إليه بنفس السرعة التي انطلقت بها، أضاق ما بين حاجبيه باندهاش ليجدها تجذب يده ليجري معها حتى وصلت لذلك المقعد الذي احتلّه هو من بعدها.

جلست عليه وانتظرته يحركه لينفذ فورًا دون أن تطلب كما كانت تفعل في طفولتها؛ فقال مشاكسًا: انتبهي لم تعودي صغيرة على فعل ذلك.

_ ليس لي ذنب أنك لم تعد تستطيع دفعي.

دفع الأرجوحة بأقصى قوته لتجد نفسها ترتفع لأعلى، وكادت تسقط فالتقطها بين ذراعيه قائلًا: ما رأيك أستطيع أم لا؟

حملها من خصرها لتجلس على الأرجوحة وجلس جوارها هذه المرة ضامًّا لها تحت ذراعه وبدأ يحاول تحريك الأرجوحة بقدمه قائلًا: هكذا أفضل.

_ أجل فلم أعد ابنة عمك فقط.

_ بل لم تعودي طفلة.

لم يغب هذا المشهد عن أنظار الكهل الذي وقف بالشرفة مبتسمًا بعدما خرج على صوتهما الذي ملأ أرجاء الحديقة.

دخلا البيت بعد فترة تظهر السعادة على محياهما، وقف الجد أمامهما بشموخه المعهود وعصايته التي تزيده قوة لا ضعف، يشير لهما بها قائلًا: سوف تخبراني بكلّ شيء.

نظر الاثنان لبعضهما وأعادا النظر له بعدم فهم، ليقول بنفس الحدة: كلاكما رفض الزواج في البداية، وما أراه الآن غير ذلك.

ليشير لفارس بعصاه قائلًا: وأنت ماذا كان يعني كلام والدتك يوم الزفاف؟

بدأ الاثنان في استيعاب مقصد جدّهما فالذي أردف: أنتما على علاقة دون علمي كلّ هذه السنوات؟ لماذا أخبرتني فاطمة أنّك تريد الزواج بأخرى؟

حاولت الابتعاد بارتباك؛ فرفض واتجه إلى جده مبتسمًا ليميل مقبلًا يده وقال: وهل لا يسعدك أننا تفاهمنا؟!

_ أنتما ومنذ أول لحظات الزفاف متفاهمان، هل يفوت هذا الشعر الأبيض نظرات الحب والغرام وعيونكما اللامعة؟

مال فارس هذه المرة ليقبل كتفه وما زال ممسكًا بيدها قائلًا: لم أخشَ سوى منك يا جدي.. كنت سأخبرك كل شيء صدقني ولكن بعد الانتقام من هذه المخادعة.

قال نجيب وقد خفّ جمود ملامحه مع خفة ظل حفيده: أشعر أنّ هناك أمرًا آخر غير قصة حب نشأت في حديقة بيتي من وراء ظهري.

ليحتضن حفيديه ويتجه بهما لمكان جلوسه المفضل ويبدأ استجوابهما.

....

الموت حق، جميعنا يعلم أنها إرادة فوق إرادتنا ليس بإمكاننا منعه، نعتقد أن الدنيا توقفت حولنا بمجرد علمنا أن أنفاس عزيز قد انقطعت؛ لتمر لحظاته أمام أعيننا ونكتشف أنّها الآن أطلق عليها اسم ذكريات.

خرج الطبيب من الغرفة مكررًا ما تعود عليه لسانه في مثل هذه الحالات، ورغم علمه بصعوبة وقع هذه الجملة على الحضور إلّا أنه لا بد من التفوه بها: البقاء لله.

ردد عادل الحوقلة، ولم ينطق خالد بكلمة إلّا أن أسرعت يده إليها دون تفكير، ساندًا إياها محاولًا قول أي شيء، ولكنه يحتاج من يواسيه معها، حركت رأسها رافضة تصديق ما يقصده الطبيب، تجري دموعها كطوفان أراد إغراق روحها دون سابق إنذار، تأبى الصراخ والعويل بطبيعتها، لتدور الدنيا من حولها فقد حل زلزال بكيانها دمر ما تبقى من روحها؛ فقررت

الخروج من عالم الواقع ربما يكون هناك حقيقة أخرى تراها في أحلامها أفضل من أنّها أصبحت بمفردها لا أم ولا أب ولا.. حبيب.

التقطها خالد قبل أن تسقط غائبة عن الوعي؛ ليحملها بسرعة متجهًا بها لإحدى الغرف مع الممرضة التي أسرعت لها فور سقوطها، خرج من الغرفة بقلب منفطر، يقف بجوار عادل منتظرًا الاطمئنان عليها أولًا لتبدأ بعدها المراسم المعهودة والتي يحفظها الجميع.

ظهرت الممرضة تطمئنهما بعدما أعطتها حقنة مهدئة، ربت عادل على كتفه بمواساة قائلًا: سأذهب لأنهي الإجراءات.

دخل خالد الغرفة بتردد لا يعرف ماذا سيقول، ربما فقط ما استوعبه أنه لم يستطع ضمها بين ذراعيه لتطمئن، كانت هادئة تنظر بعيدًا غير مدركة دخوله.

جلس أرضًا على ركبته ليصبح أكثر قربًا منها، لا يستطيع أن يمسك يدها أو حتى يقترب، لينادي باسمها وهو أقصى ما يمكنه فعله: رحيق.. أتسمعينني.

لم يأتِه رد فقال: رحيق انظري لي.

ظلت كما هي فقال: رحيق، أنا هنا لن أتركِكِ مهما كان أو لم يكن.

وكأنها لم تستطع رفض رجائه لتدير رأسها تنظر له بعينين صدمهما الفراق، قرأ فيهما ما لم تستطع النطق به.

_ أنا معكِ لا تخافي، أنا موجود.

هزت رأسها له بالإيجاب لتغمض عينيها بعدها، ويسمع هو صوت نشيجها لأول مرة فيطمئن عليها، فكثيرًا ما يكون البكاء راحة لصاحبه.
خرج يقف أمام غرفتها ساندًا برأسه على الحائط حتى عاد عادل الذي يعلم مدى تعلقه بهذا الرجل ويعلم جيدًا مكانة النائمة بالداخل محروقة الفؤاد على رحيله، ليقول له: أنهيت كل شيء؟
أغمض خالد عينه ليأخذ نفسًا صعُب عليه إخراجه فقال عادل: أبي في الطريق إلى هنا، سنأخذ الجثمان للمنطقة التي يقطن بها ونصلي المغرب في مسجد الحي.

جلست في سيارته تسند برأسها على زجاج النافذة لا تحاول النظر للخارج، لا تريد رؤية كيف سيخرج والدها يحمله أغراب لا يفرق معهم فراقه، سيارة إكرام الموتى تحتضنه كما احتضنت الكثيرين من قبله، يفسح لها الكل الطريق فيجري مسرعًا متعجلًا لقاء ربه.
لم يحاول قول شيء، فقط كان ينظر إليها بين الحين والآخر حتى وصل الموكب إلى الحي لتمر المسافة على الجميع وكأنها أميال، هكذا دائمًا الانتظار، وبمجرد وصول السيارة تجمع الكثير حولها وبالطبع تناقل الخبر بسرعة، ليظهر إمام المسجد يملؤه الحزن على صديق العمر، يعلم الجميع صداقتهما وكم حملت تلك القهوة القريبة من منزليهما حكاياتهما على مدار سنوات.

خرج خالد من السيارة لينتبه لاسم الشيخ مصطفى الذي تردد فور وصولهم، وكأنّ الجميع لا يعرف اسمًا سواه، وكأنهم يوفرون عليه عناء البحث عن حامل الوصية؛ ليقوم الشيخ بما تبقّى من مراسم الصلاة على المتوفى والدفن الذي بالطبع يعلم الجميع مكانه فمنذ سنوات قليلة سبقته زوجته في مشهد مشابه.

لم تتحرك من مكانها آخذة من سيارته مأوى آمنًا لها بعيدًا عن أعين المتلصصين، بعضهم مشفقون والبعض الآخر حضروا فقط من أجل واجب اجتماعي مفروض عليهم.

ليكون المشهد الأخير الذي لن تنساه طوال حياتها، جسد والدها يواريه النعش يحمله هذا وذاك، ولكنّ عينيها لم ترَ بين كلّ هذا الجمع سوى واحد فقط لم يبعد عينيه عنها هو الآخر.

تغمض عينيها وتحاول طمأنة نفسها بصوت الشيخ الذي تعرفه أذنها يردد آيات الذكر الحكيم، ليعود كلٌّ لمحياه إنّها سنة الحياة في العباد، افترق الجمع وظلت هي وحيدة كحال كل مَن فقد عزيزًا، يظن الناس أنهم شاطروه الأحزان، وهذا الحزن أبدًا لا يقاسم.

ركب خالد السيارة يمسح بيده على وجهه يزيح هذا الألم الذي بداخله، يشعر وكأنّه يفقد والده للمرة الثانية، تكرار المشاهد نفس كلمات المواساة والنظرات ونفس وجع الفراق، أدار السيارة لينظر لها مقررًا الحديث:

سنأخذ العزاء في منزلكم بالحيّ، اصعدي وبدلي ثيابك مؤكد ستأتي النساء للتعازي.

التفتت ناظرة إليه بمفاجأة، تهز رأسها برفض، فقال: سأظل هنا لا تخافي لن أذهب.

نزل من السيارة واتجه لبابها الذي خشيت هي أن تفتحه ليجد الشيخ مصطفى وبجواره إحدى السيدات يبدو أنها زوجته يقول: البقاء لله يا بني كان خير الناس أسأل الله صحبته في الجنة كما كنا في الدنيا، الحاجة زينب ستظل معكِ يا رحيق.

ولم تنتظر زينب فقد اتجهت بالفعل تأخذها بين أحضانها تربت على كتفها بحنان تبكي معها محاولة مواساتها.

صعدت معها زينب وابنتها خديجة وخلفهن العديد من السيدات التي تجمعن أمام المنزل فور سماع الخبر.

لا تعرف كم من الساعات مرت وهي جالسة مكانها تتغير الوجوه بين الحين والآخر إلّا من القليلات ممَن اعتبرن أنفسهن صاحبات العزاء.

تتذكره في أنحاء المنزل منذ ساعات فقط كان هنا.. وهنا... كان هناك...

كيف لها أن تسكن هذا البيت من بعده؟ مَن يعطيها بعده إحساس الأمان؟! كانت أحضانه سكنًا، الآن لم يعد لها مكان.

جلس خالد يأخذ العزاء بجواره عادل وعمه والشيخ مصطفى، وللأسف كان يسمع بأذنيه نميمة الرجال ويسخر بداخله فكيف يكون النساء فقط حطب جهنم.

هذا يتحدث عن فتاة أصبحت بمفردها، وهذا يذكر للآخر طلاقها عدة مرات، وآخر يقترح أن يأخذها زوجة ثانية ينوي سترها، الكلّ هكذا إلّا مَن رحم ربي، ولكن أيطردهم؟

كلما حاول الوقوف أمسكه عادل الذي يسمع معه الأحاديث نفسها، أهذا حال الناس عندما يتجمعون؟ ألا لهم أن يتعظوا ويسمعوا آيات الذكر الحكيم!

انتهى عزاء اليوم الأول وانصرف كلٌّ لمأواه، وظلت هي جالسة مكانها غير مبالية بمَن حولها.. إحداهن تنم.. وأخرى تشفق عليها تعوج الفم.. وغيرهن تضرب كفها على ظهر يدها.. ومَن تنصح بالبحث لها عن زوج، تنصرف النساء واحدة وراء الأخرى فتمنّي نفسها بالسكون.. ولكن أين هو؟ لقد وعدها.

ظهر أمامها وكأنّه شعر بندائها، بجواره عمه وابنه، دخلوا المنزل برفقة الشيخ، اقترب منها الحاج هاشم قائلًا بحزن: البقاء لله يابْنتي، كان أخًا عزيزًا رحمه الله.

ـ نظر للشيخ مصطفى قائلًا: رحيق مسؤوليتي من الآن يا شيخ.

ـ إنها مسؤوليتي أنا وهذا واجب عليَّ تجاه صديق العمر.

وهي كما هي لا تهتمّ بحديثهما، فمؤكد ستعلم نتيجة هذا المزاد فيما بعد، انتهى النقاش بأن يستمر العزاء لليوم التالي وبعدها يصل الجميع لحل.

وكأنّها لم تعد تملك تحديد مصيرها! وهل كانت تملكه يومًا عندما زوجوها مرتين؟! أكل ذنبها أنها فتاة في مجتمع وصمها بالضعف والعار؟ لماذا لم تدفن إذًا مع والديها ليتخلصوا من عارها؟ يعتقدون أنهم في عصر انتهى فيه وأد البنات! وماذا عن وأد حريتهن.. وأحلامهن؟! أفكار مجتمع توارثها من الجاهلية ونسي تكريم الإسلام لهن ووصية رسوله بالرفق بهن!

ستحدد مصيرها، تأخذ من قوة عائشة قدوة وتكون حادثة الإفك لها عبرة، سيريها الله يومًا كيف يؤخذ حقها أمام مَن تطاول عليها، لن تترك نفسها للموج، ستتعلم العوم وتذهب كما تريد هي ليس كما يريد الآخرون.

....

مضى اليوم سريعًا في مكان آخر بصحبة الجد الذي كلما تذكر ما فعلته حفيدته الصغيرة في هذا المتمرد ضحك من قلبه كما لم يفعل من قبل.

وبين الضحكات والحكايات رنّ هاتف فارس ليبتعد عن الحديث الدائر ويترك مليكة لأول مرة مع جدها الذي استغل الفرصة ليسألها مقاطعًا كلامها قبل أن يعود زوجها: هل أنتِ سعيدة؟ أخبريني ليطمئن قلبي.

لتقول مندهشة: لماذا تقول ذلك يا جدي؟

_ لأني أعرف طباع حفيدي جيدًا، أعلم أنّ أمر كهذا لم يكن يمرره بهذه السهولة التي أراها، أقسم لكِ يابْنتي لو آذاكِ بشيء لأُعيد تربيته من جديد.

_ قالت بابتسامة: لم يفعل شيئًا فارس يحبني لا تخف.

_ أتعتقدين أني بهذه السذاجة؟

ابتسمت ولم تحاول الحديث ليقول: أحذركِ لو أخفيتي عني شيء وعدتِ يومًا بشكوى لن تجدي منّي ما تريدين.

_ عاد فارس وقد تبدل حاله، فقال نجيب: ماذا هناك؟

_ عم محسن.. البقاء لله.

_ إنا لله وإنا إليه راجعون، كان تقيًا مخلصًا، إنها دائرة فالموت حق.. الموت حق.

وقف مستندًا على عصاه واتجه بهدوء لغرفته.

_ نظرت مليكة لفارس قائلة: مَن أخبرك أهو خالد؟

_ حدّثني بعد العزاء، لم يكن يريد إخبارك ولكن عندما علم من عادل بوجودنا هنا أخبرني قبل أن يصل الخبر لجدي.

_ لا بد أن نعود.. أعلم تعلق خالد به.

_ ليست هذه المشكلة الآن.

نظرت له باستفهام ليقول: غادر عادل وأبي بعد العزاء ولم يغادر هو، يحدثني من السيارة أسف المنزل.

_ انتبهت لما غاب عنها وقالت: الجنية التي أحبها، يا الله الوضع ازداد سوءًا.

ليقول باندهاش: سأعرف موضوع الجنية فيما بعد، لم يغب عني حبه لها.

_ لا بد أن نذهب غدًا، خالد بحاجة لنا وكذلك الفتاة لم يعد لها أحد.

_ نطمئن على جدك أولًا.

_ سأذهب لأطمئن عليه.

_ سأدخل له أنا واتّصلي أنتِ بخالد مؤكد يحتاج الحديث معكِ.

اتجه فارس لغرفة جده، طرق الباب ليأذن له الجد بالدخول فوجده جالسًا على الأريكة بجوار الفراش، جلس فارس أمامه قائلًا:

_ الأعمار بيد الله يا جدي.

_ هل تعتقد أني أخشى الموت؟ لا يا ولدي، لا يخشى لقاء الله سوى عاصٍ وأنا والحمد لله أعددت لهذا اليوم جيدًا؛ ولكنّه الفراق.

_ هل أخبرك خالد بشي بخصوص عم محسن؟

_ تقصد ابنته.

_ أجل.

_ خالد يعلم رأيي في هذا الأمر من قبل.

ظل فارس ينتظر سماع رأي جده ليقول نجيب: ماذا تتوقع؟! أهذا الموقف يتحمل سوى قرار واحد، لا يمكن أن نترك ابنة الرجل الذي أخلص لنا عمره بمفردها.

أما بالخارج اتصلت ملكة بأخيها: خالد البقاء لله.

_ أحتاجكِ يا مليكة.

_ أعلم ولكن لا يمكن أن نترك جدي الآن.

_ لذلك لم أحاول نقل الخبر إليه إلّا بعدما علمت بوجودكما.

_ هل ما زلت بالسيارة؟

_ لن أتركها وحدها لقد وعدته.. ووعدتها.

_ وهل ستظل هكذا كلّ يوم؟ لا يصح يا خالد إنها حارة شعبية لو مر الأمر اليوم لن يمر غدًا.

_ أعلم ذلك.

_ وكيف حالها الآن؟

_ سكونها يؤلمني، لا تتحدث بأي كلمة.

_ مؤكد ستحتاج وقتًا لاستيعاب ما حدث.

....

تحتضن نفسها داخل شرنقة صنعتها من غطاء فراشها تبحث عن أمان غاب، فضلت زينب البقاء معها في المنزل هي وإحدى السيدات من كبار السن في الحيّ، فيعلم الجميع صعوبة أول ليلة لفقدان عزيز.

وبالأسفل أظلم هو سيارته التي اصطفها على إحدى الجوانب المظلمة بالحي، لعلّ الليل وسواد زجاجها يخفيه عن الأعين، وقبل أن يقرر الاستسلام للنوم، فكر في محاولة يطمئنها بوجوده، فلا يستطيع نسيان نظراتها وكأنّها تتوسل إليه من بين كلّ الحضور، أمسك هاتفه وقرر كتابة رسالة.

(أنا بالأسفل في السيارة سأظلّ بجوارك، حاولي النوم)

رن هاتفها باستلامها، فتحتها بأصابع مرتجفة فوجدت كلماته، لاحت عليها ابتسامة حزينة، احتضنت الهاتف وأغمضت عينيها استسلمت للنوم، مر الليل بصعوبة على كليهما فظلّ الأرق يطرق بابهما باستمرار.

بمجرد شعوره بحرارة الشمس على وجهه، عدل من وضع كرسيه، ونزل من السيارة ليكون بين المارة والساعيين على أرزاقهم في الصباح.
هذا يفتح المقهى يرش الماء في طقس متعارف عليه غير عابئ بحروب تقام من أجل بضع قطرات، وآخر يخرج بضاعته أمام محله للعرض لعلّها تلفت انتباه المارة غير مهتم بالمنظر العام ولا ضيق الطريق، كلٌّ في سعيه، وكأنّه لم يكن هناك أحد بالأمس لم يعد معهم اليوم، إنّها سنة الحياة.
اتصل بجده في مكالمة سريعة، وبعدها أعاد الاتصال بعمه وعادل وجلس ينتظرهما على المقهى فجسده قد تيبس من النوم في السيارة.
طلب فنجان قهوته الصباحية؛ فحتى لو نسي الطعام لا يستطع نسيان هذا المشروب الذي يشاركه حياته، تفاجأ بأحد زبائن المقهى يجلس جواره دون استئذان قائلًا: البقاء لله.
ـ رد باندهاش: شكر الله سعيكم.
_ أنا الأستاذ فتحي.. كنت معكم أمس بالعزاء.

هزّ خالد رأسه منتظرًا باقي الحديث ليكمل الرجل قائلًا: هل حضرت لعزاء اليوم؟ لا تؤاخذني على السؤال أراك أتيت باكرًا.

_ هل عندك اعتراض؟!

_ نحن هنا أهل لا تقلق سنقوم بالواجب كله لا تحمل همًّا.

هزّ خالد رأسه لهذا الفضولي ولم يحاول أن يجاريه في الحديث، فعنده من الهم ما يكفي لشغل رأسه، ليجد أنّه لم ينصرف واستمر في ثرثرته.

_ سمعت والدك بالأمس يحدث الشيخ مصطفى أنّه المسؤول عن ابنة المرحوم فكنت أود أن أقول..

_ أوقفه خالد قائلًا: وما دخلك بذلك؟ أعلم أنّ أهل الأحياء من الشهامة والمروءة ما يجعلهم لا يتحدثون عن النساء على المقاهي يا أستاذ فتحي أليس كذلك؟!

وقف الرجل مصفر الوجه وانصرف من أمامه؛ فلم يرضِ هذا الشاب فضوله، ليرى الحاج هاشم يخرج من سيارته وبجواره ابنه، اتجه لهما مرحبًا ومهللًا، ليقول خالد من خلفه: هل هناك أمر آخر يا أستاذ فتحي؟

لم يحاول الرجل النظر خلفه ليوجه حديثه لهاشم قائلًا: من فضلك يا حاج أردت الحديث معك قبل أي أحد بما أنّك المسؤول عن ابنة المرحوم.

قاطعه خالد مرة أخرى قائلًا: أنت، ماذا تريد؟

أشار له عمه بالسكوت وقال بحدة: ما الأمر يا أستاذ؟

قال الرجل الذي قارب عمره من عمر مَن يحدثه: كنت أريد أن أطلب ابنة المرحوم للزواج.

أمسك عادل فورًا بيد خالد قبل أن يتهور، ليقول هاشم بحكمة؛ فلم يغب عنه مظهر الرجل غير المعتدل ولا حركة يده على أنفه المستمرة: وهل أنت غير متزوج إلى الآن؟!

ـ قال فتحي بثقة وفخر: بالطبع متزوج يا حاج وكيف لا أتزوج وأنا ميسور الحال والحمد لله، بل متزوج اثنتين.

ـ جذب عادل ابن عمه بعيدًا يحاول تهدئته قائلًا: عمك سيتصرف، لا تصنع فضيحة الفتاة في غنى عنها.

ـ قال هاشم بحدة: أتريد الزواج من فتاة في سن أولادك وعلى ذمتك اثنتان يا رجل؟

ـ رد فتحي بصفاقة: أريد فقط سترها بدلًا من تركها بمفردها، ثمّ أنّها سبق لها الزواج مرتين، من سيرضى بها في نفس سنها يا حاج؟ أنا أولى بستر لحم الرجل فقد كان عشرة عمر.

ـ قال هاشم بحدة: اذهب لحالك يا سيد ولا تشغل بالك فالله لا ينسى أحدًا.

تحرك هاشم متجهًا لولده وابن أخيه الذي يستشيط غيظًا قائلًا: أكنت تعلم بأمر زواجها؟

هزّ خالد رأسه بالإيجاب ليقول هاشم بحسم: وماذا قررت؟

_ ليس هناك سوى حل واحد يا عمي كما أخبرتك بالهاتف.

_ بارك الله فيك يا بني، لو لم تكن تفعل لكنت أمرتك أنا بذلك.

_ ليس من أجل مَن مات فقط يا عمي، من أجل هذا.

ليشير على قلبه وكأنّه خجل أن يخبره بحبّه لها، وبالطبع لم يتفاجأ هاشم؛ فلم يغب عنه اهتمام ابن أخيه بالفتاة منذ فترة.

ظهر الشيخ مصطفى متجهًا إليهم بوجهه السمح يرمي عليهم السلام ليرد عليه ثلاثتهم بود، جلس الجميع أمام المنزل تارة يتحدثون وتارة يذكرون المتوفى بكلّ خير يتردد صوت الشيخ عبد الباسط من المذياع يبث في النفس الطمأنينة؛ فمرّ الوقت بين آيات الذكر راحة للحي والميت، وبعد صلاة العصر بقليل، وقف هاشم مستأذنًا الشيخ قائلًا: نريد التحدث مع رحيق بحضورك يا شيخ لو تأذن لنا.

_ بالطبع تفضل، سأُخبر الحاجة زينب بالأعلى ونصعد جميعًا.

صعد هاشم وأبناؤه بصحبة الشيخ مصطفى، كانت تجلس على إحدى المقاعد البعيدة عن باب المنزل بوجه فقد القدرة على التعبير، دخل الشيخ أولًا لتكون زوجته في استقبالهم، وهناك بعض النساء ممَن يتوشحن بالسواد ليقول: رحيق، يريد الحاج هاشم الحديث معكِ قبل أن يذهب.

_ فقال هاشم: لن نذهب بدونها يا شيخ مصطفى بعد إذنك.

_ رد الشيخ بتفهم: إنّها بيننا معززة مكرمة، منزلي قريب وها هي الحاجة زينب وبناتي بجوارها.

_ لن نتركها يا شيخنا ستكون بصحبة زوجتي وزوجة أخي وهذا أفضل لها.

قالت زينب رافعة الحرج عن زوجها الذي ينتقي الكلمات: يا حاج، أنت على رؤوسنا جميعًا، ولكن لا تؤاخذني أرى معك أبناءَك شباب و.. وهي فتاة صغيرة ماذا سيقول الناس؟ لا تؤاخذني.

_ قال هاشم بتفهم: مؤكد أعلم الأصول والواجب وهذا لا يرضيني أبدًا، رحيق ستأتي معنا زوجة لأحد أبنائي.

ساد الصمت بين الجميع ليقطعه همهمات النساء الموجودات والتي لم يهتمِمْ بثرثرتهن أحد، وهي كما هي لم يهتز لها جفن وكأنّ الأمر لا يعنيها.

_ أخذ الشيخ نفسًا عميقًا قائلًا: ولكن الوضع الآن ليس مناسبًا يا حاج للزواج.

_ نحن لم نطلب زفاف ولا أفراح سنعقد القران على سنة الله ورسوله، الحزن في القلب لن ينتهي والحي أبقى من الميت.

حرك الشيخ رأسه مؤيدًا لكلامه، فقالت زينب وهي تنظر لرحيق: ولكن الفتاة لا تستوعب ما يحدث لكي نزوجها.

_ ليؤيدها زوجها قائلًا: نعطيها فرصة لاستيعاب ما حدث والتفكير في الأمر.

شعر خالد أنّ عمّه اقتنع بحديثهم، فتحدث قبل أن يخرج الأمر من بين يديه: بعد إذنك يا عمي الأمر لا يستحق التفكير يا شيخ مصطفى.

نظر له الجميع باندهاش ليقول له الأخير: كيف يا بني لا يستحق؟! هذا زواج.

_ أقصد أنّها فكّرت من قبل ووافقت.

_ نظر له عمه بتحذير فقال خالد غير آبهٍ: لقد طلبتها من والدها منذ فترة ولم يتبقَّ غير الخطوات الرسمية، ولكن قدر الله سبق.

واثق أنّها لن تكذبه أمامهم، ولكن ليس هناك حلّ آخر، وقف عادل مذهولًا مما يفعل ابن عمه، حاول حثّه على عدم الإكمال، ولكن لم يبالِ، شعر بأنّ كلامه لم يقنع أحدًا فقال: آخر مَن رأى عم محسن هو أنا قبل دخوله غرفة العمليات بعدما طلب لقائي، وأوصاني بإتمام الزواج في أسرع وقت.

رفع عادل حاجبيه بدهشة ولم يحاول الحديث لأنّه بالفعل لا يعلم ماذا قال الرجل قبل وفاته، أكمل خالد حديثه ليثبت حقيقة كلامه: لقد أخبرني أنّه أوصى الشيخ مصطفى شيئًا بخصوص رحيق.

_ فعلًا يا بني أوصاني إن أراد الله لقائه قبل زواج رحيق أن أعقد أنا قرانها وأكون مسؤولًا أمام الله على كلّ كلمة، صدقت يا بني.

زفر خالد نفسًا عميقًا لانتصاره الأخير، ولكنّه لم يطُل فقد قالت زينب والتي رغم طيبتها وصدقها لم يعد يطيق حديثها: كلّ هذا لا يمنع أنّ الزواج لابد فيه من موافقتها والفتاة كما ترى.

نظر لرحيق التي لم تتحرك فقط تنظر له بلوم وعتاب يفهمه، فكيف لا يفهم عينيها وقد فهمها وهي صورة صماء لا تتحرك؟!

كان عليه آخر محاولة لإكمال ما بدأ فاتجه إليها أمام نظرات الجميع المتسائلة، ليجلس على الطاولة أمامها ويبدأ حديثه معها على مرأى من الجميع، محاولًا خفض صوته عن آذان المتلصصين: رحيق.

أدارت رأسها بعيدًا عنه لا تريد النظر إليه، غاضبة هي منه هو يعلم ذلك.

_ رحيق لا وقت، انظري لي أرجوكِ، لا أريد تركِكِ بمفردك، هذا هو الحل الوحيد صدقيني، لا يمكن أن تكوني معي إلّا هكذا، اغضبي مني.. عاتبيني.. أو حتى وبخيني، ولكن بعد أن نذهب، والدك كان يعلم يا رحيق لا أكذب، أبعدكِ لتكون مهله للتفكير لكلانا.

نظرت له تتذكر معاملته التي قتلتها دون أن تفهم السبب فقال هامسًا: أعلم أنكِ لا تستطيعي المبيت بمفردك، سأنام بالسيارة حتى ولو سنوات، لن أتركِكِ، وفري علينا كلّ هذا وأخبريهم أنكِ موافقة.

ظلت تنظر إليه من وراء سحابة عينيها الممطرة؛ ليقول للمرة الأخيرة وهو يسمع صدى حديث عمه والشيخ يؤكدان أنّه لا يجوز زواجها، وهي بهذه الحالة: رحيق... فقط أخبريهم موافقتك على الزواج.

مرّر يده على رأسه وقد استسلم لليأس من تجاوبها أمامهم، ليأتيه صوتها قبل أن يتحرك من مكانه: موافقة.

أغمض عينيه زافرًا أنفاسه بإرهاق مع سماعه كلمتها، انتبه الجميع لصوتها فقال الشيخ: ماذا تقولين يا بُنيتي؟

_ موافقة يا عم مصطفى.

نادته كما تناديه منذ صغرها فابتسم قائلًا: سلم الله صوتكِ يا صغيرتي وسلمكِ الله من كلّ شر، أتوافقين على الزواج من الأستاذ خالد يا رحيق؟ سنعقد القران بمجرد موافقتك.

هزّت رأسها تمسح دمعة أخيرة سقطت، تنظر له وما زال جالسًا أمامها تحاول عينيه الاعتذار عمّا قال وما فعل.

_ موافقة على الزواج من خالد يا عم مصطفى، أخبرك أنّه طلبني من والدي.

لتصمت قليلًا أمام نظراته المترقبة لتكمل قائلة: أخبرني أبي أنّه لن يوافق على زواجي مرة أخرى سوى من خالد؛ لأنّه ابنه ولا يثق سوى به.

وقف من جلسته بعد كلماتها، ولم يحاول النظر إليها يخبر نفسه أنّها أخذت حقها.. وطعنت كرامته هذه المرة، قالت ما لا يريد تصديقه، لقد تزوجت من قبل.

جلس بعيدًا عنها، يريح رأسه من أفكار تتلاعب به يمينًا ويسارًا، أحضر الشيخ ملف الزواج الخاص به، وبدأ الجميع في ترتيبات الزواج، وتجهيز الأوراق المطلوبة... منفصلين عما يحدث حولهما تارة تعاتبه نظراتها، وتارة يعاتبها هو.. تتهمه ويتهمها.. تهرب بعينيها لحظات ليعود يجذبها رافضًا هروبها ومصرًّا على إكمال الحوار الذي لم ينطقا فيه ببنت كلمة.

وبدأ الشيخ في كتابة عقد الزواج ليقول موجهًا كلامه لرحيق التي جلست تبكي بجوار الحاجة زينب: توكّلين مَن يابْنتي؟

كان وقع الكلمة صعب عليها لتنظر حولها بحسرة، ليس هناك مَن يقرب لها بصلة رحم ولو من بعيد، فقالت دون تردد: الحاج هاشم.

ـ ابتسم هاشم بودٍ وقال: يعلم الله يابْنتي قدر والدك عندي، ليقدرني الله على حفظ أمانته.

ردّد خالد والحاج هاشم الكلمات المتعارف عليها وراء الشيخ مع بعض الهمهمات المعترضة على نص الزواج!

ورغم أنّها ليست المرة الأولى التي تمرّ بها بهذا الموقف، ولكن كان إحساسها مختلف، هذه المرة لم يكن والدها هو الذي يمسك بيد عريسها، ولكنّها ليست خائفة كما سبق، كان هو الأمان الحقيقي بين كلّ الموجودين.

انتهى العقد... واهتزّ بداخلها شيء لم تجربه من قبل، أرادت أن يأخذها ويبتعد، لا خوف من المجهول فلا مجهول معه، كانت دائمًا ما باليد حيلة وعكس ما يتخيل كلّ الموجودين هي اليوم حددت مصيرها، اختارت بإرادتها لا بإرادة أحد، ظلت بين أفكارها وذهولها من سرعة ما يحدث، همهمات لم تنتهِ ممَن حضروا للتطفل والتسلي بأخبارها.

تعرف ماذا يقولون... تسمعهم جيدًا، وحتى مَن لم تسمعهم تعلم معنى نظراتهم.

اتجه عادل لابن عمه يؤيده على ما فعل قائلًا: بارك الله فيك، أعلم أنّك تستطيع أن تمر مما هو قادم بحكمة.

_ أنا الآن يا عادل مرتاح الضمير والقلب، ولكن..

ليشير على صدره قائلًا: هنا نار لا أعرف كيف أُطفئها.

قاطع حديثهم نداء الشيخ مصطفى على خالد، فاتّجه إليه ليجلسا بعيدًا عن الموجودين، وبدأ الشيخ قائلًا: واضح أنّ قلبك مائل إليها وهذا لا يعيب بالعكس.. أنت بما فعلته اليوم كبرت في نظر الجميع، نعم أوصاني محسن رحمه الله.. أخبرني عنك فكان يعلم أنّك متردد، أخبرني يومها أنّه لا يتمنى لابنته سواك لتكون عوضًا لها، لم يكن ذنبها سوء حظها، أعلم أنك ستراعي الله وتكرم والدها فيها، من الآن هي زوجتك أمام الله وأمام الجميع، ولكن نصيحة من أب، قبل أن تطلب منها حقوقك أعطها فرصة لتستوعب ما حدث، أعطها وقتًا لتحزن ففراق الأب ليس هينًا، أنت من الآن لها السكن والأمان فكن لها العائلة واجعل بينكم المودة والرحمة.

_ رحيق في عيني وقلبي يا شيخ مصطفى.

بعد فترة أسفل العقار وقف هاشم يتبادل الحديث مع الشيخ، وبالمقابل وقف خالد مستندًا على سيارته بجوار عادل الذي تحدث قائلًا:

_ لا أفضل الذهاب لعمتي الآن يكفي ما به رحيق لن تتحمل رد الفعل.

_ أفكر في ذلك.

_ خذ رحيق للشقة أعلى الشركة وستكون بأمان إلى أن يهدأ الأمر.

_ فكرت في ذلك ولكن لا بد من استئذان عمّي ربما له رأي آخر.. و.. أعتقد أنّ فارس كان ينوي السكن بها.

_ والدي مؤكد سيتفهم الأمر، أمّا بالنسبة لفارس فمليكة من العائلة ويمكن أن تتحمل.

_ أعتقد أنّه لا بد لنا جميعًا من بعض الخصوصية بعيدًا عن العائلة.

فضّلا الصمت بعدها لشعورهما بوجود متلصصين صائدين للأخبار حولهما؛ فلم تنتهِ الهمهمات عن العريس الذي أوقعت به الفتاة، فها هي إحدى مَن كن بالأعلى يحضرن عقد القران مظهرات مشاعر الحبّ، تنقل الأخبار لأخرى تتظاهر بالبراءة.

_ قال عادل: لا تشغل نفسك بهم.

لم يرد عليه ناظرًا أمامه بجمود، ليكتمل المشهد بهذا المتطفل الذي مرّ عليه صباحًا يحاول استغلال وفاة الرجل ليخرج بأي مكسب حتى ولو كان فتاة في سن أولاده.

_ قال فتحي متهكمًا: حاولت إنقاذك.

وضحك وكأنّه قطار يخرج منه ما يؤثر على طبقة الأوزون، استاء عادل من مدى صفاقة الرجل وأمسك ذراع ابن عمه حتى لا يحقق لهذا الوضيع مطلبه من حدوث فضيحة، وخالد مكانه لم يهتز له جفن، ليقول عادل للرجل: ابتعد من هنا لا داعي لاختلاق مشكلة.

قال الرجل بجرأة زادت بعدما لم يجد ردَ فعلٍ من خالد معتقدًا أنّه أصاب الهدف: هل أخبروك سبب طلاقها قبل الزفاف بثلاثة أيام، وفضيحتها يوم زواجها الثاني؟

أنهى كلامه الذي كان على مرأى ومسمع من الجميع ليتفاجأ بيد خالد وقد صوبت إليه كرصاصة أردته أرضًا وبجواره أحد أسنانه التي مؤكد بقيت بمفردها في فمه بعد أن مرّ بأخواتها الكثير من هذه المعارك.

حاول عادل جذب خالد بعيدًا عنه، ولكنّه بالطبع لم يقوَ على مَن طعن للتوّ في كرامته وشرف زوجته.

وقف الجميع يشاهدون الشجار دون تدخل سعداء مما يلاقيه عديم المروءة؛ فواضح تجنب الناس لقذارة حديثه اجتنابًا للفضائح.

جذبه خالد من الأرض بكلّ سهولة فهناك فارق في العمر بالإضافة لشاب يحافظ على لياقته البدنية، مما فاجأ هذا الصفيق وقد تخيل أنّه يتعامل مع مَن هم من الطبقة الراقية ولا يعرفون شيئًا عن عراك الشوارع.

أعاد خالد لكمه مرة أخرى بكلّ سهولة ليطرحه أرضًا أمام نظرات الشماتة من الجميع، ليقف هذه المرة أمامه عمه والشيخ مصطفى بعدما تأكدا من عدم قدرة عادل على ردّه، ليقول عمه: يكفي هذا يا خالد.

ـ وقال الشيخ: خذ زوجتك وارحل من هنا يا بني.

كانت تقف أمام مدخل المنزل ترتجف تضمها السيدة زينب، نفض يده ببساطة وعدل من قميصه الذي لم يصبه شيء من الأساس، ونظر لهذا الذي ساعده بعض الصبية على الوقوف قائلًا: هذا مجرد تحذير.

اتجه بعدها إليها يحمل حقيبتها بيده واليد الأخرى تجذبها بعنف، فتح السيارة ووضع بها أغراضها، ودار بها لتركب ولكنّه نظر لها لحظات لم تفهمها، ليميل بعدها داخلًا بجذعه السيارة وفتح إحدى الأدراج الأمامية وأخرج منها هذه العلبة الصغيرة التي أحضرها يومًا لأخته وقرر أن ينفذ وصية فارس بالاحتفاظ بها لنفسه، فتحها أمام مرأى الجميع وألبسها ذلك الخاتم الألماسي، كانت يدها ترتجف بين يديه كلوح من الثلج خرج لتوه من المبرد، أمسك يدها بشدة وكأنه يبث بها من طاقته، ليميل مقبلًا يدها، ثمّ أشار لها بدخول السيارة، وأغلق الباب بعنف لا يتناسب مع هذا المشهد الذي أداه ببراعة منذ لحظات!

انطلق خالد بالسيارة بأقصى ما أُتيح له من سرعة، وبمجرد أن ابتعد عن المكان بما يكفي، أوقف السيارة جانبًا ليأخذ نفسًا عميقًا زافرًا إياه بقوة.. مرةً.. اثنتين.. ثلاثةً.. ليهدئ من ثورته.

نظر لها فوجدها تبكي بصمت فقال: انتهى الأمر.

_ آسفة وضعتك في هذا الموقف.

_ على ماذا تتأسفين بالتحديد؟

لم تفهم سؤاله ليقول مكملًا: هل على وضاعة شخص ليس لكِ ذنب فيها؟ أم على ما قاله هذا الوضيع؟

ـ لتقول بقوة لم يتخيلها: لم أُجبرك على زواجي ولم أخدعك أو أخفي عليك شيئًا، لو أنك تشعر بالندم فلا داعي لذلك لينتهي الأمر إلى هنا وأنا سأُدبر حياتي لا تقلق.

خبط عجلة القيادة أمامه بعنف، فابتعدت جانبًا وقد شعرت أن هذه القبضة كانت من نصيبها، ليقول بعدها:

ـ هل كان يجب عليّ أن أُشوّهه أكثر مما رأيتِ لأملأ عينيكِ؟

لم تحاول الحديث ففضلت الصمت وخصوصًا بعدما رأت ماذا فعل بالرجل بكل بساطة، أدار محرك السيارة لينطلق بها إلى واجهته والتي لا تعلمها إلى الآن ولم تحاول سؤاله وكأنّه ليس من حقها.

....

اتصل عادل بوالدته ليبلغها الخبر قبل وصوله هو ووالده للمنزل دون خالد للمرة الثانية، وربما أراد إخراج ثورتها قبل وصولهما، ورغم أنّه دعا الله أن تتروّى أمه وتهدئ من ثورة زوجة عمه، إلّا أنّها وبمجرد أن أخرها عبر الهاتف صرخت به وقد سمع صوت إحسان بجوارها بعدما رددت قائلة:

ـ ماذا.. تزوج خالد ابنة محسن.. كيف تفعلون ذلك دون علمنا؟ كيف يفعل ذلك بأمه؟

ثارت إحسان فور سماعها لما لفظت به فاطمة، وقد أغلق عادل الخط فورًا؛ لتظلّ تبكي وتولول، وهي تقول ضاربة يدها على قدمها: ابني تزوج من مطلقة يا فاطمة.. ابني تزوج دون علمي.

....

أوقف خالد السيارة مرةً أخرى بعدما رن هاتفه، وبمجرد أن رد تغيّرت تعبيراته وهو يجيب: سأتصل بها حالًا.

اتصل بوالدته فورًا، وقبل أن ينطق بكلمة سمعت الجالسة بجواره صوت السيدة الثائر يصل إليها ليرد هو بهدوء: نعم يا أمي تزوجت.

ظلّ صامتًا يستمع لثورتها، مؤكد لا يستطيع الرد وهي بجواره، لتحاول فتح السيارة والخروج منها، ولكن لحقتها يده تمنعها وأكمل كلامه مع والدته قائلًا: لأني تربيتك يا أمي فعلت ذلك.

ثورة لا تنتهي، ولا ينكر حقها في ذلك ليعود ويقول مشفقًا على الجالسة بجواره: لم أكن أستطيع تركها ولو ليلة يا أمي.

أغمض عينيه بحسرة بعدما أغلقت الهاتف في وجهها، مسح على رأسه يحاول إزاحة ما حلّ به وقبل أن يستعد ليدير السيارة مرة أخرى قالت: أستطيع تدبير أمري، اذهب لوالدتك وأكمل حياتك...

وقبل أن تكمل صرخ بها: اصمتي يا رحيق.. واضح فعلًا أني لا أملأ عينك أو ربما لا تدركين ماذا يعني أنكِ أصبحتِ زوجتي.

وأمام صياحه فضّلت الصمت وأغمضت عينيها تستند على النافذة بجوارها تبكي بصمت، حتى شعرت بالسيارة تقف، لم تحاول الالتفات ولا فتح عينيها ربما سيتحدث عبر الهاتف مرة أخرى.

_ رحيق.. لقد وصلنا.

فتحت عينيها ولم تسأل أين هما، خرجت من السيارة بهدوء، فتلقفتها يداه، لا تعرف متى نزل ودار ليقف أمامها، جذب يدها لتدخل معه المبنى الذي لم تستوعب مكانه فلقد كان مدخل جانبي، وبمجرد دخوله الشقه ألقى جسده على الأريكة ساندًا رأسه عليها بإرهاق.

....

وصل عادل ووالده إلى المنزل يتقدمان بخطوات ثابتة، يتوقعان ما سيلاقونه من ثورة ربما هدأت قليلًا وربما تنتظر الانفجار، وبمجرد دخولهما، صرخت إحسان قائلة: زوّجت ولدي دون علمي يا هاشم.

_ الظروف فرضت ذلك يا إحسان.

قالت وقد وقفت فاطمة بجوارها تربت على كتفها: زوجت ابني لمطلقة مرت على رجلين قبله يا هاشم؟

_ ذُهِل عادل من وقع الكلمة فقال: لا يصح هذا الكلام يا عمتي.

_ ثار هاشم قائلًا: ليس لكِ دخل، الأمر لا يعني سوى خالد.

_ هل تقبلها لابنك؟

_ إنّه ابني بالفعل ويحمل اسم العائلة مثلهما تمامًا.

_ لا يا هاشم.. زوّجت ابنك من ابنة عمه جمال ومال وحسب ونسب وشرف وتأتي لتزوج ابني من هذه.

_ ماذا بها الفتاة؟! هل يعيب الرجل فقره؟

_ يعيبه ابنته سيئة السمعة.

_ مَن تخطئين في حقها الآن أصبحت زوجة ابنك، شرفها من شرف هذه العائلة، يريدها وتزوجها بإرادته وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا، ولو لم يكن تزوجها لكنت طلبت ذلك من ابني هذا الذي يقف بجواري، انتهى الكلام.

انصرفت إحسان صاعدة لمنزلها تولول، فوجه حديثه لفاطمة قائلًا: أعلم أنّ لكِ يدًا في كلّ هذا.

_ و... وما دخلي؟

_ ليس أهل بيتي مَن يرمون المحصنات بالباطل، اصعدي معها وأعقلا كلامي جيدًا وهدئيها.

انصرفت مسرعة خلفها تشعر بقهرها وحسرتها، لا تقتنع بحديث زوجها.

اتجه هاشم إلى غرفة المكتب وخلفه عادل ليجلس هاشم قائلًا: ما بك أنت الآخر؟!

_ شيئان يا والدي أبحث لهما عن إجابة.

_ وما هما؟

_ أشعر وكأنّك تعرف شيئًا لا نعرفه بخصوص رحيق، أنا شخصيًا شككت في الأمر للحظة اجتمع الناس على نفس الحديث، وأنت لم تهتمِمْ لما قيل كأنّ الأمر كله لا يعنيك.

_ قال هاشم بابتسامة غير مناسبة: والأمر الثاني؟

_ ابتسم عادل بتهكمٍ قائلًا بسخرية: ألم تلاحظ أنّك كلما أردت إتمام زواج أحد أدخلتني في الوسط وكأنّي آخر مَن له الحق في الاختيار! وكأنّي التميمة الزرقاء التي تجلب الحظ وتيسر الأمور!

_ ضحك هاشم قائلًا: بالنسبة للأمر الثاني فهذا لأني أثق بأنك لن تخذلني أبدًا، أعلم جيدًا أنه ليس هناك مَن يشغل قلبك، كما أنك أكثرهم تعقلًا وتزن الأمور جيدًا.

_ ولكن الوضع مختلف، خالد أرادها حقًا وليس لحل المشكلة.

_ أعرف ذلك وقد أخبرته أمامك أنه رفع عني حرج هذا الطلب، فهو أولى بها لأنّه الأقرب لوالدها.

ليصمت قليلًا قبل أن يردف: ألم يعطِك ذلك دافعًا لتتزوج أنت الآخر؟

_ وهل تريد أن أتزوج خلال نفس الشهر مثلهما؟ أو ربما هناك فتاة تنتظرني وأنا لا أعلم؟!

_ ضحك قائلًا: ولمَ لا؟ ربما أبناء هذه العائلة لا يمكن زواجهم إلّا متورطين.

ـ رد بجدية: هذه هي المشكلة، إنّهم تزوجوا بورطة ولا أحد منا يوقن هل ستنجح هذه الزيجات أم لا، كيف لميثاق كهذا أن يتم بهذه السرعة وبهذه الطريقة؟

ـ إنّها أقدار لا يأخذ الإنسان كلّ شيء من الدنيا، مَن سعيد مئة بالمئة؟! المهم أن يتفاهما في النهاية، كنت متأكدًا أنّ أخاك لن يتخلى عنها بعد أن يعلم ما مرت به.

ـ لا يا أبي إن كنت تتخيل أنه تجاوز الأمر شفقة بمليكة فهذا لم يحدث.

ـ إذًا ما فهمته أنا وعمك صحيح كان بينهما شيء دون علمنا.

ـ ابتسم عادل قائلًا: وهل المشكلة الآن في علمكما يا أبي؟

ـ إذًا لن يختلف الأمر كثيرًا، القدر لعب دوره، لا يهمُّ كيفية الوصول للهدف طالما تحقق.

ـ إذا كان فارس تقبل الأمر بسبب حادث مليكة، ما الذي سيجعل خالد يتقبل زوجته بعد ما سمع ورأى كيف يتحدث عنها الناس، سامحني يا أبي أراك غير مهتمٍّ لذلك الأمر.

ـ أنت لن تستطيع وضع نفسك مكانه لأنك لم تفكر بقلبك، واثق أنه سيمر من هذه المحنة.

ـ هل كنت تعلم أمرها من قبل؟

ـ نعم أخبرني رحمه الله كل ما حدث لها وأوصاني عليها من بعده وكأنه يعلم أنه لم يبقَ الكثير.

يجلس على الأريكة لا يقوى على فتح عينيه، وظلت هي واقفة تنظر حولها لا تحاول الحركة ولا الحديث، طلب منها الصمت ونفذت، فيكفي ما سببته له اليوم.

فتح عينيه بعد فترة بتكاسل وجدها كما هي ساكنة كعادتها فقال: لماذا تقفين هكذا؟!

_ ماذا أفعل؟

تذكر خجلها الدائم عندما كانت تدخل المكتب في صمت تقف كفراشة ساكنة لا يشعر بها، ليقول بهدوء: وهل أنتِ ضيفة لتنتظري أن آذن لكِ بالدخول؟!

_ نظرت حولها بارتباك وقالت: إذًا أين أذهب؟

_ كيف أين تذهبين؟ افعلي ما تريدين.

_ أين غرفتي؟

وقف مكانه ينظر لها لحظات بتمعنٍ ليقول وهو يقترب منها: أين غرفتك؟!

أجفلت عليه يجذبها من يدها لتسير خلفه، فتح إحدى الغرف ليدفع بها بحدة، ووقف في منتصف الغرفة قائلًا: هذه غرفتي، وبما أننا تزوجنا فقد أصبحت غرفتك، ما رأيك؟

ابتعدت قليلًا قائلة: ماذا تعني أنها غرفتي؟

_ في السيارة تطلبين أن أتركِكِ تذهبين، والآن وكأنك لم تستوعبي ما حدث، أنا لم أتزوجك إلّا عندما تأكدت من موافقتك واستيعابك لذلك جيدًا.

_ مـــ.. ماذا تقصد؟

_ زواجنا حقيقي بإرادتي وإرادتك يا رحيق.

_ أعلم ذلك جيدًا ولكن.. أنا غير مستعدة للزواج الآن.

_ قال بتهكم: وكيف تستعدين للزواج؟

حاولت استجماع قواها واستعادت كرامتها التي أهانها كما فعل الجميع وقالت بتحدٍ:

_ لم أخدعك، أخبرتك جيدًا أني تزوجت مرتين، أخبرك الناس كلها بهذا الأمر.

_ لا أريد سماع ذلك مرة أخرى، أتفهمين؟

_ هذه حقيقة أنت مَن تريد إنكارها.

_ أمسك ذراعها بعنف قائلًا: اصمتي.

_ جذبت ذراعها مبتعدة عنه وقالت: إياك أن تتخيل أنك ستخيفني، أنا لست ضعيفة، لم أتزوجك لتنقذني أو لتستر عليّ كما تتخيل أنت وغيرك، أنا أستطيع الدفاع عن نفسي.

تأمل حديثها المضطرب في غير موضعه ليقرر تركها تقول ما تريد، ربما يستطيع معرفة ما بداخلها، فزاد اضطرابها أمام صمته، أتريد أن يجادلها أم تقصد استفزازه؟!

_ أنت لا تخيفني.

ابتسم بسخرية ولم يحاول الرد ليبدأ في ثني أكمام قميصه دون اهتمام وقد فاض به الكيل، ولكنّها تراجعت للخلف قائلة: هل تريد ضربي؟ أنا أستطيع الدفاع عن نفسي.

أضاق ما بين حاجبيه، لماذا تخيلت ذلك؟ ربما أخافها ضربه لذلك الرجل بالحي؟! تقدم منها خطوة قائلًا: أتخافين مني يا رحيق؟!

_ أخبرتك أني لا أخاف وأستطيع الدفاع عن نفسي، فعلتها من قبل مرتين في رجليين تزوجتهما قبلك.

اقترب بغيظٍ فقد نجحت في استفزازه صارخًا بها: افهمي أني لا أريد سماع ذلك.

_ أصبتهما بعاهة مستديمة كلما نظر أحدهما في المرآة تذكرني، أستطيع قذفك بأي شيء أمامي.

ربما أراد الابتسامة الآن... ربما لم يغضبه ما قالت بل شفى شيئًا بداخله، نظرت للباب بجوارها فقد أصبحت محاصرة في زاوية الحائط ولم يعد أمامها للفرار سواه مهما حاولت إثبات العكس، مد يده ببساطة وأغلق الباب

ناظرًا لها بتحدٍ؛ لتقول وقد التصقت بالحائط لتحتمي به كفأر صغير لم يعد أمامه مفر: لماذا تغلق الباب؟!

رفع ذراعه ليضع كفيه على الحائط حولها مصدرًا صوتًا إثر ارتطام كفيه بالحائط مما جعلها تنتفض؛ فلقد حاصرها بالفعل ولم يعد أمامها مهرب ولا وسيلة للدفاع عن نفسها كما توهمت؛ لتقول أمام تحدي نظراته: أنت لن تستطيع أن تفعل شيئًا أنا أعلم ذلك.

_ واثقة من ذلك؟

_ نعم، لأني.. لأني لا أستطيع أن أفعل أي شيء يؤذيك.

لتكمل وقد انسابت عبراتها وانتهى آخر خطوط دفاعاتها: لن أستطيع فعل شيء لك كما فعلت من قبل لغيرك، لأني أحبك لن أستطيع فعل شيء مهما فعلت بي.

اهتزت قسماته لهذا الاعتراف الذي صدر منها دون وعي، كان يعلم حبها له ولكن وقع الكلمة كان أقوى مما تخيل؛ ليتركها تكمل حديثها غير مبالية بمشاعره: لن أستطيع أن ألتقط أي شيء أحمي نفسي به لأنه ليس لي مكان أحتمي به غيرك، لن أستطيع أن أقاومك، ليس لأنك أقوى، بل لأن قلبي ضعيف بك.

تسارعت أنفاسه، فكيف لها أن تجمع بين الكلام ونقيضه؟! كيف جرأت أن تعبر عن الحبّ هكذا؟! أجبر نفسه على الابتعاد عنها فوجد أنّه حوصر بتفاصيلها أكثر؛ لتكمل بلا كلّ رغم وهن صوتها: ربما تزوجتني اليوم

شهامة، وجدت نفسك مضطر لذلك، لكنّي واثقة أنّك تحبني، لم تخطبني من أبي كما قلت لهم، أنت استجبت لرغبته في إبعادي عنك، لم أكن أنا كما حلمت، ولكن أحببتني كما أحببتك ليس بيدي ولا بيدك.

جلست أرضًا على ركبتيها لم تعد تقوى الوقوف لتردف: لم أتزوجك لأبتعد عن معايرتهم لي بشيء ليس لي ذنب فيه، وافقتك لأكون معك، لم أفكر في غير ذلك ولا ما بعد ذلك.. فقط معك.

وهو أراد شيئًا واحدًا في هذه اللحظة.. أن تصمت فيكفي كلام اليوم، جلس بجوارها أرضًا باعدًا يدها عن وجهها وجذبها إليه لعلّها تهدأ.

ابتعد عنها بعد فترة وقد شعر بضعفها بين يديه وكأنّها فقدت السيطرة على أطرافها، ليقف ويساعدها على الوقوف، أجلسها على الفراش وجلس بجوارها يتأملها كما لم يرَها من قبل... تمسّك رأسها وكأنّ الدنيا تدور بها مخبرًا نفسه بأنّه الأوّل في قلبها والأخير.

لام نفسه أيريد أن ينتهك حزنها على والدها ليبرر لنفسه حقه بها؟

ابتعد قليلًا جاذبًا يدها ليضعها على صدره يريد أن تشعر بدقات قلبه التي تصرخ، ورفع يده الأخرى يمسح بأطراف أصابعه دموعها قائلًا: معك حق أنا لا أستطيع أن أضرك، ولكن يجب أن تعلمي أن ضرب النساء ليس من أخلاقي، ومعكِ حق أيضًا أنكِ لن تستطيعي مقاومتي تأكدت أنا من ذلك.

تأملها كما لم يفعل من قبل، توقع خجلها ولكنّها كانت تتأمله هي الأخرى ربما لأنّهما لأول مرة بهذا القرب، رفع يده يخلع عنها حجابها بسهولة فلم

تكن في حالة تسمح لها بإحكامه، وجذب رابطة شعرها وألقى بها بعدما تساقط شعرها مستجيبًا.

هكذا اكتملت الصورة التي رآها منذ سنوات.

كانت تنظر له وكأنها تحفظ ملامحه، فقال هاربًا من مشاعره: سأحضر حقيبتك من الخارج، الغرفة بها دورة مياه، خذي حمامًا دافئًا وكلي أي شيء لن أتأخر، لا بد أن أذهب لوالدتي.

ربما يحاول إقناعها بذلك وبداخله يريد الهروب، هزت رأسها بالموافقة ولكنّها بدأت تبكي مرة أخرى فقال: رحيق.. سأعود سريعًا.

اقتربت منه على استحياء ووضعت رأسها على صدره، رفع ذراعيه يضمها إليه باستجابة، إحساس غريب يشعر به وكأنها طفلته تطلب منه احتضانها لتشعر بالأمان، كيف لها أن تكون بين ذراعيه بهذه البراءة؟ وكيف له أن يفهمها بهذه السهولة، إحساس بالمسؤولية تجاهها لم يعرف له سبب منذ أول لحظة رآها، أيجعلك الحبّ مسؤولًا رغم أنفك؟! كيف الآن يجب عليه أن يكون أبًا وحبيبًا في نفس الوقت؟

ـ رفع يده يملس على شعرها بحنان قائلًا: لن أذهب... سأتصل بعادل لأطمئن عليها ربما هدأت.

ـ ابتعدت قليلًا لتقول: أعلم أنّها لا تريدني.

ـ لماذا تقولين ذلك؟! فجأة تزوج ابنها الوحيد، أهناك أم تقبل ذلك؟

حركت رأسها بلا، وقف ليجذبها تقف وقال: هيا سأحضر حقيبتك لنأكل وننام فورًا، فأنا لم أستطِع النوم أمس بالسيارة.

_ أنمت في السيارة حقًا؟

_ وهل كذبت عليكِ من قبل؟!

كلّ شيء في حياتها متوقف عليه، معظم حقوقها استغنت عنها من أجل راحته ولم تنتظر مقابلًا، أبسط الحديث يرضيها، وأقل الكلمات تطمئنها، ليس ذنبها أنّه لم يعد في حاجة إليها، يجب أن يظلّ بارًا بها رغم أنّه واثق من مسامحتها؛ فقط لأنّها تمتك قلب الأم.

تواسيها فاطمة محاولة جبر خاطرها والذي لم يجبره سوى وحيدها؛ لتقرر أخيرًا الذهاب للنوم وتركها لعلّها تنام هي الأخرى.

جلست إحسان تنظر لهاتفها تنتظر حديثه تعلم أنّه سيتصل، هو أبدًا لم يكن قاسيًا معها، لا تعلم أنّه بعيدًا في حرب مع نفسه، ولأنّ قلب الأم أضعف مما يتخيل لم تستطع الصبر بمجرد أن ظهر اسمه أمامها حتى وإن كانت تشعر بخيبة الأمل.

_ أمي... تعلمين أنّي لا أريد في الدنيا سوى رضاكِ ولكن قلبي اختار.

_ بخلت عليّ بالفرحة التي كنت أنتظرها.

_ الظروف فرضت ذلك، كيف أتركها بمفردها؟ كيف أفرط في الأمانة؟ سامحيني لتنضبط حياتي، أحتاج دعاءك يا أمي، متعب لا أستطيع التفكير.

_ وهل يطاوعني قلبي أن أغضب عليك؟! ما بيدي سوى الدعاء لك يا بني.

....

إحساس الأمان هو ذلك الإحساس الذي تشعر به بمجرد قرب أحدهم منك، بمجرد وجوده حولك، حتى ولو لم يكن على مرأى بصرك، إحساس أقوى من الحبّ رغم أنّه يقوى بالحبّ، إنّه أكثر ما تبحث عنه المرأة في الرجل.. فقط الأمان ثمّ الحبّ.

عاد بحقيبتها بعدما حدث والدته قائلًا: سآخذ حمامي أنا الآخر في الغرفة المجاورة وبعدها نأكل سويًا.

غادر الغرفة تاركًا لها مساحة من الحرية، وبعد فترة ليست بالقصيرة رجع حاملًا صينية الطعام، ولكنّه وجدها وقد غلبها النوم على الأريكة.

وضع ما بيديه على الطاولة، واتجه إليها محاولًا إيقاظها: رحيق.. أنتِ لم تأكلي شيئًا اليوم.

كانت في سباتٍ عميقٍ؛ فحملها برفق ليمددها على الفراش، أخذ إحدى الوسائد ورمى بها أرضًا مقررًا النوم على الأرض بجوار فراشها فهو في حاجة لأن يفرد جسده أيًا كان السطح الذي سينام عليه؛ فإرهاقه مؤكد سيمنعه من الشعور بصلابة الأرض، ونام فورًا فلم يعد هناك ما يشغل تفكيره، فيكفي أنّها معه في نفس المكان.

استيقظ بعد فترة على صوت نشيجها ليجدها جالسة على الأرض بجواره تستند على الفراش تضم قدميها إلى صدرها تحتضن نفسها وهي ترتجف.

اقترب منها مفزوعًا يجذبها إليه قائلًا: رحيق ماذا حدث؟

_ أبي.. أبي كان هنا.. أنا رأيته.

_ احتضنها قائلًا: اهدئي حبيبتي.. مؤكد حلم.

_ لقد رأيته هنا في هذه الغرفة، شعرت به يميل على رأسي يقبلني وأنا نائمة كما كان يفعل دائمًا، ابتسم لي ورحل عندما استيقظت.

_ اهدئي حبيبتي لا تخافي.. أنا معك.

_ لست خائفة، أنا أردت أن يبقى، ذهب بسرعة ولم ينتظر لأُودعه.

جذبها لتقف وقد تشبثت به كالأطفال، ليجعلها تنام وجلس بجوارها قائلًا: سأظل بجوارك، لا تخافي.

مرر يده على رأسها برفق ليقول محاولًا شغل تفكيرها بشيء آخر: أتعلمين يا رحيق، أنا أعرفك قبل أن أراكِ على الطريق.

هدأ بكاؤها، فابتسم وظلّ يداعب خصلات شعرها وقد سند برأسه على ظهر الفراش لا يقوى على الجلوس، ونظر أمامه متذكرًا حلمه بها منذ سنوات: رأيت صورتك في مكتب عم محسن، جنية ظهرت لي تأسرني، ومنذ ذلك الوقت وأنا أحلم بكِ، أراكِ كلما ذهبت لمكان وكأنك تطاردينني لأكتشف بعدها أني أتوهم، أراكِ تمرين من أمام سيارتي أو تجلسين بجانب الطريق وكأنك تنتظرين مروري، إلى أن رأيتك تسبقينني لمنزلي وظننت أني أتوهم، تطيرين كجنية الأساطير التي رسمتيها على ورقة في غرفتك ورأيتها أنا يوم عثر عليّ والدك اتسكع في الطرقات وأخذني للمبيت في منزله، فكانت

غرفتك.. ورسمتك يا رحيق، فتاة بحجم الفراشة لها أجنحة تقف على زهرة حولها تراب ذهبي تنظر لبعيد تراه يمد لها يده، وكأنّ صورتك ألقت عليّ تعويذة لتأسرني.

ولم يشعر بنفسه بعدها إلّا وهاتفه يرن معلنًا عن اتصال وقد أشرقت الشمس وأثبتت وجودها منذ وقت طويل.

....

في منزل المزرعة، استعد الزوجان للرحيل بعدما أصرّ الجد على ذهابهما، فهناك مَن هو بحاجة إليهما أكثر منه، قالت مليكة وهي تحتضنه: لم أشبع منك بعد يا جدي.

أبعدها فارس جانبًا ومال مقبلًا كتف جده قائلًا: طوال عمري أندهش من هذا الدلع الذي لا يظهر إلّا لك، ألا تخبرني السر وقد زوجتها لي غصبًا؟

شدّد نجيب من احتضانها وقال: لم أغصبك على شيء يا ولد، لا تلعب معي هذه اللعبة، لو كنت صممت على عدم الزواج ما كنت زوجتكما أبدًا، ولعلمك لم أكن لأحرم أحدًا من الميراث كان تهديدًا فقط، ليس من أجل أحد ولكن من أجل حقوق الله التي قسمها، هل آتي أنا يا عبد لأعدل عليه؟!

ابتعدت مليكة خطوة تنظر لجدها بإعجاب أمام صدمة فارس، وتصفق قائلة: أنت مدهش يا جدي.

ـ قال فارس بصدمة: كلّ هذا ولم يكن هناك توزيع ميراث ولا حرمان أحد، أتلعب بي أنت الآخر؟

ـ لم ألعب بأحد سأقسّم كلّ شيء ولكن تبعًا لحدود الله، كانت لي وجهة نظر صائبة وحققتها والحمد لله.

قال فارس الذي ضرب كفًا على كف غير مصدق دهاء جده:

ـ وما هي وجهة النظر هذه لعلّي أستفيد شيئًا.

جذب الجد حفيدته تحت ذراعه ليستند على فارس باليد الأخرى قائلًا: إنّ فرسي الأصيلة لا يصلح لها إلّا فارس جريء.

توقفت مليكة عن الضحك أمام تشبيه جدها، ليقول فارس بابتسامة مشاغبة: في هذا معك حق.

ـ لينظر لها بتلاعب ويكمل قائلًا: أخبرتها سابقًا أنّها فرسٌ ولم تصدّقني.

ـ لتقول بتحدٍ: وقتها أخبرته أنّه وقح ولم يصدقني.

ـ قال نجيب وما زال يقف بينهما: الآن اذهبي يا مليكة لتجهزي نفسك واتركينا قليلًا.

ابتسمت مليكة بتفهمٍ وغادرت للحديقة لتودع أرجوحتها قبل الذهاب، جلس الجد ليشير لفارس الذي تجمّدت ملامحه: لن أحاسبك على شيء فعلته لا تخف.

ـ ابتلع فارس ريقه قائلًا: هل أخبرتك شيئًا؟

ـ ضحك نجيب بشدة قائلًا: هي أذكى من ذلك فلم أستطع الإيقاع بها.

ـ ليقول وهو يتنفس الصعداء: لا تتلاعب بي يا جدي لا داعي لذلك.

_ أنا لا أريد التلاعب بك ليست أغلى منك عندي، قدركما واحد كلّ ما يفرق أنّها فتاة وأنت رجل، لم أكن لأطلب الحديث معك بمفردنا الآن إلّا لحبي لك، تحدثت معها واطمأن قلبي عليها، ولكن منذ قليل قلت ما لم أقبل به أبدًا.

ـ نظر له فارس باستفهام ليكمل نجيب: قلت إني زوّجتها لك غصبًا والآن وبعيدًا عن ابنة عمك أخبرني صدقًا هل أنت تزوجتها دون إرادتك؟ هل ما يصدر منك تجاهها من وراء قلبك؟ هل جئت على أحدكما من أجل الآخر؟

_ ربما صدقت يا جدي في كلّ ما قلته إلّا شيئًا واحدًا، ربما شعرت أني أفعل شيئًا دون إرادتي، الزواج بهذه الطريقة وبهذه السرعة لم يكن مناسبًا لكلينا، ولكن لا يوجد شيء وراء قلبي، أنا أحببتها مرتين، ولو رأيتها بمئة وجه سأحبها كلّ مرة.

_ أخشى أن تكون الشفقة هي التي تتحكم بك الآن، لا أريد أن أنهي حياتي بذنب في حقك يا ولدي.

_ شفقة! كلّ ما أعرفه أنّي كلما رأيت ما بها وأتخيل ما حدث لها أشعر وكأنّ النار تحرقني أنا، صدقني ولو لم أكن تزوجتها، لو أملك أن أمحو الألم الذي مرت به وآخذه أنا.. لو أملك أن تعود كما كانت ببهجتها وطفولتها وأحترق أنا لفعلت، تهون الدنيا ويهون كلّ شيء ولا تهون مليكة يا جدي.

رد نجيب متأثرًا بما قاله حفيده: اذهب وتأكد أنّي فخور بأحفادي وراضٍ عنكم جميعًا يا ولدي.

....

التفت لهاتفه الملقى بجوار الفراش بإهمال، ليجد أنّه لا يستطيع تحريك رقبته فقد نام بوضعية غير مريحة، حاول الجلوس معتدلًا بهدوء حتى لا تستيقظ ليرد على الهاتف الذي قارب على اليأس من أن يجد مجيبًا، وقال بنعاس: عادل.

_ صباح الخير يا خالد.. عذرًا وددت إخبارك أني بالمصنع.

_ جيد ما فعلت، لم يحدث من قبل أنْ تركَ المصنع بدوني أنا وعم محسن.

_ الأمور تسير على ما يرام، كيف حالك؟ وكيف هي الآن؟

_ في حالة غريبة، أحيانًا أجدها تستوعب ما حدث وفجأة أشعر وكأنها في عالم آخر.

_ طبيعي ما تمر به لم يمضِ يومان.

_ معك حق.

_ علمت أنّ فارس ومليكة في طريقهما لمنزل العائلة، حدثني فارس باكرًا وأخبرته موقف والدتك وما حدث، أعتقد أنّ مليكة تستطيع التأثير عليها.

_ أتمنى ذلك.

....

أوقف فارس السيارة أمام حديقة المنزل، فقالت: لابد أن أتدخل لحلّ تلك المشكلة.

_ بماذا تفكرين؟

_ أُفكر بالمواجهة.

_ قال بريبة: وما هي تلك المواجهة ومع مَن؟

_ مع الجميع.

_ هل كنتِ تعلمين شيئًا عن رحيق؟

_ قالت بثقة: أكثر مما تعلم يا عزيزي.

_ متأكد من ذلك فأنتما صندوق أسود لبعضكما، ولكن لي سؤال حتى لا أبدو كالمغفل، أعلم أنّه يحبها ولكن متى؟ وكيف؟ يوم جاءت إلى هنا كان يبدو كالمتيم منذ زمن.

_ قالت بتعجب: وكيف أُجيب أنا على كيف أحبَّها؟! هل تستطيع أنت الإجابة على نفس السؤال؟ ولكن متى فإجابته عندي، منذ زمن يا فارس وهو يحلم برؤية فتاة لم يرَ سوى صورتها.

دق جرس المنزل ليعلن وصولهما، فتحت أم مسعد الباب مرحبة ومباركة مجيئهما، أسرعت فاطمة محتضنة ابنها بسعادة ومن بعده عروسه قائلة: مفاجأة جميلة كنت أحتاج لها.

_ جذبتهما متجهة بهما لمكان الجلوس قائلة: ألم تنويا قضاء وقتٍ طويلٍ في المزرعة؟

_ الجميع هنا يحتاجنا يا أمي.. أم أنكِ لا ترغبين في رؤيتنا؟

_ لا أريد أن يعكّر شيء إجازتكما.

_ لتنظر لوجه ابنها ومن بعده مليكة بشك قائلة: هل هناك مشكلة؟

فكرت مليكة لحظات بخبث؛ فبالطبع تعلم شك زوجة عمها في أمرهما كما علمت من جدها، فقررت استغلال ذلك وقالت بتأثر:

_ الحياة عادية يا عمتي وأردنا أن نكون بجوار خالد وزوجته.

_ قالت فاطمة بحسرة: أيرضيكِ أن يتزوج دون علمنا ومن واحدة سمعتها..

_ قال فارس بصدمة: أمي ما هذا الحديث؟

_ استاءت مليكة وقالت بسخرية: أن يتزوج دون علم أمه أفضل بكثير مَن أن يتزوج دون إرادته.

_ رفع فارس حاجبيه بدهشة؛ فقالت فاطمة بتوتر: ماذا تقصدين؟

_ أكملت مدعية الأسى: هناك أمور تجبرنا على الاستمرار فيها دون إرادتنا، دائمًا هناك مَن يضحي من أجل غيره.

وقفت بتأثر وقد عجزت فاطمة عن الرد لتسير متجهة للسلم قائلة:

_ سأصعد لأمي.

وأمام ارتباك فاطمة وحزنها مما تقصده الفتاة، نظر فارس لزوجته يحاول إخفاء ابتسامته وقد رمت عليه ابتسامة أربكته قبل أن تصعد السلم برشاقة، وكأنّها في سباق مع أحدهم، تضرب الدرج بقسوة فتصرخ مهللة تحت قدميها، وأمام نظراته التي حاول إخفاءَها حتّى لا ينكشف أمرهما

تنهد قائلًا لأمه التي زادها حديث مليكة همها: من أين عرفتِ هذا الحديث عن الفتاة؟

ـ قالت بارتباك: أم مسعد.. جارتهم في الحيّ منذ زمن.

ـ قال فارس باستياء: أليس عم محسن مَن أحضرها لتعمل هنا بعد وفاة زوجها لتكفل عائلتها؟

ـ نعم يا بني.

ـ وهل هذا جزاء إحسانه إليها؟ تخوض في عرض ابنته!

ـ أخبرتني منذ مدة يا بني، لم تكن تقصد شيئًا كانت مجرد حكاية.

وقف فارس فجأة مناديًا على أم مسعد مما جعل فاطمة تقول بترجٍ:

ـ المرأة معنا منذ زمن يا ولدي لا يصح..

وصلت أم مسعد أمامه مدركة أنّ هناك خطبًا ما، فلم يغب عن مسامعها زواج خالد من ابنة محسن، قال فارس موجهًا لها الحديث:

ـ أخبرتِ أمي من قبل عما يقال عن رحيق، أليس كذلك؟

ـ ارتبكت المرأة قائلة: لم أقصد شيئًا...

ـ قاطعها قائلًا: أنا أريد منكِ الصدق، فقط أخبريني ما يمليه عليك ضميرك، لا أريد أكثر من ذلك.

أمسكت بأطراف أصابعها ذقنها تبحث عن حل لورطتها، فقال:

ـ مِن أين لكِ بما يقال عن رحيق؟

_ يعلم الله أني لم أرَ عليها شيئًا، منذ صغرها وهي في حالها، ليس لها في المشاكل ولا كثرة الحديث ولكن..

_ قال فارس بعد سكوتها: أكملي.

_ تركها عريسها قبل الزفاف بثلاثة أيام، وقف وسط الحيّ مهددًا بفضحها لو لم يأخذ شبكته وكلّ ما أنفقه من أجل الزواج، ولم يغب عن أحد ما كان يريد قوله.

_ أي أنه رجل خسيس.

نظر لأمه الجالسة يكسو وجهها الخجل، وقال: إنسان خسيس لا يعرف للرجولة معنى، لو كان عنده القليل من الأخلاق ما كان اختلق فضيحة من أجل المال، ألم يأمرنا الله بالستر؟ لماذا لم يبتعد بهدوء؟! أكملي يا أم مسعد.

_ اشتدّ المرض على والدتها وبعد شهور خطبت لابن عمها المقيم بالخليج ليسافر بعد الخطبة مرة أخرى ويعود بعد أن أنهت دراستها.

_ قاطعها قائلًا بتهكم: كل ذلك حدث وهي ما زالت تدرس!

_ أقام والدها زفافها في الحيّ، ولكن عادت بعد ساعات في نفس اليوم مع والدها بفستان زفافها ووجهها متورم و...

_ عادت بفستان زفافها يا أم مسعد فماذا تتوقعين مثلًا أنه حدث؟!

_ صمتت المرأة، فجلس أمام والدته قائلًا: ألا يمكن أن يكون هناك سبب آخر؟

لم تحاول الرد فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا على مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ).

ـ قالت فاطمة: معك حق ولكن هذا لا يمنع أنه غدر بأمه و..

ـ قاطعها قائلًا: فكري جيدًا يا أمي أعلم أنّ لكِ تأثيرًا على عمتي إحسان ولا أريد أن تحملي وزرًا كهذا.

....

بالأعلى لم يختلف الأمر كثيرًا فقد استقبلت إحسان ابنتها بالبكاء قائلة:

ـ ابني الوحيد تزوج دون علمي.

ـ وهل كان يتركها بمفردها حتى يقنعك؟ هل لو أخبركِ حينها لكان اختلف الأمر ووقفتِ معه!

ـ نظرت إحسان لها بصدمة قائلة: أتوافقين أن يتزوج بمَن تزوجت قبله! أهذا ما يستحقه أخوكِ الذي دائمًا ما كنتِ تصفيه بأنّه أحن مَن في العائلة وأطيبهم.

ـ قالت مليكة لائمة والدتها: ولأنّه أحنّ وأطيب رجل في الدنيا تصرف برجولة.

ـ ليست الرجولة أن يتورط.

ـ مَن قال أنّه تورط؟ يحبّها وأخبركِ ذلك من قبل، ماذا يعيبها لكي ترفضيها؟ أمر زواجها السابق لا يخص أحدًا سواه... كادت تقاطعها، فأكملت مليكة قائلة: أنلومها يا أمي على سوء حظها؟ أترضين أن تُترك بمفردها؟ تعيش بلا

أم ولا أب ولا عائلة، أنتِ التي كنتِ لي خير أم! لتنام على كتفها وتكمل: لم أشعر لحظة أني لست ابنتك، دائمًا تتحدثين عن خالد قائلةً: أخاكِ، لتتناقل الكلمة على ألسن الجميع، لم تفرقي يومًا بيننا، لم أفكر لحظة أنّي بلا أُمّ، لا أتخيل أبدًا أنّ هذا القلب يمكن أن يقسو.

_ كنت أتمنى له الأفضل، كنت أحلم بيوم زفافه كيوم زفافك.

اعتدلت مليكة وابتسمت بسخرية قائلة: لم يكن أسعد يوم في حياتي يا أمي ولا أتمنى له أن يتزوج متورطًا رغمًا عنه كما حدث لفارس.

_ ما هذا الكلام؟ أتتخيلين أنّي لم ألاحظ نظراتك لابن عمك؟ أتظنين أني كنت سأوافق أن تتزوجي مَن لا يميل له قلبك؟

_ قالت وقد بدأت تخونها الدموع: كلانا أُجبر على الزواج، أكمل زواجه يا أمي بشهامة كما فعل خالد، ويستمر معي الآن لنفس السبب.

_ قالت إحسان معترضة: كيف تقولين ذلك؟ ماذا فعل ليكسركِ هكذا؟

_ قالت بألمٍ فهي تحتاج للحديث حتى ولو كان لها هدف آخر: تورط بالزواج مني يا أمي، مشوّهة أنا لم يقبل بي سوى ابن عمي، ما زال أمامي مشوار للعلاج ولا أعلم هل سينجح أم لا، جميعهم يعلمون ذلك.

_ ضمتها إحسان قائلة: ما هذا الذي تقولينه يا حبة القلب أيوجد مَن هي أجمل منكِ؟ أهناك مَن تنافسكِ مالًا وجمالًا وحسبًا؟!

ـ ابتعدت قائلة: لا يوجد مَن هو كامل، فالكمال لله، الحقيقة التي أخفاها خالد عنكِ أنّه لم يكن حادثًا بسيطًا وكسرًا بالأنف والكتف فقط، لقد شوهتني النار وما زال ظهري مشوهًا لا يطيق أحد النظر إليه.

هزت إحسان رأسها بالرفض تجذبها محاولة رفع بلوزتها عن ظهرها، قائلة:

ـ أنتِ تكذبين، أريني ظهرك، تقولين ذلك لأرضى على زواجه منها..

ـ أبعدت يدها قائلة: أخشى عليكِ من رؤيته، لا أريد أن تتأذى عيناك.

انهارت إحسان باكية مما أشعرها بالذنب، لتمسح دموع أمها قائلة: أكرمني الله برجل أحبني ورضِي بي هكذا، أتتخيلين ماذا ستفعل عمتي فاطمة لو علمت بحالتي؟ أيمكن أن يكون موقفها مثلك الآن وترفض زواج ابنها من مشوهة؟ على الأقل وضع رحيق أفضل، سيصبح أمر زواجها ماضيًا لا يتذكره أحد أما أنا سأظل أمام عيني زوجي مشوهة.

ـ وقفت بعدها تقبل رأس إحسان قائلة: آسفة.. حقًا آسفة، لم أكن أريد أن تعرفي شيئًا، ولكن كان يجب أن أضع نفسي مكانها؛ لترين الحقيقة وتحكمين قلبك وعقلك.

مالت مقبلة رأسها مرة أخرى، وغادرت محاولة لملمة نفسها بعد أن أخرجت ما بداخلها بحجة إقناعها، لتظهر أمامه تنطلق على درجات السلم كما صعدته، وقف فور رؤيتها وكان قد أنهى حديثه منذ فترة وفضّل الصمت، التقط يدها مسرعًا عندما شعر بحالتها التي تبدلت ليغادرا فورًا.

وبمجرد ركوبهما السيارة نظر لعينيها التي عثر بها على بقايا دموع تحاول الهروب، وقال: ماذا فعلتِ؟

_ ابتسمت قائلة: ألا تثق في قدراتي على الإقناع؟

_ تأمل حالتها قائلًا: ماذا فعلتِ؟

_ قالت بابتسامة غير ملائمة لمظهر الدموع بعينيها: أقنعتها بالطريقة الوحيدة الممكنة بعدما درست الموقف من جميع النواحي.

_ درستِ ماذا؟ أهو عرض إعلان تقنعين به العميل؟!

_ حقًا سهل بالنسبة لي أن أُقنع العميل، وخاصةً عندما أعرف خباياه وتاريخه جيدًا.

ابتسم متذكرًا كيف أقنعته هو وعادل بالإعلان وقال:

_ أفهم من ذلك أنّ الأمر كان سهلًا عليكِ يومها لمعرفتكِ بنا؟

_ بالطبع.

_ ما الخبايا التي استخدمتها لتقنعي والدتك؟ لم تحاول الرد، فقال: لماذا وضعتِ نفسك في مقارنة؟

_ من أجل خالد، ألا يكفي ذلك؟ ومن أجل نفسي، صدقني كنت أحتاج أن أُخبرها، أحتاج أن تشعر بي أمي، أليس حقي؟

_ بعد كلّ ذلك؟

_ أجل، حتى أُخبرها بنفسي وهي تراني أمام عينيها.

بعد فترة...

استقبلهما هاشم بترحاب وسعادة، وما إن جلس الجميع حتى دخل عادل مرحبًا بأخيه وعروسه، بدأ فارس بإخبارهما كيف واجه أم مسعد والنتيجة التي توصل إليها مع والدته، فقال هاشم: خيرًا ما فعلت، هكذا قطعت الشك باليقين، للأسف دائمًا تبدأ القصة بسيطة وتتفاقم مع كثرة الناقلين لها، هذا يضيف وهذا ينقص لتصل إلى ما وصلنا إليه.

ـ ونظر لمليكة قائلًا: وأنتِ مهمتكِ كانت أصعب.

ـ لم تكن صعبة أبدًا يا عمي لقد انتهت بكل بساطة.

ـ نظر لها الجميع بتساؤل لتكمل مبتسمة: ألا تعتقد هي أنّك فضلت ابنك بزواجه مني؟ أثبت لها أنّي لم أكن الأفضل ربما ما فعلته مع ابنك أسوأ بكثير.

ـ قال عمها باندهاش: لماذا تقولين ذلك؟!

ـ لأنّها الحقيقة، لماذا يتظاهر الجميع بعدم المعرفة؟ جميعكم يعلم حالتي الصحية، إصرار جدي على زواجي من ابن عمي لأنّه واثق أنّه لن يرضى بي سواه.

ـ نظرت لعادل قائلة: حتى أنت مؤكد خالد أخبرك، الوحيد الذي لم يكن يعلم هو فارس، والذي تعتقد أمي أنّه فاز بالجائزة الكبرى.

لتنظر لزوجها وتكمل وما زال هو على صمته، وكأنّ لا يعنيه حديثها: أنا لست بهذه الأنانية لأستغل شهامة ابن عمي، رغم ما حاكه الجميع لإجباره على هذا الوضع.

نظر عادل لأخيه يحثه على الرد، ولكنّه ظلّ صامتًا ينظر لها بثبات لتكمل هي بنفس الابتسامة: إن لم ينجح ما تبقى من عمليات لن أستطيع الاستمرار في هذا الزواج، سأعود كما جئت وستكون كلّ مشاكل العائلة قد حلت، سيعود أبي قريبًا ولا تقلقوا عليّ فجميعكم رأيتم كيف أنا ناجحة في عملي.

نظر هاشم لابنه بأسف فلم ينطق هذا الأخير بكلمة ولم يكن لأحد حق الرد غيره، فوقف هاشم متجهًا ليقف قبالتها قائلًا: طوال عمري أعلم أنكِ لن تكوني كأي فتاة دائمًا كنتِ مميزة.

ضمها مقبلًا رأسها وقال: سأعتبر نفسي لم أسمع شيئًا ولن أتدخل بينكما.

جذبها فارس من يدها محافظًا على هدوئه، وخرجا أمام المصعد، أخرجت الهاتف من حقيبتها لتتصل بخالد وتخبره بصعودهما له، دخلا المصعد ووقف أمامها كما فعل في أول لقاء لهما، لتبتسم قائلة: واضح أني فهمتك خطأ حينها.

_ وما الذي فهمتِه الآن؟

_ أجابت مبتسمة: الآن أنا زوجتك مؤكد هذه النظرات لها معنى آخر.

_ ليجيبها وهو يجذبها خارج المصعد قائلًا: سأتركِكِ تعرفينها بمفردك.

نظرت حولها بحيرة فهناك أربعة أبواب، ابتسم قائلًا: دائمًا تحتاجين أن أدلك على الطريق.

أخرج مفاتيحه ليتجه لأحد الأبواب فقالت باندهاش: إنهما بالداخل لا يصح ذلك.

فتح الباب وجذبها معه وأغلقه خلفهما، لتتفاجأ بشقة فارغة من كلّ شيء فقالت مبتسمة: ماذا يعني ذلك؟

ـ أمسك كفيها ضامًّا لهما بين راحتيه وقال: ماذا يعني ما قلتِه بالأسفل؟

ـ لتجيب بتوتر وقد تخيلت أنه لن يتحدث في ذلك: ألم توافق على حديثي؟ أليس السكوت علامة الرضا..

ـ السكوت علامة الرضا في الزواج وليس الطلاق، كيف استطعتِ أن تقولي هذا الكلام؟! لم أتحدث لأني لا أريد الخوض في شيء يخصنا أمام أحد حتى ولو كان أقرب الناس، لا أحد له الحق في الحديث في تفاصيل حياتنا أفهمتِ؟

ـ أردت أن أرفع عنك الحرج أمامهما وأمام نفسك، على الجميع أن يعلم كيف أذنبوا في حقك.

ـ زاد ضغط يده على كفيها قائلًا: لم يذنب أحد في حقي إلّا أنتِ عندما أخفيتِ عني ما حدث لكِ، والآن يجب أن تعلمي جيدًا أنّه لم يعد لكِ الحق في تحديد مصيرك يكفي ما فعلت.

ـ لتقول بتوتر: ماذا تقصد؟

_ لم تعودي مِلك نفسك يا مليكتي، أنا فقط مَن أقرر وأُخطط وأُنفذ.

_ قالت بشك: وعدتني أن أُجري الجراحة أليس كذلك؟

_ نعم وعدتك، ولكن لو رأيت أنها لن تفيد أو خطر عليكِ سألغي وعدي، وعندما تفكرين مرة أخرى بهذا العقل الجبار اعلمي أني أول شيء سأفعله غدًا التبليغ عن منعك من السفر يا زوجتي العزيزة، واضح أنكِ تخيلتِ أنه لا يوجد عقاب على أفعالك المتهورة، لا يا مليكتي فعقابي لم ينتهِ بعد.

_ مجرد وجودك في حياتي يجعل أقصى ما تفعله معي رحمة وليس عقابًا.

_ وأين سأذهب مع لسانك الذي يجيد اللعب بالكلمات؟

ونظر حوله قائلًا: ما رأيك؟

_ في ماذا؟!

_ سأخبر والدي اليوم أنّي أريد العيش هنا، كنت أنوي أن أحتل الشقة الأخرى ولكن سبقني خالد.

_ ابتسمت بسعادة قائلة: هل وافق عمي بهذه السهولة؟

_ سيقتنع أنّ البعد عن تحكم والدتك ووالدتي هو الحل الأمثل، ما رأيك أسبوع فقط وستكون جاهزة.

_ أسبوع!

_ ألم تخبركِ مندوبة الإعلان لشركتنا أنّنا شركة متكاملة! فقط على العروس اختيار كلّ ما تريد من معارضنا وتترك لنا الباقي، هيّا لقد تأخرنا هل سنقول له الطريق كان مزدحمًا؟

_ ضحكت قائلة: لا سأخبره أنّ ابن عمه خطفني.

....

عندما تريد أن يمضي الوقت يعاندك، تتحول دقات الساعة لمطارق تدق رأسك مع كلّ خطوة يخطوها عقرب الدقائق، جلس يمسك رأسه لا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل إلى أن قرر إعداد بعض الشطائر، فعليه أن يأكل فلم يعد يستطيع التركيز دون نوم أو طعام.

أعد الفطور بالإضافة لفنجان قهوته ربما تنتصر على هذه المطارق، جلس يتأملها يعلم أنّها بحاجة لهذا النوم، ولكن يجب أن تأكل، داعب خصلات شعرها قائلًا: رحيق.. ألا يكفي كل هذا النوم؟

فتحت عينيها ببطء فقال مبتسمًا وقد شعر بتبدل حاله بمجرد أن أشرقت عليه بعينيها: ألا تشعرين بالجوع؟ سأموت جوعًا بسببك.

_ اعتدلت بسرعة قائلة بخوف: لا.. لا تقل ذلك مرة أخرى.

صمت لحظات، ليعي أنّه يجب عليه لفترة اختيار كلماته، فتجاهل تصرفها قائلًا: هيا نأكل.

تحركت معه متجهة إلى الأريكة الوحيدة الموجودة في الغرفة لتجلس عليها، ابتسم وجلس أرضًا ببساطة فقالت بحرج: آسفة احتللت فراشك ومقعدك.

_ قال مشاكسًا: أنتِ احتللتني أنا شخصيًا يا جنيّتي.

أظهرت الاهتمام بالطعام، وأخذ يرتشف قهوته بتركيز فقالت: دائمًا تنسيك قهوتك مَن حولك.

انتبهَ أنّه انفصل عنها للحظات فقال: وربما أُخبرها أسراري وما أتمنى.

_ قالت بخجل: تخبرها الكثير إذًا.

وضع فنجانه على الطاولة ليقف ويجلس بجوارها كما تمنى منذ لحظات، ولكن فضّل عدم التهور حتّى تكمل طعامها، أجفلت مما فعل لم يكن المقعد بالضيق، ولكنّه ليس بهذا الاتساع، رفع ذراعه ليحاوط كتفها قائلًا:

_ هذا ما كنت أُخبره لقهوتي.

_ ليكمل وكأنّه لم يفعل شيئًا: أتعرفين ندمت بالأمس أنّي لم أُحضر أريكة أكبر من هذه لأستطيع النوم عليها، ولكن الآن أرى أنّها مناسبة للغاية.

رن هاتفه فتحرك بتكاسل فكانت مليكة تعلنه الوصول، أغلق الهاتف واتجه لرحيق قائلًا: مليكة وفارس بالخارج لو لا تودين الخروج...

_ قاطعته قائلة: مؤكد لا يصح، سأُبدل ثيابي وأخرج لا عليك أنا بخير.

قبل جبهتها وكأنّه أمرٌ عاديٌّ وانصرف، وقفت ثوانيَ مرتبكة من تصرفاته، لتقرر أن تبدل ثيابها بسرعة وتفكر في هذا الأمر فيما بعد.

أما هو وبمجرد أن فتح الباب وجدهما يستندان على الحائط فقال: لم أعتقد أن وجودكما سويًا سيجعلكما تشعران بالملل بهذه السرعة.

أجابه فارس الذي احتضنه قائلًا: ربما لو أخبرتنا أننا سننتظر كثيرًا لكنا ظللنا في الشقة الفارغة مدة أطول.

ـ نظرت له بعتاب لتحتضن أخاها قائلة: حبيبي كيف حالك؟ تبدو مجهدًا.

ـ أبعدها فارس قائلًا: ترينه مجهدًا وتتعلقين برقبته كالبرغوث! ابتعدي عنه ولا تكرريها أمامي.

ـ أشار لهما خالد بالدخول قائلًا: لا فائدة هل ما زلت تغار كما حدث لمجرد سلامي عليها من قبل!

ـ مرّر فارس أصابعه على شعره بحرج فقالت مندهشة: متى حدث ذلك؟!

ـ جلس خالد لتجلس بجواره وقال: عندما سلمتِ عليّ يوم الاجتماع غادر مسرعًا يشتاط غيظًا.

ـ قال فارس معترضًا: لماذا تركز معي هكذا؟!

ـ ضحكت مليكة قائلة: أخيرًا عرفت سبب انصرافه.

ـ نظرت لخالد الذي أمسك برقبته، فتعلقها به زاد ألمه وقالت: ماذا بك؟ وأين رحيق؟

ـ ستأتي الآن، لقد غلبني النوم أمس وأنا جالس، استيقظت ورقبتي تؤلمني بشدة.

ـ وضعت يدها على رقبته قائلة: لماذا لم تخبرني بالهاتف لأُحضر لك مسكنًا؟

وقبل أن يجيب ظهرت رحيق مرتبكة وكادت تنصرف دون أي كلمة، فتحركت مليكة فورًا تحتضنها بود قائلة: البقاء لله حبيبتي... آسفة لم أستطع الحضور قبل ذلك.

حركت رحيق رأسها لا تحاول النظر في وجهها، ليأتيها صوت فارس قائلًا:

_ البقاء لله، كان خير الناس.

حاولت منع دموعها أمامهم، وقالت بحرج: بعد إذنكم.

كادت تنصرف أمام دهشتهم فتحرك خالد ليوقفها قائلًا: رحيق ماذا حدث؟!

حركت رأسها بلا شيء فقال: إذًا اجلسي معنا.

_ ليس لي مكان بينكم.

أبعدته مليكة جاذبة ذراعه لتتحدث معه بهمس وهي تبتسم، فلقد لاحظت نظرة رحيق ليدها لتُأكد شكها فنظرت له معاتبة، وقف بينهما لا يفهم ماذا يحدث قائلًا: لماذا هذه النظرات أنتِ الأخرى؟

_ قالت مليكة بعتاب: ألم تخبرها أني أختك؟

نظر لها بعدم فهم وقد رفعت رحيق حاجبيها بصدمة تداركتها لتنقلب خجلًا من نفسها، فقالت مليكة لخالد هامسة: غارت مني.

_ قال فارس بسخرية: وها أنا قد أصبحت دون فائدة في نظرها لترتاحا أنتما الاثنان، أصبحت...

تحركت مليكة بسرعة تضع يدها على فم فارس حتى لا يكمل، فابتسم ولم يحاول المقاومة، وأمام خجل رحيق من كلامه ضحكت مليكة قائلة: أنا

أخته بالرضاعة، تربيت ببيت عمي منذ وفاة والدتي وعمري شهر وخالد أكبر مني ببضعة شهور، حتى بالمدرسة كنا معًا في نفس الصف ولم أتركه إلّا عندما سافرت، أي أنّه ابن عمي وأخي وتوءمي ألا يكفي ذلك؟ محظوظة أنا بأولاد عمي واحد أخي والآخر زوجي.

ابتسم خالد وفارس وتبادلا النظرات، فقد بدأت مليكة بالعودة لطبيعتها، تشعر دائمًا أنّها الملكة بينهم، قال فارس متداركًا خجلها: ما رأيك أن تظل مليكة مع رحيق ونذهب نحن لأبي؟

ـ نظر خالد إليها قائلًا: لن أتأخر.. مليكة أليفة لا تخافي منها.

ـ وقال فارس: عليكِ أن تعلمِي أن معكِ كاتم أسرار زوجك هذه نصيحة من زميل.

ـ ابتسمت رحيق قائلة: لي الشرف أن تظل معي لا تقل عنها هكذا.

ارتاح خالد لتقبلها الأمر بسهولة، فكان يخشى أن يتكرر ما حدث بالأمس، غادرَ الاثنان وظلت مليكة مع رحيق لتبدأ مليكة بجرأتها المعتادة جاذبة رحيق من يدها باتجاه الغرف وقالت: هكذا نستطيع التحدث، أعلم أن لكل منهم غرفة هنا، أين غرفة خالد؟

أشارت لها رحيق باتجاه الغرفة التي باتت بها لتقول مليكة: إذًا نستبعد هذه الغرفة الآن.

فتحت أول غرفة ودخلت تنظر حولها قائلة: مؤكد هذه غرفة عمي مستحيل أن تكون لشاب.

وتعود وتخرج منها لتفتح الأخرى وقبل أن تدخلها قالت: والتي أمامها مئة بالمئة لعادل.

لتصفق لنفسها بمجرد دخولها وقد بدأت الابتسامة تظهر على وجه رحيق.

_ عادل دائمًا منظم ومرتب.. ودائمًا هناك كتب بجوار الفراش.

لتدخل الثالثة بمرح قائلة: وهذه غرفة فارس لا يضع شيئًا في مكانه، وهذا يتدرب عليه.

وقفت تضرب كيس الملاكمة الخاص به بمهارة وقالت: سيتفاجأ فارس لو علم أني أفعل ذلك.

وبدأت العبث بكلّ أركان الغرفة تفتح الأدراج وتقلب بين الملابس والأوراق، لتنتبه لرحيق التي ظلت تشاهدها باستمتاع فاتجهت لها تعتذر قائلة: آسفة.. لم يكن يتركني أفعل أي شيء في غرفته دائمًا يبعدني عن أشيائه ولا يجعلني أقترب منها، صراحة أفتقد كل شيء في هذه العائلة أشعر أني بحاجة لتعويض سنوات سفري.

ولم تنتظر حتى ترد رحيق لتجذبها من يدها للخارج قائلة: هيا لنجلس في آخر غرفة.

دخلتا الغرفة لتنظر حولها قائلة: كيف نمتما؟

نظرت رحيق لها بخجل، لتجذبها مليكة تجلس جوارها على الفراش بعد أن فتحت نافذة الغرفة على مصراعيها وقالت: أخيرًا وجدت فتاة في هذه العائلة والأجمل أنها زوجة أخي.

ابتسمت لها بمجاملة، لتكمل مليكة سطوتها على الموقف قائلة: كيف نام؟

_ قالت بخجل: لا أعرف.

_ الرجل رقبته تؤلمه بشدة وأنتِ تقولين لا أعرف.. إذًا ماذا تعرفين؟

_ قالت ببراءة: استيقظت مفزوعة ليلًا لأجده نائمًا على الأرض وأخذ يحكي لي شيئًا ونمت.

_ إذًا نام هو الآخر، لن أسألكِ ماذا كان يحكي لكِ ولكن سأسألكِ شيئًا آخر وأتمنى أن تجيبيني.

_ ما الذي تريدين معرفته دون هذه المقدمات.

_ أريد أن أعرف قصتكِ بصراحة، أريد أن أسمع منكِ أنتِ الرواية من البداية للنهاية.

....

كثيرًا ما نعتقد أنّ ما نمر به سيكون أسوأ ما نقابله في حياتنا، ربما تشعر أنّها نهاية العالم الخاص بك، ولكن بمجرد أن تمر بما هو أصعب تبدأ الدوران حول نفسك مرة أخرى بنفس الدوامة ولكن بحدث جديد ينسيك ما قبله.

صعدت فاطمة لإحسان التي ظلت تبكي منذ ذهبت مليكة وقد نسيت أمر خالد وزوجته ولم تعد تتذكر إلّا ابنة قلبها وما حل بها بعد أن عادت لها عروس تفرح القلب، اعتقدت فاطمة أنّ ما هي عليه الآن بسبب مساندة الجميع لخالد، فقررت أن تريح ضميرها فهي تعلم جيدًا أنّها مَن أثارت كلّ

هذه الشكوك بنفس إحسان تجاه الفتاة، هي مَن نقلت الكلام دون تفكير، هي مَن شجعتها لرفض هذا الزواج.

_ اسمعيني جيدًا ما يقال عن الفتاة ليس منطقيًا أبدًا الرجل نعرفه منذ عمر ونشهد له بتدينه وأخلاقه فماذا سيكون حال ابنته؟ يحدث كثيرًا أن تخطب الفتاة أكثر من مرة، لقد تسرعنا في الحكم عليها يا إحسان.

_ ردت تبكي بقهر: ماذا لو كان ابنك هو مَن تزوج هكذا؟ ماذا لو لم ترضَ على زواجه من ابنة عمه أو كان بها أي شيء يعيبها، ستصممين على رفض الزواج أم كنتِ ستغيرين رأيك كما تحاولين إقناعي الآن؟

_ صدقيني كنت سأفكر في سعادة ابني، ما لا تعرفينه أني يوم زفاف فارس ومليكة أخبرت الحاج نجيب أنّه يظلم الاثنين بهذا الزواج، يعلم الله كيف أوجعني قلبي عليها، هل تعتقدين أنّ الفتاة سعيدة وهي تتزوج يوم وفاة والدها؟! أنا وأنتِ وغيرنا تزوجنا بحفل وزغاريد وفرحة وهي تزوجت بالأسود يحاوطها الحزن.

_ بكت قائلة: اطمئني يا فاطمة قلبي لم يطاوعني أن أغضب عليه، ولكن تذكري كل كلمة قُلتِها لي الآن ربما يأتي يوم وأذكرك بها.

....

اصطحب فارس خالد لغرفته في الشركة وقد لاحظ إجهاده، ليعطيه شريطًا من الحبوب المسكنة ويناوله كوبًا من الماء قائلًا: أشعر وكأنك سوف تسقط مني في لحظة.

_ لم أنم جيدًا منذ أيام.

_ تفاجأ خالد بضحك ابن عمه غير المبرر فقال: هل جننت؟!

- زاد ضحك فارس قائلًا: مؤكد مليكة جننتني ولكن لا أضحك على ذلك.

أدار خالد رأسه مستغفرًا بضيق، فقال فارس: آسف حقًا، ولكن تخيلتك تضرب الرجل كما أخبرني عادل، صراحة أبهرتني.

_ أفعلها فقط مع مَن يستحق وليس مع كلّ مَن يمر أمامي دون تفكير.

_ لا تنكر أنّك تعلمت الكثير مني.

_ تقصد تعلمت فيك، أنا لا أتذكر أني ضربت أحدًا غيرك من قبل.

_ ماذا قررت أن تفعل؟

_ لا أعرف.

_ لا تفكر في أمر والدتك اعتبره من اليوم انتهى.

_ نظر خالد بشك فأكمل: أقنعتها مليكة بالإضافة أني استطعت التأثير على أمي وأنت تعرف كلاهما جواب الآخر.

_ كيف أقنعتها مليكة؟ أفعلت ما كانت تفكر به؟

_ قال بضيق: أخبرتك كالعادة وأنا كالمغفل أتفاجأ من تصرفاتها.

_ تأخذ دائمًا الأمور بمحمل مختلف.

_ لا يا خالد، أنت وأختك يجب أن تعلما أنّه أصبح هناك طرف ثالث لا بد من وجوده بينكما، وإن كنت من قبل ابن عم فقط فالآن أنا زوجها، أخبرني شعورك لو اتخذت زوجتك قرارًا دون علمك؟

_ أمسك خالد رأسه قائلًا: لا أقوى على الجدال الآن، أعرف أن معك حق ولكن مليكة صعب السيطرة عليها وأنت تعلم ذلك جيدًا إضافة لظروفها النفسية التي جعلت الأمر أصعب، كلّ شيء بيدك الآن لم يعد لي سوى النصيحة، افعل ما تشاء فهي زوجتك، ولكن أحذرك من التهور أو سوء معاملتها، كنت أتمنى أن ترى ما فعلته في هذا الرجل لعلك تتعظ.

_ ضحك فارس قائلًا: صدقني لو كنت معك لكان الآن بين الأموات.

_ هيا نذهب لعمي أريد أن أنام بعض الوقت وفرصة مليكة مع رحيق.

في مكتب هاشم بدأ الحديث خاص بالعمل وكأنّ شيئًا لم يكن، فهذه سنة الحياة، يسقط مَن يسقط وتسير الدنيا كما هي ليوم الدين، وجه هاشم حديثه لخالد قائلًا: ما حال زوجتك الآن؟

_ مازالت كما هي.

_ مع الوقت ستتأقلم وتتعود على عدم وجود والدها، تحملها لتمر من هذه الأزمة بخير.

_ اطمئن يا عمي أعي كلّ ذلك.

ـ قال فارس مستغلًا الفرصة: بعد إذنك يا أبي كنت أريد أن تأذن لي بأخذ إحدى الشقق بالأعلى لتجهيزها لأسكن بها أنا ومليكة.

ـ ليكمل سريعًا قبل أن يعترض والده: نحتاج لبعض من الخصوصية يا أبي هذه أبسط حقوقنا وأنت تعلم تسلط والدتي وعمتي، الأمر صدقني سيتسبب في الكثير من المشاكل.

ـ فكر هاشم لحظات ليقول: موافق يا فارس ولكن أيام العطلة ستقضيها بين العائلة والذهاب لجدك.

ـ ونظر لخالد مكملًا حديثه: وهذا الكلام ينطبق عليك أنت الآخر سأُعطيك فقط مهلة لتمر زوجتك مما هي فيه وتهدأ أمك وتتقبل الوضع، وكلاكما يُعتبر مُلزمًا أمامي بذلك.

وافقه الاثنان فعاد ليقول: افعلا اللازم لتجهيز شقتين وكلّ ما تطلبه الفتاتان ينفذ ولا يحشر أحدكما أنفه في ذلك.

ـ قال خالد: أفهم من ذلك أن لي شقة أنا الآخر؟

ـ أليس من حق زوجتك ذلك؟ ثمّ إنّ الشقة التي أنت بها الآن كان يستغلها عادل أكثر منكما، هل نسيتما وجوده؟

ـ ابتسم فارس قائلًا: ربما تكون بشرى الخير يا والدي، ونجده تزوج الأسبوع القادم.

ـ الشقة الجاهزة الآن سأرضي بها فاطمة وإحسان إذا أرادت إحداهما المجيء لكما حتى لا يكون المبيت في شقة أحدكما حجة.

ـ ضحك الشابان، وقال خالد: لست سهلًا يا عمي في أمور النساء كما اعتقدت.

ـ وقال فارس: وهل لو كان سهلًا لتحمل أمي كل هذه السنوات!

ـ رد هاشم بحزم: احترما نفسيكما... ليتغير حاله ويضحك قائلًا: جدتك يا فارس والدة فاطمة كثيرًا ما فعلتها.

****

آلام منسية

أن تجد صديقًا يسمعك يهتم لأمرك وينصحك، فسيكون لك نصيب كبير من الراحة، دائمًا ابحث عنه في كلّ مَن حولك، لا يهمُّ المكان ولا الزمان أو السن، المهم أن تجد مَن يسمعك بأذنيه وقلبه وينصحك بعقله.

_ قالت رحيق بدهشة: وهل تعتقدين أنّ حكايتي تصلح لأن تكون رواية كما تقولين؟

_ بالتأكيد... في حياة كلّ منا حكايات تصلح لأن تكون روايات نحن أبطالها، ومؤكد نحن أيضًا ضيوف شرف أو ربما لنا أدوار ثانوية في رواية أحدهم، حياتنا ما هي إلّا روايات بعضها منسية والآخر لا نستطيع نسيانه والباقي نحاول نسيانه.

_ معنى ذلك أن رواياتنا ستنتهي بالموت؟

_ بالطبع لا، الموت بداية لحياة أخرى جديدة لا يعلمها سوى الله، يجتهد في تخيلها علماء الدين، ونحن نسعى في حياتنا الدنيا لأن نكون أفضل وفي مكانة أعلى في الآخرة.

_ وكيف لنا أن نختار نهاية رواياتنا؟ هل يختار الإنسان حياته بهذه السهولة؟

_ نستطيع أن نضع كلمة النهاية عندما نصل للمشهد الذي نتمناه لنكمل باقي حياتنا على ذكرى هذا المشهد، هناك مَن يختار مشهد النهاية أجمل مشاهد حياته، وهناك مَن يختار الأسوأ ليظل على أنقاضه باقي حياته.

_ وأنتِ يا مليكة هل استطعتِ أن تختاري أين ستقف روايتك؟

_ ضحكت بشدة قائلة: لو تعرفين كيف حاربت لأضع مشاهد روايتي بأكملها ما كنتِ سألتِ هذا السؤال أبدًا.

_ أنا عندي مشاهد عنف أكثر.

_ ومَن أخبركِ ربما روايتي مؤلمة أكثر.

_ إذًا أخبريني بها أولًا.

_ هذه مساومة يا رحيق لقد ظننتكِ أطيب من ذلك.

_ بداخل كلّ منا شرير، وجاءت لي اللحظة التي سأعرف فيها سر بكاء العروس الفاتنة.

_ ماذا تقصدين؟!

_ أنسيتِ أني كنت إحدى ضيوف شرف روايتك... أقصد عرسك، وخصوصًا مشهد الرقصة الأخيرة كنت مستمتعة بها كغيري إلى أن رأيت دموعك وإخفاءك لوجهك، فنظرت إلى خالد ورأيت ارتباكه هو وعادل وتأكدت حينها أنّ الأمر كما فهمت.

_ أخذت مليكة نفسًا وقالت: كنت أعلم أنّ مَن ستحب خالد لا بد أن تكون لماحة وحالمة، أنا موافقة سأقصها لكِ... لتصمت لحظة ثمّ تقول: ولنسمِّ هذه الرواية آلامًا... آلامًا منسية.

بدأت مليكة تسرد خبايا حكايتها والتي لأول مرة تحكيها لأحد، حتى وصلت ليوم الزفاف لتقول رحيق بغير رضا: مليكة آسفة أنتِ خدعتِه.

_ لم أخدعه فقط جعلته يحبني بشكلي الجديد، يحب مليكة ولكن بجسد ملك.. لماذا لا يستوعب أحد ذلك؟!

_ قالت رحيق بتردد: هل لي أن أعرف كيف واجهتِه بعد الزفاف؟ لو كنتِ لا تودين الحديث فلا مشكلة.

_ لا أحب تذكر ذلك، ولكن ربما لو أخبرتك سيكون علاجًا نفسيًا جيدًا.

_ كيف تحسبين خطواتك بهذه السهولة؟

_ عندما يمر الإنسان بقمة الصدمة في حياته يرى بعدها أي شيء هين.

_ كيف عرف أمر ظهرك؟

_ أغمضت عينيها وقالت: لم أُخبره، لم أستطع، خشيت نفوره حتى اعتقد أني أبتعد عنه لسبب آخر.. سبب مجرد التفكير فيه بشع، ولكني ظللت صامتة حتى اكتشف هو لا أعرف كيف، أعتقد أصابني الإغماء.. وقف تفكيري لدرجة أني لم أشعر به وهو يضربني وكأني سعيدة بعقابه.

_ ماذا؟ ضربك.. وتركتِه يضربك؟!

ـ لتكمل بنفس الهدوء: كنت متوقعة انفلات أعصابه، أعرفه جيدًا منذ صغره لا يسيطر على غضبه ولكن لم يخطر ببالي ما ظنه، ربما لأنّ تفكير الرجال مختلف عنا، كنت أعلم أنّه متهورٌ، يده تسبقه، حاول تهذيب نفسه بالرياضة لإخراج غضبه.. وها قد فعل بي.

ـ قالت رحيق بأسى: كيف بهذه البساطة تتحدثين؟! أنا أصبت اثنين بعاهة مستديمة وأعتقد أني ضعيفة.

ـ لحظة.. تقولين أصبتِ اثنين؟ وأنا تخيلتكِ ملاكًا، لا تقولي إنّهما...

ـ نعم.. تركتهما بعاهة مستديمة حتى يتذكراني كلما نظر أحدهما للمرآة.

ـ ضحكت مليكة وقالت: ربما فعلتِ ذلك لعدم حبّك لهما، أنا لا أستطيع أن أضر فارس حتى وإن كان متهورًا، وهو أيضًا صدقيني خشيت أن يفعل بنفسه شيئًا، أنتِ لا تتخيلي كيف يطلب مسامحتي كلما تذكر.

ـ ابتسمت وقالت: معكِ حق اكتشفت ذلك عندما تخيلت أن خالد سيحاول ضربي.

ـ ماذا؟ خالد مستحيل أن يفعل ذلك.. كيف تعرفينه منذ شهور؟!

ـ وما المانع؟! فعلها معكِ ابن عمه.

ـ لماذا فكرتِ في هذا من الأساس؟

ـ خشيت من رد فعله بعدما سمع حديث الناس بالحي، كان عصبيًا ومتوترًا رأيته كيف ضرب الرجل بسهولة وكأنّه لم يفعل شيئًا.. لم يستطع أحد الوقوف أمامه ظللت طوال الطريق أتخيل ماذا سيفعل بي، وفكرت

كيف أدافع عن نفسي كما فعلت من قبل، ولكني وقفت أمامه لا أستطيع فعل شيء.

_ خالد أحن رجال الدنيا، هذه الأمور عند الرجال مختلفة عندما تتعلق بالشرف والعرض، كلّ الرجال يستطيعون ممارسة العنف، ولكن ليس جميعهم يمارسونه في موضعه الصحيح.

_ قالت رحيق مرتبكة: عرفت ذلك بنفسي، ولكن..

_ ولكن ماذا؟

_ هل سوف تخبريني لو عندكِ الإجابة؟

_ ما الذي يحيركِ هكذا؟

_ بما أنكِ كما قال زوجك كاتم أسرار خالد، أنا لا أستطيع أن أفهم لماذا أحيانًا يعاملني بجمود وفجأة أجده يعاملني وكأني أهم امرأة في الدينا؟

_ ضحكت مليكة قائلة: أخبريني لماذا شوهتِ رجلين وأوشكتِ على تشويه الثالث وأنا أُعطيكِ الإجابة.

....

انصرف خالد وفارس من مكتب هاشم ووجهاهما لا يخلوان من الابتسامة ليقول فارس: ذكرني أن نلجأ لأبي دائمًا، واضح أنّ الخبرة تلعب دورًا كبيرًا.

_ لماذا شعرت بالجوع فجأة!

_ لأنك تحاول أن تبدو عاديًا.

ركبا المصعد ولكن فارس ضغط على زر الهبوط فقال خالد: أين سنذهب؟

_ سنحضر وجبة دسمة نستحقها، ولنأكل سويًا لأول مرة مع زوجاتنا ما رأيك؟

ابتسم خالد راضيًا عن الفكرة، وبعد دقائق كان الاثنان في سيارة فارس متجهين لإحدى المطاعم القريبة، ترك خالد مهمة اختيار الأصناف لفارس وقد تفنن في اختيار المشاوي التي لا يمكن لأحد أن يقاومها.

_ أشعر بك يا خالد ومتخيل كم تحاول أن تبدو هادئًا.

_ قال ساخرًا: وما الحل من وجهة نظرك؟ هل أقتل أحدهم!

_ رد بجدية: تحدث.. ألست أخاك؟

_ ظل صامتًا ليكمل فارس: أو تحدث مع مليكة ولا تظل هكذا.

_ يوجد أحيانًا مشاعر متناقضة بداخل الإنسان ربما لو استطاع وصفها لنفسه لارتاح وهذا أكثر ما يزعجني يا فارس.

_ سأُحدثك وبكل صراحة تقبلتها أو لم تتقبلها مني، الفتاة بريئة من كلّ ما يقال، بالمنطق والعقل كلها اتهامات باطلة سيحاسب الله مروّجيها.

أغمض خالد عينيه وأسند رأسه على الكرسي وقال: وهل تتخيل أني أصدق شيئًا من ذلك؟

_ ابتسم فارس قائلًا: إذًا حلك هو أن تتحدث معها وليس مع أي شخص آخر.

بعدها أخرج فارس الهاتف من جيبه ليتصل بمليكة قائلًا: هذه المرة الرابعة التي أتصل بها ولا يوجد رد.

أخرج خالد هاتفه ليتصل برحيق فاكتشف أنّ الهاتف مغلق، أصابه القلق هو الآخر لتمر الدقائق الباقية بصعوبة.

وصل هاشم المنزل مستعدًا لمواجهة جديدة فبالتأكيد هناك خطط تحاك بواسطة زوجته وزوجة أخيه، ولكنه وبمجرد أن دخل وجد إحسان تتجه إليه قائلة: أريد الحديث معك.

لم يحاول الرد عليها فقالت: آسفة يا هاشم على ما قلته بالأمس، كنت منفعلة ولم أُدرك ما أقول.

_ أعلم يا إحسان وأقدر موقفك.

_ يعلم الله أني حاسبت نفسي كثيرًا.

_ إذًا حدثي ابنك وأخبريه أنكِ راضية عنه يا إحسان، والله لو رأيتِ شكله اليوم سيحزن عليه قلبكِ.

صعد بعدها هاشم معه زوجته، وفي الغرفة قالت فاطمة بمجرد دخولهما: أعلم أنك غاضب مني، ها أنا أصلحت خطئي، لا داعي لتظل قالبًا وجهك هكذا.

_ قال معاتبًا: دائمًا وأبدًا أخبرك ألا تتلصّصي على أخبار الناس، ما كان من البداية أن تحشري أنفك في نظرات الشاب للفتاة ولا في ظروفها وتوقدين النار في رأس أمه، هل رأيتِ ما وصلنا له اليوم؟

_ أخبرتك أني صححت خطئي لا داعي لتأنبني هكذا أنا لست صغيرة.

ـ ضحك قائلًا: إذًا سأسجل هذا الاعتراف حتى لا تعودي وتتدللي مرة أخرى.

....

تفاجأت رحيق بضحك مليكة غير المبرر بالنسبة لها فقالت: لا أتذكر أني قلت شيئًا مضحكًا لهذه الدرجة.

ـ ركزي معي جيدًا كلّ ما قلتِه لي الآن عليكِ إخباره لخالد، كيف لم تخبريه بكل ذلك؟!

ـ كيف أُخبره بشيء لم يهتمِمْ هو لسماعه، لم يسألني.. حتى أبي قال لي أكثر من مرة أنه يجب أن أُخبره، ولكن كيف؟

ـ انظري لي واسمعيني جيدًا لا بد أن تخبريه أنكِ لم يسبق لكِ الزواج يا رحيق.

ـ كيف يا مليكة؟! يعلم أنّني تزوجت ألم يذكر ذلك في عقد الزواج؟!

ـ ضربت مليكة كفًا على آخر وقالت ضاحكة: ماذا أقول لها هذه الساذجة! حبيبتي هذا ليس الزواج الذي يعتقد.. إنّه مجرد عقد قران.

ـ قالت بارتباك: لم يأتِ ذلك برأسي أبدًا.

ـ ضمتها قائلة: وها أنتِ علمتِ.. عليكِ إذًا التصرف بحكمة مع زوجك يا عزيزتي.

لاحظت أن رحيق لم تحاول ضمها، فابتعدت مليكة وقالت بصوت مهتز: لا يؤلمني ظهري.. مررت بهذه المرحلة منذ زمن لا تخافي لا أشعر بشيء و... وأنتِ لن تشعري بشيء من فوق الملابس.

_ هل.. هل يمكن أن أرى ظهركِ؟

_ توترت الأخيرة لتقول رحيق: ربما هو ليس كما تظنين بهذا السوء.

_ قالت مليكة مترددة: أتعتقدين ذلك؟ لن تتغير معاملتك معي أليس كذلك؟

حركت رأسها بالموافقة فقالت مليكة: ستخبرينني حتى لو كان الأمر أبشع مما تتخيلين.

ترددت في الإجابة، لتقول مليكة: ولكن لي شرط.. صوري لي ظهري بالهاتف.

قالت باندهاش: لماذا؟

_ لأنني حاولت كثيرًا أن أراه جيدًا بالمرآة وفشلت، لم أستطع طلب ذلك من أحد من قبل، أرجوكِ طاوعيني في ذلك أريد أن أرى شكله عن قرب.

خرجت مليكة من الغرفة تبحث عن هاتفها، لتعود مسرعة تمسك به قائلة: لقد اتصل فارس وخالد عدة مرات.

اتصلت بفارس على الفور لتستقبل توبيخه وهي تغمض عينيها وتبعد الهاتف قليلًا لتقول: الهاتف كان بالخارج ولم أسمعه.

ثمّ نظرت لها قائلة: أغلق في وجهي.

أخذت رحيق تبحث عن هاتفها هي الأخرى لتجده نفد شحنه، دخل خالد الغرفة في هذه اللحظة وقد صل الاثنان للتو، لتستقبله رحيق بارتباك قائلة: لم ألاحظ أنه فارغ الشحن.

ـ ابتسم بتفهم وقال لمليكة: هيا معي لأحميكِ، لقد طفح الكيل بالخارج.

خرج ثلاثتهم بابتسامة هادئة فقال: ألم يشغل بالكما أننا تأخرنا؟

ـ قالت مليكة ببراءة: أين ستذهبان يا فارس نعلم أنكما بالشركة أسفل.

لتنظر لأكياس الطعام الموضوعة على الطاولة وتقول: واضح أنكما كنتما أبعد من ذلك.

اتجهت للأكياس وبدأت بالعبث بها، فنظرت لخالد قائلةً: ما هذا البرود؟!

ابتسم خالد وجذب رحيق لتجلس بجوار مليكة قائلًا: أفضل شيء مناسب للتعامل مع عصبيتك ابن العم.

بعد تناولهم الطعام جمعت رحيق ومليكة الأكياس الفارغة ليتجها للمطبخ لإعداد أكواب من الشاي للجميع، فبدأ خالد بالكلام قائلًا: ماذا تنوي أن تفعل هل ستذهب للمنزل؟

ـ أجابه فارس مسرعًا: بالطبع لا.. لو ذهبنا هناك ليلة لن نستطيع الخروج منه مرة أخرى.

ـ ضحك خالد قائلًا: وماذا ستفعل؟

ـ سنبيت في إحدى الفنادق القريبة إلى أن ينتهي تجهيز الشقة.

ـ لا داعي لذلك غرفتك هنا موجودة وستكون أنت ومليكة بجوار شقتك.

ـ قال فارس بحرج: ولكن لا يصح أنت عريس و...

ـ قاطعه قائلًا بسخرية: وهل هذا بربك مظهر عريس، بإمكاننا من الغد إحضار غرف النوم والمبيت في شققنا أفضل، ما رأيك؟

ـ إذًا سأذهب لإحضار الحقائب من السيارة فاليوم كان طويلًا.

نزل فارس وبعد دقائق خرجت رحيق ومليكة بأكواب الشاي، نظرت الأخيرة حولها تبحث عنه فقال خالد بسعادة: ذهب لإحضار الحقائب، ستبيتان هنا في غرفته ما رأيك بأخيكِ؟

ـ رفعت مليكة يدها بسعادة مهللة: أحسنت.. إذًا لتشرب أنت وفارس الشاي معًا.

وجذبت رحيق وهي تكمل: سأنام مع رحيق الليلة لم ننهِ حديثنا بعد.

رحّب خالد بالفكرة قائلًا: وأنا سأنام أخيرًا، سأحتل غرفة عادل وإياكِ أن تخبريه.

ـ جذبت مليكة رحيق قائلة بخبث: هيا بسرعة قبل أن يعود.

وبمجرد دخولهما الغرفة أعطتها مليكة الهاتف وقالت: لم أنسَ.

أخذته رحيق بتردد قائلة: مصمّمة؟

ضحكت وهي تخلع سترتها وتدور ليصبح ظهرها مواجهًا لرحيق قائلة: لا تكوني جبانة.

رفعت ملابسها بيد مرتعشة، وما إن فعلت حتى كتمت دموعها فقالت مليكة: المنظرُ مزرٍ، أليس كذلك؟

ـ قالت بحزن تحاول إخفاءه: لا.

رفعت رحيق الهاتف بتردد لتلتقط صورة، فقالت مليكة: هيا، ما هذا الجبن كيف ضربتِ رجلين؟!

بالخارج، صعد فارس بالحقائب وبعد أن وضعها نظر لخالد المستلقي على الأريكة وقال: لماذا تنام هكذا؟ أين هما؟

ـ رد ولم يفتح عينيه: بالداخل، ستنام مليكة مع رحيق، ولا تخف لن أنام معك سأبيت في غرفة عادل.

اقترب فارس منه كطائر جارح انقض على أرنب بريء كان ينام أسفل شجرة يجذبه من ملابسه؛ فوقف خالد باستسلام وعلى وجهه نفس الابتسامة التي يتعامل بها دائمًا معه، ليقول فارس صارخًا:

ـ ماذا تقول؟ أتستغفلني لتستطيع أنت النوم؟

ـ رد خالد ضاحكًا: هي التي جذبتها وجرت قائلة أن حديثهما لم ينتهِ.

ـ دفعه باتجاه الغرف قائلًا: اذهب وأحضر زوجتي هنا وإلّا لن أحترم وجود زوجتك بالداخل أكثر من ذلك.

ـ رفع خالد يده باستسلام قائلًا: كان يجب ألّا أضع أملًا فيك أكثر من اللازم.

ذهب مسرعًا، ليطرق الباب ويدخل مباشرةً فألقت رحيق بالهاتف في يد مليكة التي عدلت من ثيابها بسرعة والتقطت سترتها بارتباك، فهم خالد

ما يحدث فوجه رحيق لم يكن على ما يرام، وحاول تجاهل ما يحدث وجذب مليكة مقبلًا رأسها بابتسامة وقال: لو لم تذهبي له الآن سيقتلنا جميعًا، أسرعي وتحملي نتيجة اختيارك... فلقد نصحتكِ كثيرًا.

تحركت مليكة خارجة من الغرفة بارتباك فلم تقوَ على مواجهة نظراته، ليغلق الباب وراءها وينظر لرحيق قائلًا: رأيتِ ظهرها؟

_ أعطت لدموعها الأمان قائلة بأسى: هل رأيت كيف كان، كيف هذا أفضل؟

_ نعم كنت أراها بعد كلّ جراحة أحضرها معها، ولا تعرف هي ذلك.

_ صعب!

_ حاوط كتفيها بذراعه قائلًا: أصبحت أفضل بكثير مما كانت عليه، ويجب عليها الرضا بما وصلت إليه، ولكنّها للأسف غير مقتنعة بذلك.

_ ابتعدت عنه قائلة: كيف تنتقدها بهذه البساطة لمجرد أنها تسعى لأن تعود طبيعية؟

_ لأنها أفضل مما كانت فعلًا، مَن يراها لا يرى سوى فتاة متألقة ومميزة في عملها ماذا تحتاج أكثر من ذلك، هي نفسها لا تستطيع رؤية ظهرها، عندما تنظر لنفسها بالمرآة ستجد امرأة جميلة.

_ كيف تتحدث بهذه السهولة؟ تتضرر بعض النساء من ظهور إحدى الحبوب بوجهها وهناك مَن يسعون لعمليات تجميل لا يحتاجونها ليصبحن

أجمل، وأنت تعترض على حقها في العودة بجسد طبيعي! ما من فتاة تتحمل ذلك، ما هذه القسوة التي بكم؟

_ هناك أمور يجب أن نفكر فيها بعقلنا وليس القلب، لو حركتنا عواطفنا لما استطعنا حل أمور كثيرة وظللنا نبكي على اللبن المسكوب طوال العمر، يجب أن تستمر الحياة، نتأقلم مع ظروفنا وأوضاعنا لنعيش في سلام مع أنفسنا.

لم تحاول الرد ليعود ويقول مبتسمًا: هل أستطيع النوم اليوم؟

قالت بخجل: أعلم أني..

قاطعها قائلًا: أنتِ لا تعلمين شيئًا ولا أريد حديثًا ليس له داعٍ، فقط أريد أن أنام فبعد إذنك هل تسمحِين لي بالنوم على الفراش؟

هزت رأسها بالموافقة؛ فابتسم واتجه لخزانة الملابس وأخرج ثيابه ودخل بعدها دورة المياه وخرج بعد أن أخذ حمامًا دافئًا، ليجدها قد بدلت ثيابها ووضعت إحدى الوسائد على الأرض وجلست بجوارها، فقال بعدم فهم: ماذا تفعلين؟

_ ردت ببساطة: تركت لك الفراش لتنام.

_ أمسك رأسه قائلًا: يا الله.. هل تتصورين أني سأجعلكِ تنامين على الأرض؟! لو لم تقومي فورًا سأخرج أنا لأنام في أي غرفة أخرى.

تحركت مسرعة بوسادتها للفراش دون النظر إليه، ليأخذ سجادة الصلاة ويقف باتجاه القبلة ليصلي، نظرت له بخجل من نفسها لقد غلبها الحزن

وسيطر عليها الشيطان لتنسى فروضها، فاتجهت مسرعة لدورة المياه لتتوضأ.

أنهى صلاته فوجدها تقف خلفه في خشوع تصلي، فوضع أمامها سجادة الصلاة الوحيدة بالغرفة وجلس جانبًا، وبمجرد انتهائها أشار لها ألّا تخلع عباءتها قائلًا: أيمكن ألّا نضيع الفرصة لنصلي ركعتين معًا؟

أنهت صلاتها خلفه بسعادة لم تخلُ من الدموع، فمد يده يمسح على وجنتيها قائلًا: لا تمنعي دموعك ولكن أخبريني سببها.

_ كنت أصلي دائمًا خلف أبي، لم أكن أنسى صلاة لأنه كان دائمًا يذكرني بها، عندما كنت أغيب عن الوقوف خلفه كان ينظر لي بعتاب، في مرة قبلت رأسه واعتذرت قال ليس لي حق قبول الاعتذار، اعتذري مِمَن له هذا الحق فهو أكرم مني.

ضمها قائلًا: كبرنا يا رحيق ويجب ألّا يكون علينا رقيب سوى أنفسنا، علّمكِ وعلمني دروسًا كثيرة في الحياة، ليأتي دورنا ونعلمها لأبنائنا، يومًا تقفين لتصلي خلف والدك واليوم خلف زوجك، وغدًا سيكون ابنك هكذا هي الدنيا.

ساعدها في خلع إسدالها ليجذبها إلى الفراش قائلًا: هل سأنام أخيرًا؟

ألقى نفسه على الفراش واضعًا معصمه على عينيه ليعطي لها حرية التصرف، وقال: تصبحين على خير.

شعر بها ما زالت جالسة، أبعد يده عن عينيه قائلًا: تحتاجين شيئًا؟

حركت رأسها بنعم، فاعتدل ليجلس وقال بابتسامة: أوامرك.

_ أريد أن أُكمل باقي حكاية أمس.

ضحك قائلًا: أمممم.. تريدين باقي القصة؟!

قالت بخجل: أنا مَن سأكملها.

ابتسم قائلًا: وهل تعرفين باقي الحكاية؟!

قالت بتوتر: أجل.

_ إذًا هيّا.

لتقول على استحياء: نم كما كنت وأنا سأُخبرك.

طاوعها ليستلقي على الفراش بابتسامة، وأغمض عينيه قائلًا: ولكن احذري أن أنام منكِ سريعًا، فأنا على وشك انتهاء الشحن كهاتفك.

_ أتعلم أول مرة قابلتني بها؟

قاطعها معترضًا دون أن يفتح عينيه: لا.. ليس هكذا افعلي كما كنت أفعل هذا حقي عند سماع الحكاية.

مررت أصابعها بتردد بين خصلات شعره، لاحظ ارتباكها فلم يحاول الحديث لتبدأ لملمة شتاتها قائلة وهي تحاول جلي صوتها: لم تكن المرة الأولى التي أراك بها أنا أيضًا، كدت تصدمني بالسيارة أكثر من مرة.. تخيلتك تطاردني ولكني أخيرًا اكتشفت أنك تظنها أحلام يقظة، كنت أنا فعلًا يا خالد وكنت أنت كما تخيلتك.

حاول أن يفتح عينيه ويعتدل، ولكنها وضعت يدها الأخرى على صدره تمنعه وهي تكمل: عرفتك لأني تلصصت يوم احتللت غرفتي لأرى هذا الضيف الذي يشاركني حب أبي ويتحدث عنه دائمًا، رأيتك تمسك رسمتي خشيت أن تأخذها ولكنك كنت لطيفًا لتتركها وتأخذ قلبي أنا.

تصارعت أنفاسه، ولكنها أكملت ما بدأته بكل شجاعة قائلة: لم أستطع رؤية أي رجل آخر غير الذي رأيته في غرفتي يومًا، ظللت أبحث عن تلك الصفات التي جمعتها من حديث والدي، هذا الشاب الذي يراه بعين الفخر.. أُقنع نفسي بأنها أحلام مراهقة يجب التخلص منها فأنا معلقة بوهم مَن نسجت له قصصًا في خيالي، رفضت كثيرًا أن أعمل مع والدي حتى لا ينتهي حلمي بواقع لا أريده.. عندما وقفت بالسيارة وأنا أسير بمفردي في الطريق عرفتك، ولكنّني أخبرت نفسي أنّ الواقع مختلف وألّا أترك لأحد فرصة العبث بي، لو كنت شخصًا آخر لكنت تسرعت لأدافع عن نفسي واستخدمت الزجاجة التي بيدي.

سكتت عن الكلام المباح ليحزن وكأنه شهريار أدركه الصباح، أزعجه صياح الديك الذي أعلن أنّ الصبح قد لاح، فقرر أن ينام على ذكرى حديثها الذي أخذه لعالم لا يوجد به إلّا وجه شهرزاد الوضاح.

لتنام هي الأخرى على كتف أمير أحلامها تتمنى أن تستطيع اختيار نهاية حكايتها، وتهيّئ نفسها لتخبره قصتها، ولكن في يوم آخر، ربما الليلة قبل الألف لا تعرف متى ولكنها مؤكد ستصل للنهاية.

مرت عدة أيام، انشغل الجميع بتجهيز الشقتين، بدؤوا العودة لأعمالهم وحياتهم السابقة، خالد في المصنع وفارس في الشركة، لتظل مليكة ورحيق منشغلتين في ترتيب وتجهيز شقتيهما.

اكتفى خالد بالذهاب لوالدته يوميًا عند عودته من المصنع وبمفرده، يخشى لقاءها برحيق.

أمّا فارس فاستغل انشغال مليكة ليكون دائم الهروب من الحديث معها بشأن الجراحة، أسبوعان على هذا الوضع ساعده عادل وعمه كونهما أطباء في معرفت كلّ التفاصيل الخاصة بها، وقد استغل وجود عمه بالخارج ليحضر له تقريرًا طبيًا عن حالتها من المشفى التي أجرت بها الجراحات.

انتظر فارس خالد في مكتبه بالشركة ليستشيره فيما توصل إليه في أمر مليكة فربما يعلم خالد أمرًا آخر لا يعرفه هو كالعادة، وبعد أن أمضيا في الحديث فترة ليست بالقصيرة قررا الصعود.

دخل فارس شقته فلم يجد ما بنى عليه أحلامه من استقبال زوجته له، وبالطبع استنتج أين هي.

في نفس الوقت الذي دخل به خالد شقته باحثًا عن جنيته التي أصبحت تربكه أكثر مما مضى، ليجدها كما تعود في الفترة الأخيرة جالسة بجوار مليكة تتبادلان الأحاديث التي لا تنتهي ولا يعرف من أين لهما بها، ليقول مبتسمًا: ألم تملا أبدًا؟

قالت مليكة: وهل تزعجك صداقتنا؟!

جلس بينهما قائلًا: كيف يزعجني أن أدخل منزلي لأرى أجمل امرأتين في الدنيا تنتظراني؟

ليقاطعه صخب رنين جرس الباب المستمر، فقال ضاحكًا: ولكن هناك مَن يزعجه هذا.

تحرك بسرعة فرنين الجرس لم يقف؛ فتح الباب بابتسامة ليقول الطارق منفعلًا:

_ أقسم لك أني أقاوم حتى لا أُعطيك لكمة في مرة أقلب بها ضحكتك هذه، أين..

قاطعه خالد قائلًا: أين زوجتي أعرف.

ظهرت مليكة من خلفه تبعده عن طريقها لتخرج مسرعة لشقتها وكأنها لم ترَ الواقف يستشيط غضبًا، أغلق خالد خلفهما الباب دون أن ينتظر انصرافه مبتسمًا، ربما ما يحدث شيء من المشاكسة به بعض من السخط، ولكنه يومًا سيكون ذكرى جميلة يحكيها لأبنائه وأبناء أخته.

توقف عن هذه الأفكار بمجرد ظهورها أمامه ليخبر نفسه بسخرية كيف سيكون له أبناء وقد أعجبها الوضع!

وقفت أمامه بارتباك كالعادة وصمتها الذي فهمه أخيرًا، ليقول: عندما تحبين قول شيء أخبريني به دون تردد، وأعدك أن أحاول عدم المبالغة في رد الفعل.. ما رأيك؟

ابتسمت قائلة: ومَن أخبرك أني أريد قول شيء؟

_حفظت صمتك، كان عندي وقتٌ كافٍ لأفهم ما يدور في رأسك، ويؤسفني أن أخبركِ أنّ الأمر كان سهلًا للغاية.

قالت بخجل: وربما أنا مَن أردت أن يكون سهلًا.

دائمًا ردودها تصل لقلبه كطلقة قناص ماهر، ليصمت قليلًا قبل أن يقول: أشعر بالجوع هل هناك طعام أم ضاع الوقت بينكما كالعادة؟

قالت ببراءة: أحضرت عدة شطائر.

رفع حاجبيه باندهاش لتسرع مدافعة عن نفسها: بالشاورما أقسم لك.

ليقول ضاحكًا: يكفي أنك تذكرتِ غدائي.

_ أتذكرك دائمًا.

تأملها لثوانٍ قبل أن يقول: تتحدثين كمليكة منذ فترة، أفهم من ذلك أنّها تعطيكِ دروسًا خاصة؟

غلبها الخجل، فقال ضاحكًا: لا أمانع لكن إياك أن تكون قد استغلت طيبتك ودفعتِ المقابل، أعرفُها حديثُها من ذهب.

انصرفت مسرعة لا يعلم أخجلٌ هذا أم أساء التعبير! ذهب إليها ليجدها قد انخرطت في نوبة بكاء تخفي وجهها بيدها، جلس بجوارها على الأريكة مباعدًا يديها عن وجهها، ليقول: لا أريد أن تتعاملي معي بناءً على توجيهات من أحد يا رحيق.

رفع وجهها بأصابعه لتنظر إليه وأردف: أريدكِ كما أنتِ، بكل تلقائيتك وبراءة تعبيراتك، مليكة جميلة ومميزة لأنّها هكذا، وأنتِ جميلة كما أنتِ.

حاولت الهرب بعينيها بعيدًا عنه، فقال: هيّا نأكل أولًا وبعدها لن أتركِكِ إلّا عندما أعرف ما يدور من ورائي وبماذا تخططان.

....

في الشقة المجاورة، وقفت مليكة تشير حولها قائلة: ما رأيك؟ مؤكد شاهدت آخر التعديلات.

جلس على الأريكة وقال بنفاد صبر: وماذا بعد؟

جلست بجواره تستند بمرفقها على كتفه قائلة: لم يحدث شيء هذه المرة أرجوك لا داعي لافتعال مشكلة.

_ أنتِ لا تفكرين في وجودي.

_ أعدك ألّا أفعل ما يغضبك مرة أخرى، ولكن هناك مقابل.

ضيّقَ ما بين حاجبيه، لتكمل قائلة: لا تغضب بهذه الطريقة خذ الأمور ببساطة.

_ معكِ حق، ولكن المشكلة أني أحاول أن أكون باردًا منذ سنوات وجئتِ أنتِ لتزيدي المأساة.

_ قالت هامسة: ربما لأني أحبّ أن أراك منفعلًا.

أنزل يدها التي ما زالت على كتفه ليحاوط كتفيها قائلًا: المشكلة أني أعلم ذلك منذ كنتِ نصف طولك هذا بضفيرة تجري وراءك ورغم ذلك تنجحين في استفزازي.

_ هل طولي هذا يزعجك؟ أنت أطول مني ما مشكلتك حقًا؟

_ نعم يا فاتنتي.. كيف طولْتي لهذه الدرجة لا أعرف.. ثمّ إنّنا تزوجنا منذ أسابيع وأحاول أن أعثر على نوع رياضة تمارسينه ولم أجد، أعطني سببًا واحدًا لهذا القوام.

_ ضحكت قائلة: أهذا يزعجك حقًا؟

_ قال متعمدًا الغزل: كيف لي أن أتركِ تسيرين بين الناس بخيلاء كما تمشين.. أكاد أجنّ من طرقات أقدامك على السلم فاحذري إثارة غيرتي.

_ قالت بمرار: الغيرة عدم ثقة يا فارس.

_ الغيرة حبّ، أحيانًا الغضب يعمينا.. يجعلنا نسلم رأسنا للشيطان، كيف أُنسيكِ هذا اليوم؟

_ دائمًا أتساءل هل صدر مني ما يجبرك على الشك بي؟

_ ابتسم قائلًا: نعم للأسف، ربما سرعة غضبي كانت إحدى الأسباب، ولكن صدقيني لن أفكر في هذا الأمر مرة أخرى ولا أعرف كيف خطر لي، أنا تناسيت ما حدث وعليكِ أن تفعلي مثلي.

ليكمل بعدما قبّل كفها: ليس أمامك حل آخر فأنا قدرك كما أنتِ قدري.

....

أليس دائمًا يقال اقطع الشك باليقين؟ فلماذا نترك للشيطان فرصة أن يصنع من رؤوسنا لعبة يلهو بها؟ لماذا لا نلجأ لأقصر الطرق عندما يستأثر بتفكيرنا شيء يزعجنا؟ لماذا نستسلم ونتلذذ بتعذيب أنفسنا؟!

طال انتظاره لها بعدما أنهيا طعامهما لدرجة أثارت فضوله وربما قلقه، ضحك عندما لم يجدها بالمطبخ يخبر نفسه أنّها ربما لم تكن موجودة من الأساس وكل هذا أحلام يقظة!

فتح باب غرفة النوم وتحرك كالمسحور..

كانت تقف مرتبكة... اقترب منها يحاول أن يجمع شتات نظراته التي أخجلتها، ليسأل ويجيب على نفسه قائلًا: من أين لكِ بهذا الفستان؟ مليكة.

حركت رأسها بالإيجاب، ليمسح بيده وجهه محاولًا لملمة ما بعثرته بداخله بهذا الثوب، ورغم أنّه يبدو للكثيرات ملبسًا عاديًا؛ إلّا أنه لم يكن كذلك بالنسبة لها، فقد اعتادت على ارتداء الأسود وحتى قبلها لم يحلم يومًا أن يرى منها سوى شعرها!

تقف ببراءة تصيبه في مقتل بفستان قصير يكاد يصل إلى ما فوق الركبة بسنتيمترات ذي أكتاف رفيعة، أصفر اللون ينافس طائر الكناري رقة، تملؤه زهور السوسن الزرقاء بتناغم، لم يخلق هذا الفستان للفتنة، ولكنّه كان أكثر فتنةً ممَن يصممون خصيصًا لهذه الأغراض، لا ترتدي شيئًا في قدميها ربما لم يسعفها الوقت.

أمسك يدها ورفعها لتدور حول نفسها بشعرها النحاسي المتمرد الذي يأبى الاصطفاف، وقد تناسق لونه ببراعة مع الفستان، كأنها تتعمد عدم

تصفيفه حتى لا يرتاح قلبه، تدور حول نفسها كفرشاة رسم تمكن منها أخيرًا، ليرسم أجمل لوحاته.

_ يا الله.. أمكشوف الظهر أيضًا.

توقفت بخجل فقال: مؤكد مليكة تخلصت منه لهذا السبب.

_ تجهم وجهها وقالت: أليس جميلًا؟

_ مرّر يده على رأسه بارتباك قائلًا: بالطبع لم أقصد، أنتِ جميلة في كلّ الحالات، ولكن لي عتاب.

_ نظرت له بتوجس فقال: لماذا لم تطلبي مني شراء ثياب؟

_ رفعت كتفيها بارتباك قائلة: لا أعرف.

ثبت نظره على كتفيها يسأل نفسه أتفعل هذه الحركة دائمًا؟! خرج من شروده قائلًا: أعلم أنّنا تزوجنا فجأة، وكان يجب إعداد الكثير مما تحتاجينه.

_ لم تجِب فقال: هناك شيء تريدين قوله منذ أيام.

أرجعت شعرها وراء رأسها بتلقائية أثارت دهشته، كيف لحركات بسيطة كهذه تلفت انتباهه، ماذا حدث له اليوم؟!

أخذت نفسًا عميقًا واستجمعت شجاعتها قائلة: أيمكن أن نتحدث قليلًا؟

اتجهت إلى الأريكة وجلست تستدعيه للجلوس بأناقة، نظر لها قبل أن يجلس بجوارها يملأ عينيه بتفاصيلها، لتبدأ قائلة: لم تحاول سؤالي فيما

حدث لي قبل أن أعرفك، دائمًا ما كان يشعرني ذلك بالتجاهل، ولكني اكتشفت أنّ هذا الأمر يضايقك لدرجة أنّك لا تريد معرفة شيء عنه.

_ قاطعها قائلًا: لم يعد يهم هذا الحديث.

لم تحاول النظر إليه لتستطيع الصمود للنهاية قائلة: مهم بالنسبة لي أن تعرف كلّ شيء، لابد أن أُخبرك حتى أطوي هذه الصفحة من حياتي، أرمي بها بعيدًا وأنساها حتى لا أظل أرى شيئًا في نظراتك يقتلني، يجب أن تسمعني.

_ أخبرتك ألّا تنفذي إرشادات مليكة.

_ مليكة لفتت نظري لشيء لم أكن أدركه، عرفت أني ظننتك غير مهتم ولكني اكتشفت العكس.

_ قال بحدة: أخبرتك ألّا تذكري ذلك أمامي مرة أخرى.

_ ربما لأنك مجبر أن تستمر في هذا الحبّ الذي كاد يخسرك والدتك.

_ يكفي رحيق.

_ سوف تسمعني، ربما أرتاح أنا ويرتاح قلبك.

زفر باعدًا وجهه عنها فقد علم أنه حان الوقت، لتكمل قائلة: لو كنت استوعبت طلب أبي أن أُخبرك لما كنا وصلنا لذلك.

اقتربت تمسك يده تحثه على النظر إليها وقالت: أريد أن أرمي ما داخلي بين يديك.

وضع يده الأخرى فوق يدها قائلًا: قولي ما تريدين هذا حقك.

_ وحقك، ربما تكتشف أني أصبت رجلين من أجلك.

لم يحاول التعليق لتبدأ قصتها قائلة: كنت في عامي الجامعي الثاني... تقدم لي عريس كأي فتاة، أبي وأمي مقتنعان به؛ فهو فرصة لن تتكرر رغم فارق السن، ليأتي دور الكلام الذي تتوارثه الأجيال في مثل هذه الحالات.

_ أبي: يابْنتي أنا لست باقيًا لكِ، أريد أن أطمئن عليكِ ليرتاح قلبي إنّه عريس مناسب.

_ أمي: ستصبحين عروسًا تلبسين محبس الزواج وتخرجين مع خاطبك، ترتدين فستانًا أبيض ويكون لكِ بيتك، مملكتك.. عريس جاهز ستعيشين معه في راحة وسعادة، وماذا تريد الفتاة أكثر من ذلك؟!

شعرت بانقباض قلبي عندما رأيته.. ولم يفرق ذلك فقد رأى أبي أنه أمر طبيعي لأنّها خطوة جديدة في حياتي، لتسقط أمي على الأريكة ممسكة بقلبها في مشهد كلاسيكي معتاد يكاد يكون ساذجًا لو تكرر في أحد المسلسلات، ولكن لمعرفتي مرض والدتي لم أستوعب حينها أنه ربما تقصد ذلك، ليقول أبي: نحن نعرف مصلحتك أكثر منك.

_ وتقول أمي: سأغضب عليكِ لو أضعتِ هذه الفرصة طوال العمر.

وقد كان، لم تتم الخطبة فحسب بل تم عقد القران بناءً على رغبة العريس حتى يتاح له حرية تجهيز قبر الزوجية مع العروس، مرّ عام ولم أنشغل سوى بدراستي، إلى أن اقترب الزفاف وبالتحديد قبل الموعد المحدد بثلاثة أيام، اشترى بعض التحف اللازمة للمنزل، وقد كنت معه، فطلب أن نصعد

للشقة لنضع الأغراض وبعدها نذهب للغداء مع أبي وأمي كما اتفقا... لم أشك ربما لأنّي لم أرَه يومًا تعدى حدوده... أغلق الباب بالمفتاح ليضعه في جيبه.. لا أعرف كيف انقضّ عليّ كحيوان يلهث، حاولت الفرار منه لينهال عليّ ضربًا قائلًا: ماذا تخيلتِ أن نفعل هل تعتقدين أني سأنتظر ليوم الزفاف لأتفاجأ لماذا وافق والدك بهذه البساطة؟

لتكمل وقد تساقطت دموعها على استحياء: حاولت الفرار.. كنت مذعورة.. سؤال واحد كان يدور برأسي.. كيف كنت سأعيش مع هذا الحقير؟ أخبرته أني لا أريد هذا الزواج.. أريده أن يتركني أذهب ولن أخبر أحدًا، زاد شراسة قائلًا: كنت أعلم أنكِ لا تريدينني، لن تضحك عليّ طفلة مثلك، لن تخرجي من هنا إلاّ بإرادتي.

وجدت نفسي أمسك إحدى التحف وانهلت على رأسه بها حتى فقد الوعي.. أخذت المفتاح وهربت.. كنت سعيدة لقد تخلصت منه أخيرًا. أخبرت أبي بما حدث ليقرر إنهاء هذه المهزلة، ورغم تردد أمي والتي تفاجأت أنها ترى أني زوجته وربما أغضبه رد فعلي، إلّا أن أبي أخذ القرار، لم يمر وقت طويل وقد سمعنا صوته بالشارع بما لم أتخيل سماعه أنا ووالداي.. لا أعرف ماذا حدث وكيف غادر وأخذ كلّ شيء حتى ما جهزه أبي بالشقة، أصبت بإغماء ولم أستوعب ما حدث إلّا بعد أيام.. أكملت دراستي كأنّ شيئًا لم يكن، لم أهتمِمْ بنظرات مَن في الحيّ ولا بدموع الحسرة في عينيّ أمي التي زاد عليها المرض.. المهم فقط أني تخلصت منه.

أخذت نفسًا تحاول التماسك لتكمل الحكاية فلم تنتهِ بعد، لتجد يدها ما زالت بين يديه يمسكها بشدة، لا يعرف ماذا يقول وكيف يمحو ما حدث من ذاكرتها بعد الآن، وظلّ ناظرًا أرضًا تاركًا لها فرصة إكمال حكايتها كما تشاء.

_ وكأي أب وأم وبحجة الاطمئنان على ابنتهما، أعدا لي عريسًا جديدًا ولكن الغرض هذه المرة مختلف.. لا بد من مداراة الفضيحة في أسرع وقت.. ابن عمي الذي يعمل بالخارج، قد ساعده أبي منذ فترة عن طريق شركتكم في السفر ليأتي اليوم لرد الجميل، لا أعرف حينها كيف كان عرض الزواج.. ولكن كانت مبررات الإقناع كسابقتها لم تختلف كثيرًا مع بعض الإضافات.. فلن يقبل بي أحد بعد فضيحتي، وحضر العريس المزعوم لإقامة الخطبة، لم أرَه يومين ربما ثلاثة.. لم أهتمِمْ.... ربما لو حاولت تذكر اسمه واسم مَن قبله لكان الأمر صعبًا؛ لأتفاجأ بالزفاف فستان أبيض لم أرَه سوى كفن يجثم على أنفاسي.. أصرت أمي أن أخرج من البيت بزفة وتملأ الأضواء المكان، وبمجرد أن أغلق باب الشقة.. ورغم قراري بأن أسلم أمري إلى الذي خلقني فهذا قدري، نظر لي بسخرية من أعلى رأسي لقدمي ورفع الهاتف الذي لم يكف عن الرنين ليرد بكل بساطة: نعم حبيبتي لا عليك كان أمرًا وأوشكت على الانتهاء منه... كيف حالك وحال الأولاد.. ماذا هناك... أعطيني لأُحدثه... حبيب أبيك يومان وأعود لا تزعج والدتك اتفقنا؟

كلام كثير ليس له سوى معنى واحد، لأقول له بذهول: متزوج وعندك أولاد؟!

_ وماذا تخيلتِ؟

_ إذًا لماذا تزوجتني؟!

وقف أمامي وبكل قسوة يقول ما لا أطيق سماعه:

ألا تعرفين السبب؟ لأتستر على فضيحتك.. لأنّ لوالدك فضلًا عليّ ولم أستطع رفض طلبه.

_ مستحيل أن يفعل أبي ذلك.

_ ولماذا مستحيل؟! وهل هناك أحد سيقبل الزواج بكِ سوى مَن يهمه سمعة العائلة؟ كنت متخيلًا من برودك أنكِ تعلمين هذا الأمر.

_ كاذب.. أبي مستحيل أن يزوجني لرجل متزوج.

_ لأنه لا يعلم أني متزوج من الأساس.. لم يكن لعلمه بهذا الأمر أهمية، ومن يعلم من العائلة بالبلد والفضل لعدم وجود علاقات بينهم، ما رأيك أن نعقد صفقة؟ أنا أحل لكِ مشكلة سمعتك سأسافر بعد يومين يعلم الجميع أمر سفري وانسيني بعدها لأني لا أنوي العودة قريبًا.. وقبل رجوعي سأُطلقكِ وتصبحين مطلقة أفضل مما كنتِ فيه، وذلك ربما بعد عامين أو أكثر.

كنت أنظر له كالتائهة ليقترب بجرأة قائلًا: ولا مانع أن نسعد أنفسنا في هذين اليومين، وربما تركت لكِ ذكرى أفضل من السابقة.

لا أعرف كيف تذكرت منظر الدماء وهي تنزف من رأس ذاك المقرف لأُمسك ما وجدته بجواري وأرمي به على رأسه بكلّ ما أتيحت لي من قوة، ولكن لم يفقد الوعي.. انهال عليّ ضربًا هو الآخر وكأنّ قدري أن تضربني كلّ يد تطالني.. حاولت رميه بأي شيء مرة أخرى ليسيل الدم على وجهه، لم يفقد الوعي وكأنّ رأسه مقاوم للصدمات.. زادت ثورته وعنفه كلما حاولت المقاومة.. لم أشعر إلّا بوالدي ووالدتي يبعدانه عني بعدما اتصل بهم أحد الجيران، فلحسن الحظ ومنذ فرش الشقة تصادقت أمي معهم، دخلا الشقة بالمفتاح الذي ما زال معهما، وانتهت القصة على ذلك.. ماتت أمي بعدما سيطر عليها الحزن والمرض ولم يبقَ لي سوى أبي، طوينا صفحات الماضي لدرجة أنّنا لم نذكره نهائيًا.

سكتت تتسارع أنفاسها فقد كانت تعدو في سباق مع الذكريات، أما هو فينظر إليها بجمود تتجول عيناه في كلّ تعبيراتها.. حركاتها.. انتفاضتها.. يشعر بكل لحظة مرت بها.. وبكلّ كلمة تخرج من بين شفتيها.. ربما كما قالت أراحته مما كان فيه، ولكنّها رمت على عاتقه مهمة أن ينسيها كلّ هذا الماضي الذي لا تستحقه، جذبها بين ذراعيه قائلًا بألم: كيف أرتاح على حطام ماضيكِ يا رحيق؟

_ لم أستوعب سبب تخبطك.. ربما لأني كنت مصرة على نسيان الماضي.

_ لذلك اعتقدتِ أني سأضربك؟

_ ضمها بشدة مكملًا: معكِ حق يجب أن تحذفي هذه الصفحة من حياتك.. قطّعيها وارمي بها في صندوق المهملات.. أحرقيها واعلمي أنّ الله لا يضيع حق مظلوم.

ابتسمت تبتعد عنه قليلًا قائلة: أنا لست حزينة على ما مررت به بالعكس نسيت كلّ ما حدث منذ زمن، دعوت الله حينها وهو حسبي ونعم الوكيل وتركت أمر حقي بين يديه، نسيتهم ونسيت ما مضى ولم أتذكرهم إلّا لأجلك.. أنا الآن سعيدة لأنّني لم أفرّط في حياتي لمَن لا يستحقها من أجل مَن يستحق.

_ أنا لم أعد أتحمل سلاسة حديثك.. أمامك اختيار واحد لا ثاني له.

_ قالت بدهشة: وهل يصبح اختيارًا؟

_ أجل لأنه سيكون بإرادتك.

وأخبرها أنّه سيذيقها السعادة التي تستحقها ويتذوق رحيق عسلها الذي اشتهاه ولم يكن يجرؤ على الاقتراب منه.

....

تمضي الأيام، ولم يبقَ الحال كما كان، فدائمًا ما تتغير الأحوال، وتختلف الحكايات باختلاف الأشخاص، ولكن يبقى الحبّ واحدًا، فالكل يغني على ليلاه.

اجتمع الجميع في منزل العائلة بعدما قرر خالد أخيرًا مقابلة رحيق بوالدته، فلم يعد يرى للتأجيل داعيَ، مضى شهر على وفاة محسن، صمم أن تخلع

ملابس الحداد في هذا اليوم فنار الحزن لن تنطفئ مهما مرت الأيام، سيظل الفراق بأناته في القلب يرعى.

كان الجميع في استقبال العروس والذي أصر خالد على ارتدائها فستان أبيض، رغم بساطته إلّا أنه جعلها كالفراشة، لم يتخيل أن تصبح بهذه السعادة، عندما تفاجأت بمجرد دخولها الفيلا بالتصفيق والزهور تتطاير من حولها.

رغم بساطة الاحتفال، وعدم وجود مدعوين سوى أفراد العائلة، إلّا أنه استطاع أن يدخل الفرحة قلبها، وضعت يدها على وجهها بخجل دائمًا ما يزيد جنونه، اقترب منها مقبلًا جبهتها قائلًا: الظروف لم تجعلنا نقيم حفلًا كما تستحقين.

الجميع يهنئها، بداية بمليكة التي احتضنتها قائلة بهمس: تهربين مني منذ أسبوع.

وابتعدت لتحتضن أخاها متعلقة برقبته كما اعتادت، ولكنّها وجدت مَن يحملها من خصرها باعدًا إيّاها عنه قائلًا: اتركي فرصة لنهنئه.

ضحك خالد فلم يكف فارس عن الغيرة، اقترب منه عادل قائلًا بابتسامة: أخبرتك من قبل أني فخور بك أليس كذلك؟ الآن أصبحت مثلي الأعلى.

اتجهت رحيق لهاشم وكأنّها تحتمي به من نظرات السيدتين التي لم تفهم معناها، فقال: مبارك يا ابنة الغالي، أهلًا بكِ بين عائلتك.

ليميل مقبّلًا رأسها بأبوية أثرت بها، وكادت تبكي مرة أخرى، ليجذب خالد يدها متجهًا لوالدته، مالت رحيق عليها تقبّل رأسها، جلست على ركبتيها لتصبح أمام نظرها، وقالت بصوت مهزوز: تمنيت رؤيتك منذ فترة... خالد دائمًا يحدثني عنكِ.. أخبرني كثيرًا عن طيبة قلبك.. كنت متأكدة أن مَن ربته لا بد أن تكون أحنَّ أُم في الدنيا، اعذريني وسامحيني لو كنت في وضع أفضل صدقيني ما كنت وافقت على إتمام زواجي دون وجودك، ولكن ما باليد حيلة.. آسفة.

عمّ الصمت قبل أن تقف مستندة على خالد، وقبل أن تتحرك مبتعدة جذبتها إحسان من يدها لتجلس بجوارها وضمتها بذراعيها، وقد خانتها دموعها متأثرة بحديث الفتاة وقالت: بارك الله لكما يابْنتي، عوضني الله بكما خيرًا وأدام عليكما السعادة.

مسحت دموعها وهي تتأمل وجه زوجة ابنها لأول مرة وقد غلب الجميع البكاء، لتقول إحسان: ما أغضبني حقًا أنّه كان يجب على ابني أن يخبرني لأكون جوارك، والدك كان غاليًا علينا جميعًا.

احتضنتها رحيق باكية، وجلست مليكة جوار والدتها لتنام على كتفها الآخر محتضنة ذراعها، وهي تقول بسعادة: لا يوجد قلب كقلب أمي.

عمّ الجلسة الود والمحبة وتناول الجميع طعام العشاء لأول مرة على مائدة واحدة وسط سعادة هاشم بعائلته التي تكبر شيئًا فشيئًا، ليقول آمرًا الجميع: آخر الشهر سنقضي عدة أيام مع جدكم.

ووجه حديثه لمليكة قائلًا: هل أخبركِ والدكِ متى سيعود؟

حركت رأسها بالنفي بابتسامة لم يفهم معناها فقال: إذًا هل أخبركِ أي شيء بخصوص عودته؟

فعلت نفس الشيء ونفس الابتسامة، ليقول منفعلًا: يا بُنيتي متى حدثكِ والدك آخر مرة؟

ضحكت قائلة ببساطة: لم يحدثني منذ يوم زواجي.

انتبه الجميع بصدمة وأولهم فارس، ليقول هاشم مرة أخرى: كيف ذلك لقد حدثني مرتين.. لماذا تضحكين هكذا كالبلهاء؟

قالت بنفس الابتسامة: مؤكد كان يريد معرفة شيء فحدثك.. هو لا يريد مني شيئًا إلى الآن.

نظر لها هاشم بغضب ليفضل إنهاء الحديث مؤقتًا؛ لينظر لها فارس قائلًا بصوت منخفض: لماذا لم تخبريني أنكِ لا تتحدثين مع والدك؟

_ وهل سألتني ولم أجِب؟ لا تشغل بالك هو هكذا دائمًا.

....

في صباح اليوم التالي وقفت تتشبث بباب الشقة رافضة الخروج منه ليجذبها قائلًا: اتفقنا يا رحيق ووافقتِ واقتنعتِ ما المشكلة الآن؟

_ أرجوك لا داعي لذلك أكمل جميلك واتركني هنا لا أريد الذهاب.

ابتعد عن الباب للداخل مرة أخرى وأغلقه بقدمه قائلًا: ما معنى أكمل جميلك.. عن أي جميل تتحدثين؟!

حاولت الابتعاد عنه، ولكن يده كانت متحكمة بحركتها فقالت: أنت لم تجبرني على شيء من قبل.

_ لا بد من مواجهة الناس يا رحيق، وهناك عمل كنتِ سعيدة به وأنا أحتاجكِ فيه بشدة.

_ نظرت له بشك قائلة: تحتاجني أنا؟!

_ يجب أن تعلمي أني أحتاجكِ مكان والدك، فكري قليلًا ستجدين أني في ورطة ولن يحلها أحدٌ سواك... أنا وافقتك الآن على ارتداء الأسود مرة أخرى لأنّه حق أبيكِ عليكِ أن تظهري أمام الناس في مكان عمله بملابس الحداد وليس لأحد عندنا شيء أكثر من ذلك.

_ إذًا لا داعي للذهاب للحي أيضًا.

_ حاسوبك وأدواتك وأوراقك كلها هناك.

_ قالت على استحياء: اشتري لي آخر.

_ ضحك قائلًا: صراحة لم يعد هناك أي جميل لأُكمله وأُحضر لكِ حاسوبًا.

نظرت له بعدم فهم فقال: ألم تقولي أكمل جميلك يا خالد؟

لم تقاوم الضحك ليجذبها من يدها مقررًا كسر آخر حواجزها النفسية.

وصلا المصنع بعد فترة قضاها الاثنان في السيارة يختلس خالد النظرات كلّ حين وآخر ولم تفارقه الابتسامة؛ فكلما حاولت الحديث تعود وتغلق فمها بيدها، فيعلم هو كم أصاب الهدف.

....

قرر هاشم إجراء مكالمة هاتفية بأخيه لمعرفة سبب عدم عودته كما وعد بسرعة، وبعد العديد من الاتصالات رد مختار أخيرًا معتقدًا أن هناك أمر خطير ليقول هاشم بثورة: لماذا لم تعد إلى الآن؟

_ هل كلّ هذه الاتصالات من أجل ذلك؟ عندي جراحة ولا يوجد وقت لأضيعه في الحديث؛ لقد اعتقدت أنّه قد حدث شيء لمليكة، كيف حالها؟

_ رد هاشم بسخرية: تسألني أنا عن ابنتك! ألا يمكنك الاتصال بها؟ كيف تستطيع أن يمر يوم دون أن تطمئن عليها؟!

_ وما بها ابنتي أليست بينكم.. ماذا أريد أكثر من ذلك؟

_ يا مختار لم تعد شابًا لتضرب بالدنيا عرض الحائط، أولادنا أهم الآن من أنفسنا.. لديك ابنة حتى لو تزوجت عليك وصالها، عليك أداء دورك معها كأب.

ليقول محاولًا إنهاء الحديث: لذلك زوجتها ابنك، يرتاح قلبي بوجودها بينكم، لا أريد أن أشغل رأسي الآن بشيء آخر فيجب أن أغلق معك، سأحادثك فيما بعد.

أغلق الاتصال حائرًا كيف سيخبر والده برجوع أخيه في قراره.

نائمة هي كسماء غاب عنها الشمس، كالأطفال تتدثر بغطائها تختبئ بداخله من نظراته، يتأمل ليل شعرها الذي أخفى آخر ما ظهر منها يساعد الغطاء في إخفائها عن عينيه، ورغم كلّ مظاهر القوة والثبات التي تحاول التحلي بها؛ إلّا أنّه يستطيع أن يرى بسهولة هذا الانكسار بداخلها.

أزاح شعرها يأمل أن تشرق عليه ببحر عينيها.. أتبخل عليه كلّ الصباح؟!

مال مقبّلًا وجنتها.. لم يهمه أن يزعجها فهذا في الواقع ما يريده، لم تتحرك.. أتعتقد أنّه يصدق أنّها نائمة؟!

حاول جذب الغطاء قليلًا عن كتفها، لتتشبث به فقال: آخر مرة أتركِ تهربين مني في الصباح.

غادر الغرفة وتركها تعطي لدموعها الأمان، ويفكر هو ألف مرة هل يتعامل معها بشكلٍ خاطئ؟

كيف يجعلها تشعر وكأنّ شيئًا لم يكن؟ كيف يجعلها تثق بنفسها في عينيه؟

تتهرب من الاستيقاظ صباحًا أمامه... تهرب من تبديل ثيابها في وجوده، تبتعد عن لمساته لظهرها حتى ولو ارتدت ألف شيء.. فما الحل؟

مؤكد الحل ليس بيد أحد سواه.. متأكد أنّ مشكلتها فيه هو، فهي تتعامل بشكلٍ طبيعيّ مع الجميع وسيحل هذا الأمر بأي طريقة مهما كانت.

....

الخطوة الأولى دائمًا هي الأصعب.

وقف أمام باب السيارة المجاور لها يفتحه مشيرًا لها بالنزول، تنظر إليه كقطة مختبئة تترجاه بملامح بريئة أن يتركها، فهي لا تريد أن يعثر عليها أحد، جذبها قائلًا: هيّا يا رحيق لا مفر.

استسلمت ليده وأشارت أن ينتظر قليلًا لتلبس نظارتها الشمسية، والتي ظلت منسية لفترة فوق حجابها، تقوس فمه للأسفل وقال: ممتاز.. هكذا لن يعرفكِ أحد.

أمسك بكفها وكأنّه يصطحب ابنته أول يوم للمدرسة لتسير خلفه بخطوة، لم يغِب عنه ولا عنها نظرات العمال والموظفين، حاولت جذب يدها منه أكثر من مرة ولكنّه رفض، ولم يحاول الوقوف لرد التعازي التي انهالت عليها إلى أن وصل أمام غرفته، فوقف مناديًا على السكرتيرة التي تنظر لهما بدهشة: هدى أُريدك.

دخلت وراءهما بعدم فهم فما زال أمر زواجهما لا أحد يعلمه سوى العائلة.

_ ستتسلم رحيق من اليوم العمل مكان والدها رحمه الله.. أريد منكِ مساعدتها، وسأوكل لكِ مهمة اخبار الجميع بصورة لائقة أمر زواجنا.

رفعت الفتاة حاجبيها بدهشة، ليعود ويقول: أعتقد زواجنا أفضل يا هدى مما جال بخاطرك.

لينظر لرحيق التي زاد توترها، وقال: كنت قد خطبت رحيق من عم محسن رحمه الله، وبعد وفاته فضلنا تعجيل أمر الزواج حتى لا تظلّ رحيق بمفردها.

لينظر للفتاة التي تحاول أن تخفي رد فعلها، وأكمل: أليس هذا أفضل أم ننتظر عامًا لنكمل طقوس الزواج المتعارف عليها من احتفالات؟

وقف خالد متجهًا للباب ليغلفه بالمفتاح بعد مغادرة الفتاة في صمت، نظرت له رحيق بقلقٍ قائلةً: ما هذا؟

جذبها تقف أمامه خالعًا عنها النظارة التي مازالت ترتديها وألقى بها على الأريكة، وقال: أتعرفين كم مرة وقفتِ أمامي هنا وتمنيت إغلاق الباب خلفكِ و...

_ قالت تقاطعه: لا تكمل.. نحن بالمصنع جئنا للعمل فلا تجنّ.

اقترب منها لتعود هي للخلف تنظر على الباب وكأنّ أحدهم سيخترقه،

_ فقال: لن نبدأ عملًا إلّا بعد أن أنفذ ما أُريد.

نظرت له بترجٍ وقد جحظت عيناها، فضحك قائلًا: أمزح معكِ يا مجنونة أتصدقين كلّ شيء هكذا؟!

أخذ نفسًا عميقًا لا يريد أن يخبرها أنّه أراد هذا حقًا، وقال: سنذهب لغرفة والدك لتكون من الآن مكتبك.

وقبل أن تعترض سارع قائلًا: ليس أمامك بدائل ستجلسين مكان والدك وتعملين كما كنتِ تعملين معه وسنختار مَن يساعدك.

ـ قالت بترجٍ: أرسم معك في المنزل أو أعود للشركة.

ـ قال بخبثٍ: عندما أجد مَن تستحق أن تعمل مكانك سأُحضرها فورًا، أخبرتك من قبل هذا على ما أتذكر.

ـ حركت أهدابها بسرعة وقالت: مَن تعمل مكاني؟ ولماذا لا يكون رجلًا؟ لن تعمل فتاة معك أتفهم؟

ـ ليقول بلا مبالاة: سأحضر فتاتين لا تقلقي فالحسابات صعبة.

ـ دارت تبحث عن حقيبتها وقالت: لم يعد لدينا وقت سأذهب لأبدأ العمل.

حاول كتم ضحكاته فهي المرة الثانية التي تنجح فيها هذه الطريقة، فالغيرة حقًا مفتاح الدخول للمرأة، إنّها كلمة السر وعليه حسن استغلالها.

دخلت الغرفة تبحث بعينيها عنه... كيف اعتقدت أنّه يمكنها أن تجده يجلس كما كان دائمًا، أخذت نفسًا عميقًا لا تريد إخراجه، إنّه برائحة أبيها التي تملأ المكان، روحه هنا... واثقة أنّه معها الآن.. لم يحاول خالد قطع ذكرياتها ليجذبها تجلس على كرسيه، مقبلًا رأسها وقال: لا عمل اليوم.

لم ينتظر منها الرد فهو يشعر بها، فلقد انتابه هذا الإحساس أول مرة يدخل الغرفة بعد وفاته.. بل مؤكد ما تشعر به الآن أضعاف ما شعر، فقرر تركها

بمفردها، ربما هذا أفضل لها فكلّ منا يحتاج لبعض من الانفراد بنفسه أحيانًا.

خرج متجهًا لمكتب السكرتارية قائلًا: هدى من فضلك كوني بالقرب منها لبعض الوقت ربما تحتاج شيئًا.

أما هي فبين أوراقه جالسة تتشمم رائحته في المكان.. تأخذ أنفاسها بعمق مغمضة عينيها تستعيد ذكراه، تلمس القلم الموجود في منتصف المكتب ربما تجد فيه لمسة من أبيها ترضي بها فقدان دفئه.

_ لمسة.. لمسة فقط يا أبي، أعلم أنك تراني.. تسمعني.. تشعر بي.. أحتاج وجودك.

مسحت دموعها وأكملت حديثها الذي خلقته بينها وبين سراب روحه أمامها: كان معك حق.. كنت أفهم كلامك.. من بعدك لن أعطي الأمان لغيره.. كنت أعرف ماذا تقصد.. هو حقق أمنيتك يا أبي.. أنا لا أحتاج لشيء وأنا معه سواك.. أمان وجودك مختلف.. أمان أحضانك مختلف.. أمانك لن يعوضه أحد.

لتحتضن الأوراق والأقلام وتضع رأسها على المكتب تختبئ من الفراغ حولها، ظلت هكذا بعض الوقت فقط لا شيء سوى البكاء.

دخلت هدى المكتب بعد عدة طرقات لم تلقَ الرد، لتشاهد هذا المشهد الذي يوجع القلب، فاتجهت إليها قائلة: رحيق ما هذا الذي تفعلينه؟ حبيبتي سيكون سعيدًا عندما تكونين بخير.

نظرت لها بعدم تركيز تراها كضباب خلف غيوم عينيها وقالت: رائحته هنا في كلّ مكان أشعر وكأنّه حولي.

ترددت الفتاة أن تستدعي خالد، ولكنّها رجعت عن ذلك، لتجذبها قائلة: تعالي معي لا بد أن تغسلي وجهك لا يصح أن يراكِ أحد بهذا الشكل.. وسنعود لأبدأ معكِ في تنظيم كلّ شيء ما رأيك؟

وافقتها وتحركت معها كما أرادت، ساخرة من نفسها فعليها دائمًا أن تطيع الآخرين.

....

يوم مضى وآخر آتٍ والكلّ ينظر للصباح بعين حاله، بعد أن رنَّ منبه هاتفه إعلانًا أنّه قد حان وقت العمل، نظر جواره فلم يجد تلك التي تتقوقع داخل غطائها كلّ يوم، ليمني نفسه بصباح مختلف برؤية عينيها ونسيم عنفوانها، تحرك بتكاسل باحثًا عنها ليجدها في المطبخ وقد وقفت تعد الفطور، تحرك بهدوء خلفها ليقترب واضعًا يده على كتفيها مقبلًا إياه ومرّر يده على ظهرها بحركة تلقائية ليديرها تنظر إليه، ولكنّه تفاجأ بإبعادها ليده بعنف، حاول تجاهل الأمر قائلًا: أليس من حقي؟

ـ قالت وكأنّها تستعد لمعركة آتية لا محالة: أخبرتك مئة مرة ألّا تلمس ظهري.

ـ رد بهدوءٍ: من حقي أفعل ما أشاء.

ـ ردت بعنادٍ: حقوقك أُعطيها لك بإرادتي وآخذ منها ما أُريد أيضًا بإرادتي.

قال مدركًا محاولتها إثارة أعصابه، وقد وضع يده على وجنتها بمشاكسة: لا يا مليكتي هناك حقوق لا أنا ولا أنتِ نستطيع سلبها ولا التفريط بها.

ابتعدت لتجلس على الطاولة في منتصف المطبخ، تأكل بعصبيةٍ بعدما نجح في إنهاء جدالها، جلس أمامها يتناول فطوره هو الآخر ولم يحاول إثارتها بأي شكل، وقال: لماذا ترتدين ملابس الخروج؟

_ أعتقد الإجابة واضحة.

_ أين ستذهبين؟

_ سأذهب للموعد الذي تؤجله دائمًا وتتعمد أن تتجاهله.

ترك ما بيده من طعام ليقول محاولًا الحفاظ على هدوئه:

ـ لن تذهبي إلى أي مكان إلّا معي.

ـ وقفت قائلة: إذًا أنت تتعمد ألّا أخرج من المنزل بمفردي!

ـ وقف مستديرًا بهدوء ليخرج من المطبخ قائلًا: لم أنكر ذلك.

ـ أسرعت تقف أمامه قائلة: لماذا تريد أن تشعرني أني أصبحت جارية عندك؟

ـ ابتسم قالًا: أعتقد أنّه لا مانع في أي تشبيه ترين إضافته بجوار كونك زوجتي.

ـ أمسكت رأسها بعصبية قائلة: فارس، سأذهب للطبيب كما أريد وسوف أتفق على الجراحة سواء وافقت أم لم توافق.

ـ أمسك مرفقها قائلًا: لن تفعلي شيئًا إلّا بموافقتي، وكلّ ما تفعلينه الآن من أجل استفزازي لن تصلي به لنتيجة، ليس هناك جراحات أخرى ولا ذهاب لأطباء.

أبعدت يده عنها لتضرب صدره بكلتا يديها، صارخةً به: ليس من حقك تحديد مصيري، سأجري الجراحة دون موافقتك، ولو كنت تتحكم بي بهذا الشكل لأنّك زوجي ننهي هذا الأمر الآن.

ظلّ صامتًا لحظات ليقول بهدوء بذل الكثير من أجل الوصول إليه: قولي ما تشائين وكما تريدين لن يتغير شيء ولن أغير قراري.

ـ صرخت قائلة: تريد أن أعيش مشوهة؟ هل هذا العقاب الذي أرضى كبرياءك؟ أتشعر بنشوة الانتصار هكذا؟

ـ أمسك ذراعيها يحاول تهدئتها قائلًا: بحثت في الأمر مئة مرة لم أترك أحدًا لم أسأله، كلّ تقاريرك الطبية معي يا مليكة، الأمر ليس سهلًا بعد هذه المدة.. ظهرك لم يرَه أحد ليشغل بالك بهذا الشكل، لماذا تدخلين غرفة الجراحة مرة أخرى؟ علمت كلّ تفاصيل حالتك وما مررتِ به، وكم جراحة أجريتها، لن أُعرضكِ لخطر أنتِ في غنى عنه.

حركت رأسها برفض تبتعد عنه متجهة للغرفة، لتأخذ حقيبتها وتستعد للذهاب قائلة: لن أظلّ تحت سيطرتك كثيرًا، لن أقبل أن يتحكم بي أحد بهذا الشكل، كلامك لا يهمني سأفعل ما أريد.

أوقفها بيده، فقالت وقد فقدت السيطرة على أعصابها: ابتعد عن طريقي.

خرجت من الغرفة فلحقها ليقف أمامها سادًّا عليها الطريق يمنعها أن تمر، ولكنّها حاولت إبعاده بكلّ قوتها ليحاوط خصرها بيديه ببساطة يحملها إلى الغرفة، حاولت تخليص نفسها بلا فائدة ليتركها بعنف وهو يقول: ليس أمامي سوى هذه الطريقة.

أخذ حقيبتها لتتفاجأ به يخرج من الغرفة ويغلق الباب بالمفتاح.

لم يكن بيدها سوى الصراخ ودفع الباب بقدميها لتخرج جام غضبها وإحساسها بالعجز، يعلم أنّه أهان كبرياءَها بحبسها هكذا، ولكنّها لم تترك له خيارًا بعد أن أخذ عهدًا على نفسه ألّا يتعامل معها بعنف مرة أخرى طوال حياته.

يسمع بكاءها وصراخها ولم يلتفت لكم الإهانات التي وجهتها له بقدر ما آلمه نطقها لكلمة الطلاق التي ما زالت تكررها؛ ليأتي مع صراخها رنين الباب الذي لم يتوقف يكمل المشهد صخبًا.

تحرك بهدوء لا يتناسب مع الموقف يفتح الباب متوقعًا مَن خلفه، دخل خالد ورحيق بذعر بعد سماع صرخاتها، أبعده خالد عن طريقه قائلًا: ماذا فعلت أيّها الأحمق! ألم أحذرك من قبل؟

أسرع لفتح الغرفة فرمت نفسها بين ذراعيه بانهيار قائلة: لا أريد العيش معه، لا أريده يا خالد.

أبعدها عنه لتأخذها يد رحيق وتحرك مندفعًا باتجاه فارس الواقف يشاهدهم في صمت وهو يقول: ضربتها مرة أخرى يا همجي.

وقبل أن يرفع يده لتلكم هذا الواقف الذي لا يأبه، صرخت وهي تجري تلحق يده قائلة: لا.. لم يضربني.. لم يفعلها أبدًا.

أما هو فأغمض عينيه مع صرختها التي أوجعته أكثر من لكمة خالد الذي وقف بينهما ينظر لكليهما لا يفهم شيئًا، رمت نفسها بين ذراعي أخيها مرة أخرى تبكي والآخر يقف كصنم ينتظر أن يرجموه بالحجارة، أبعدها خالد قائلًا: ماذا حدث لكل ذلك؟ انطقا.

_ لا أريد العيش معه.

قال فارس بهدوء لم يعتد عليه: مصممة على الجراحة، عندها موعد مع الطبيب من ورائي، تلوي ذراعي إما أقبل الجراحة أو.. ننفصل.

استوعب خالد الأمر ونظر إلى مليكة قائلًا بشفقة: الأمور لا تؤخذ هكذا استعيذي بالله من الشيطان ولا داعي لكلّ هذا.

لتصرخ قائلة لفارس: اتفقت مع الجميع، أقنعتهم أن أظلّ مشوّهة حتى أظلّ مكسورة أمامك وتأخذ أنت دور البطل الذي ضحى، لتصبح في نظر الجميع رجلًا فعلت ما لم يفعله أحد.

قال وهو يعتصر قبضته: يكفي يا مليكة.

حاولت رحيق جذبها للداخل لتهدئتها، ولكنها أبعدتها بقوة قائلة: لو حقًا رجل.. لو عندك كرامة أمامهما طلقني.

_ رد ببساطة: لكِ ما تريدين.. أنتِ..

وقبل أن يكمل صرخ به خالد محذرًا: فارس.

صمت لحظة ثمّ قال: ستصل ورقتك غدًا منزل جدك.

تحرك مغادرًا، ليقول خالد بعتاب: لماذا يا مليكة؟

وذهب مسرعًا يجذبه: انتظر يا فارس.. ليست بوعيها، لا تستوعب ما تقول.

_ لم يعد هناك حلول، إلى هنا وكفى، لن أستطيع تحمل أكثر من ذلك.

أخرج خالد هاتفه من جيبه واتصل بعادل قائلًا: أريدك في شقة فارس هناك مشكلة.

وقبل أن يكمل انتفض الاثنان على صراخ رحيق المتواصل، لم يعرف كلاهما كيف وصلا للداخل ليتفاجأ الاثنان برحيق في المطبخ وقد جلست أرضًا تصرخ بجوار مليكة التي سقطت على ركبتيها وبيدها سكين واليد الأخرى تغرق في الدماء، تهذي قائلة قبل أن تغيب عن الوعي: هذا الحل أسهل يا فارس... أسهل بكثير.

حملها مسرعًا خارج المطبخ، قابلهم عادل الذي صعد مهرولًا على صوت صراخ رحيق، قائلًا: أدخلها على الفراش بسرعة.

وجّه عادل حديثه لرحيق وخالد قائلًا: حقيبة الإسعافات.

تحركت رحيق تتخبط خطواتها، أمسك عادل معصمها ضاغطًا عليه ووقف خالد يساعده، بالطبع قام عادل بالأمر ببساطة قائلًا: الجرح سطحي لا تقلقوا.

ظلّ عادل رافعًا معصمها لبعض الوقت بعد أن قام بوضع الضمادة اللازمة وقال مرة أخرى: ستكون بخير.

ـ قالت رحيق لأول مرة بقلق: ما زالت غائبة عن الوعي.

ـ رد عادل بعملية: الإغماء ليس بسبب الجرح لا تخافي.

رفع يدها جوارها على الوسادة ليحاول بعدها إيقاظها وقد بدأت تستعيد وعيها، وبمجرد أن فتحت عينيها واستوعبت ما حدث، أخفت وجهها بيدها الأخرى عن الجميع وانخرطت في البكاء.

أخذ فارس أنفاسه أخيرًا وكأنّه أفاق للتوّ معها، ترددت يده قبل لمسها لتعود وتنقبض مبتعدة عنها وغادر الغرفة، خرج خالد خلفه مسرعًا، وبمجرد خروجهما وجه عادل الحديث لها، وقال بحدة: اجلسي أريد الحديث معكِ.. ساعديها يا رحيق هي بخير لا تخافي، كيف حدث ذلك؟

ـ جئنا على صوت صراخها.. اشتدّ الجدال بينهما إلى أن أصرت على الطلاق.

زاد بكاء مليكة وقد ضمت قدميها إلى صدرها وأخفت وجهها بين قدميها، فقال عادل: بهذه السهولة!

نظرت له رحيق ألّا يكمل، فقال بنفس الحدة: أريدها أن تفكر هل الأمر يستحق محاولة انتحارها أكملي.. ماذا فعل بها لكل هذا؟

قالت رحيق بتردد: لم يرد عليها رغم أنها بالغت في الحديث ولكن..

ـ أكملي.

ـ أهانته أمامنا.

ـ طلقها؟

ـ لا.... أخبرها أن ورقتها ستصلها غدًا في بيت جدها وذهب.

_ وكيف فعلت ذلك؟

_ مجرد أن غادر الغرفة أسرعت باتجاه المطبخ كانت تبعدني عنها، لم أستطع اللحاق بها وأخذت السكين وفعلت ذلك.

_ ما رأيك يا مليكة؟ هل هذا ما تريديه؟ أنهي بكاءَك وأخبريني هل أنجاكِ الله من الحادث وكتب لكِ عمرًا جديدًا لتنهي حياتك بهذا الشكل!

وأمام شدة بكائها أكمل قائلًا: فعلتِ المستحيل ليحبك ويتزوجك والآن تتعمدين إهانته! ماذا تعتقدين أن يفعل؟ هل يصدق أحد مدى صبره عليكِ لهذه الدرجة؟

أجابت رحيق مشفقة عليها من قسوة حديثه رغم اندهاشها منه، فلأول مرة تراه يتحدث بهذا الشكل: رفض أن تجري الجراحة، أليس هذا سبب؟!

_ ليس سببًا يا رحيق.. أمر الجراحة مؤكد هي تعلمه قبله وقبل أن نرى جميعًا تقاريرها الطبية.. جراحة ليست سهلة وليس لها داعٍ بعد كلّ ما مرّت به، وها هي أمامنا ماذا بها؟

لم تعرف رحيق بماذا ترد ليقول لمليكة بأمر: قلت لكِ اجلسي، لا يصح أن أتحدث وأنتِ هكذا.. كبرتِ على ذلك منذ زمن.

تفاجأت رحيق أنّها تعتدل وتمسح دموعها مطيعة لأمره بكلّ بساطة، فرفعت حاجبيها بدهشة، فابتسم عادل وقال: إنّها ابنتي يا رحيق.. أنا مَن سميتها مليكة، ولكنّه يبدو أنّ الاسم لم يعجبها فقررت تغييره.

أخفت مليكة ابتسامتها فقال: ألا يكفي ما تفعلينه بنفسك؟

لترد عليه لأول مرة قائلة: لن يفهمني أحد.

_ لماذا تعتقدين ذلك؟! جميعنا نفهمك.. جميعنا نريدك سعيدة.

_ لا أريد أن أعيش هكذا.

_ وماذا بكِ؟! ها أنت تعيشين بيننا أخيرًا، عدتِ تزينين حياتنا من جديد، ملكة على قلب زوجك وغدًا تأتين لنا بملوك صغار يزيدون جنون والدهم بكِ.

وقف بعدها وقال عائدًا لعمليته: هل تعرضتِ للإغماء من قبل؟

_ لا أعرف.. لا أتذكر.. ربما.

صدمه تذبذبها وكأنّها تخشى الإجابة، فتأكد حينها أنّ صغيرته لا تحتاج إلّا لعلاج نفسي قبل تكرار هذه المحاولة مرة أخرى.

بالخارج جلس فارس منهك الأعصاب، فقال خالد إن لم تكن بخير لكان أصر عادل على ذهابها المشفى لا تقلق.

رد بيأس: لا أعرف كيف أتعامل معها، أقسم لك أنّ ظهرها لا يسبب لي أي مشكلة، منذ أول لحظة وهي تتعامل بحذر.. تصبح الحياة جميلة بمجرد نسيانها الأمر وفجأة تنقل.

_ ربما لو كنت حضرت كلّ ما مرت به وقت الحادث لكنت توقعت ما هي فيه الآن.. حذرتك من قبل وأخبرتك أني طاوعتها خوفًا من انهيارها، تعلم أمر علاجها النفسي بعد الحادث وخوف الأطباء من محاولة انتحارها، ولكنها كانت أقوى مما تخيل الجميع، مرت أصعب مرحلة في حياتها ولم

يكن لها هدف سوى الوصول إليك.. لا أعرف كيف ومتى سيطرت على تفكيرها بهذا الشكل، أعرف كيف عشتما، واثق ومتأكد أنك أبدًا لم تحاول تعليقها بك ولا استغلال هذا التعلق.

لم يحاول فارس الرد ظل صامتًا بعدها إلى أن خرج عادل قائلًا لخالد: كيف كان علاجها النفسي؟ لماذا تركتها دون اكماله؟

رد مدافعًا عن نفسه: كيف سأجبرها على ذلك؟! اعتقدت أنّها ستكون بخير عندما تأتي بيننا.

وجّه عادل حديثه لفاس قائلًا: الأمر الآن بيدك حاول إقناعها بهدوء.. وحاول إذًا ترويض نفسك وتحمل كلّ حالاتها.. مهما ثارت أو حاولت استفزازك.

وقال لخالد: هيّا أحضر زوجتك واذهب للمصنع لم تتزوجا لنترك أعمالنا ونجلس هكذا.. كرهت الزواج بسببكما.

ربت خالد على ذراعه وهو يتحرك متجهًا للغرفة قائلًا: أنت تكرهه من قبل زواجنا يا دكتور لا تتحجج بنا.

وجّه عادل حديثه لفارس قائلًا: لابد من إجراء بعض التحاليل والفحوصات لها.

وفي الغرفة جذب خالد يد زوجته وقد عادت مليكة لضم قدميها لصدرها وأخفت رأسها ولم يحاول الحديث معها في شيء، فقط قبّل رأسها وانصرف.

وقف فارس على باب الغرفة فترة يتأملها.. يتذكر لحظة رآها أرضًا تملأ الدماء يدها، تحرك ليجلس بجوارها وجذبها رغمًا عنها يضمها إليه قائلًا: بعد أن أوقفتِ قلبي منذ قليل برؤيتك هكذا.. عرفت لماذا أراد الله أن يظل ظهرك بهذه العلامة.

زاد نشيجها بين يديه ليكمل قائلًا: حتى أحمد الله على سلامتك وأتذكر دائمًا أن الله أنجاكِ لأجلي، أهنت عليكِ أن تفعلي ذلك بي؟ كيف هانت عليكِ نفسك؟

رفعت رأسها وقد ظهر على وجهها طيف ابتسامة غير ملائمة: كنت أعرف أنك ستعود لتنقذني.

ـ نظر إليها بعدم تصديق قائلًا: تراهنين على حياتك يا مليكة؟

ـ ردت بنفس الابتسامة وكأنّ شيئًا لم يكن: ألم بسيط، إنّها خربشة صغيرة.

ـ قال بصدمة: يا مليكة لا مزاح في هذه الأشياء.

ـ نظرت بعيدًا قائلة: أعرف أنك ستعود لتنقذني.. لم تتركني وكذلك خالد كنت متأكدة، حتى عادل.. لن يتركني أحد.

ـ أمسك يدها التي ربطت بالشاش الطبي قائلًا: إنّه جرح بعرض يدك، جرح يسبب الألم!

ـ ألم بسيط، لعلمك أنا تحملت أكثر منه، أنت فقط لا تستوعب كم أستطيع أن أتحمل ولن يسبب علامة كبيرة إنّه خط رفيع.

_ عادل معه حق يا مليكة.

_ ضحكت قائلة: عادل لا يعرف شيئًا، متخيل أني أردت الانتحار، أنا لا أنتحر وأتركك.

كان ينظر لها بذهول ليقول محاولًا استغلال هدوئها: مليكتي ما رأيك أن نتفق على شيء؟

_ انتظرت ليكمل فقال: ننسى ما حدث اليوم، وكأنّه لم يكن ونعطي أنفسنا مهلة لبعض الوقت، نعيد التفكير في أمورنا.

نظرت له بشك ليكمل: مهلة يا مليكة، لا نتحدث في هذا الأمر أبدًا ننساه وكأنّه لم يكن نتعامل معًا دون أي ضغوطات، ألم أعدك ألّا أغضب أو أثور كما كنت من قبل؟ وقد حدث لا تنكري أنّي كنت في قمة الانضباط النفسي.

ابتسمت فأكمل: أي أني أتغير من أجلك وأنفذ وعودي، إذًا على كلينا محاولة الوصول لرضا الآخر.. كلّ ما أطلبه منك هو مهلة كمهلة وقف إطلاق النار تمامًا.

وأمسك يدها مشيرًا على الضماد وقال: لتكن إلى أن يزول هذا الجرح.

نظرت ليدها وقالت: كثير.

ضحك قائلًا: أليس عندك صبر لاختفاء هذا الخط الرفيع، أليس هذا وصفك له؟

_ وبعدها؟

_ وبعدها إما تقنعينني أو أقنعكِ.

حركت رأسها رافضة فقال: ما المشكلة إذا استطعت أن أقنعك؟! اتفقنا؟

قالت بتردد: اتفقنا.

الهروب أسلم الطرق للنجاة، ليس شرطًا أن تكون النجاة من الموت ربما النجاة من فكرة أوشكت على الموت، فكرة كبرت في الأعماق وترعرعت بداخلنا، ارتوت جذورها وتوغلت ليصبح من الصعب اقتلاعها، وتحتاج الوقت والمجهود للقضاء عليها من الجذور.

استيقظ في موعده ولم يتخيل أن يبدأ يومه كسابقه، لم يجدها بجواره، أفعلت كأمس؟ هل سيتكرر المشهد؟ وقبل أن ينفض النوم عن جسده ويبحث عنها وجد ورقة بجوار هاتفه كتبت بها:

(فارس الأحلام... آسفة، أحتاج لهدنة مع نفسي فاعذرني، سأكون بخير عند جدي لا تقلق فقط أعطني وقتًا حتى يلتئم الجرح، هاتفي مغلق.. سأبعث لك رسالة فور وصولي لتطمئن لا داعي لأن تُقلق جدي بأي شيء، لن أُخبره.

ملحوظة: لم أخرج دون إذنك.. لقد استأذنتك وأنت نائم)

لم ينهِ القراءة كما بدأ، فلقد ابتسم ربما اقتنع بما قالت، نظر لهاتفه ليجد رسالة منها من نصف ساعة: (أنا في سيارة الأجرة.. أحضرها الحارس لا تقلق)

بالطبع ما زال أمامها وقت لتصل، غريب أنّه لم يغضب لتصرفها، ربما لأنّه وجد منها بعض التقدير لمحاولة طمأنته بكلّ الطرق، اتجه إلى المطبخ فوجدها قد أعدت له بعض الشطائر.

بعد فترة وصلته رسالة أخرى (أنا بالحديقة وبجواري أرجوحتي لن أجلس عليها إلّا معك).

وضع الهاتف في جيبه برتابة مغادرًا المنزل ليخبر نفسه أنّها مصممة على التلاعب بمشاعره.

دخل الشركة متجهًا لمكتب عادل، جلس ينتظره على مقعده الخاص تتجول عيناه على أنحاء المكان وكأنّه يراه لأول مرة، يتأرجح بالكرسي يمينًا ويسارًا، تارة يتأمل السقف وتارة أخرى المكتب.

دخل عادل غير متوقع رؤية أحد بمكتبه فوجده جالسًا مكانه؛ فقال بقلق: ماذا حدث؟

ـ رد فارس بهدوء يطمئنه: اجلس يا عادل هل سيحدث شيء وأنتظرك وأنا أتأمل غرفتك؟!

ـ إذًا أخبرني ما الأمر؟

ـ قال فارس ببساطة: لا شيء.. هربت.

....

عندما تضيق الدنيا بك وتتملكك الهموم يخبرونك أنّه يجب أن تغير جوًّا.. وهذا ما فعلته.. تغسل روحها بجو الريف النقي.. تبتعد ولفترة عن كلّ الضغوطات التي تحاصرها بوجودها جواره.. ورغم أنّ ذلك أصعب ما في الأمر، ولكنّها وجدت الأفضل لها أن تمضي هذه الهدنة بعيدًا عنه.

تأملت أرجوحتها تتذكر المرة الوحيدة التي كانا بها سويًا في هذا المكان، أخذت نفسًا عميقًا تملؤه من رائحة الطبيعة وزهورها، بعثت له رسالة تطمئنه، ووقفت تعدل من هندامها وتضبط إكسسوار يدها الذي وضعته على معصمها لتخفي هذا الضماد عن جدها، فهي لا تملك الشجاعة لتخبره بما فعلت، رسمت على وجهها ابتسامة ودخلت منطلقة تلقي نفسها بين أحضان جدها الذي تفاجأ بوجودها قائلة: مفاجأة أليس كذلك؟

استقبلها الجد بسعادة فهي أكثر مَن يدخل البهجة على قلبه، ولكن قال مستفهمًا: أين زوجك؟

قالت بابتسامة: أردت أن أمكث معك عدة أيام، ليس متفرغًا لذلك فقررنا أن آتي بمفردي.. هل لديك مانع أن تستضيفني قليلًا.

ابتسم مقبلًا رأسها وضمها قائلًا: لو كان الأمر كذلك يا حبيبة القلب فليس لديّ أي مانع.

_ سأذهب لأبدل ثيابي وأعود نفطر سويًا بالحديقة ما رأيك؟ إياك أن تكون قد سبقتني.

_ تعرفين أني أشرب فنجان قهوتي أولًا، وها أنا كدت أنتهي منه قبل أن تطل عليّ الشمس بجمالها.

ابتسمت لغزل جدها، وقبل أن تتحرك أوقفها قائلًا: واستعدي كذلك لتخبريني ما الأمر؛ فلم يدخل رأسي أنّه مشغول، أنسيتِ أنّه حفيدي وأعرفه جيدًا.. هذا الولد لن يتركِكِ تبتعدين عنه بهذه السهولة.

_ قالت محاولة إقناعه: ما المشكلة؟! اتصل به واسأله.

_ قال محذرًا: إياكِ ومحاولة خداعي، ما يهمني الآن أنّ زوجك راضٍ عن وجودك هنا.. وبعدها نتحدث كما نشاء.

_ لا تقلق يا جدي وسأُخبرك بكلّ شيء.

اتجهت بعدها لغرفتها مقررة أن تأخذ رأي جدها ربما حصلت على مساعدته، ولكنّها بالطبع ستحذف من القصة ما فعلته بالأمس!

....

رجع عادل على كرسيه رافعًا حاجبيه بذهول، أيمكن أن يكون حدث ذلك وهو جالس أمامه يخبره بهذه السهولة!

_ قال فارس ضاحكًا بسخرية: هربت عند جدك.

_ وماذا بعد؟

_ قال بحرج: اتصل بجدك لأي سبب وطمئني عليها.

_ أمسك بالهاتف ضاحكًا وقال: ملكتنا الصغيرة هذبتك يا رجل.

_ اتصل يا عادل لا ينقصني سخريتك.

_ أتعلم لو فعلت ذلك بك أي فتاة أخرى غيرها لكان من الممكن أن أحزن على حال أخي الذي قلبه الحبّ، ولكنّي سعيد بما تفعله بك صغيرتنا.

_ وقف فارس قائلًا: تريد أن أندم على لجوئي لك؟

_ وقف عادل مبتسمًا يدفعه بيده ليجلس مرة أخرى قائلًا: لا أحد معنا الآن فلا داعي لكلّ هذه المبالغة، اجلس.

_ أمسك رأسه بنفاد صبر وجلس قائلًا: اتصل به وبعدها سأتركك تقول ما تشاء.

وضع الهاتف على أذنه وهو يضحك، ليستقبل صوت جده بمرح قائلًا: جدي الحبيب كيف حالك؟

أشار له بفتح مكبر الصوت، لينفذ بابتسامة ويأتيهما صوت الجد قائلًا: كيف حالكم جميعا؟

_ بخير يا جدي والحمد لله.

_ إذًا ما الذي ذكرك بي في الصباح هكذا يا دكتور؟

_ قال محاولًا إيجاد أي حديث: لا أشعر أني طبيب إلّا عندما تناديني بها.

_ ضحك جده قائلًا: هي حقيقة يا حفيدي الغالي، ولكن أخبرني ما السبب؟

_ قال ضاحكًا: أسألك لو كنت تريد شيئًا، سنأتي جميعنا آخر الشهر لقضاء عدة أيام معك نستمتع بجمال الحديقة وكراسيها الخشبية ورائحة زهورها.. وهكذا يا جدي.

ـ قال نجيب ضاحكًا: إذًا أخبر الجالس جوارك أنّها بخير في عيون جدها وإذا أراد شيئًا مرة أخرى يتصل هو مباشرةً.

ـ ضحك عادل قائلًا: دائمًا تبهرني.

ـ قال بحدة: هل أفلست الشركة لدرجة هذا الفراغ الذي أصابك؟!

ـ أبدًا تعرفني، ولكن رأفة بحال حفيدك الثاني ألا يستحق؟

ـ لا أُشفق على أحد لأني سأفطر في الحديقة مع الطبيعة والوجه الحسن ولعدة أيام.. ماذا أحتاج أنا أكثر من ذلك.. أغلق الآن لا أريد أن أُضيع الوقت فحفيدتي الجميلة تنتظرني.

نظر عادل لأخيه الذي احمر وجهه، وقال ضاحكًا: هكذا هي الدنيا يومًا لك ويومًا لغيرك.

غادر فارس المكتب دون محاولة الرد.

....

جلست أمام جدها على الطاولة بوسط الحديقة، تركها عدة أيام وانتظر منها المبادرة ولكن لم يكن عندها الشجاعة.

ـ طالما لم تحاولي إخباري بمفردك فها أنا الآن أريد أن أعرف لماذا لا تحدثين زوجك؟ لماذا تجعلينه يتلصص أخبارك؟ أتعتقدين أنه لو أتى هنا ليأخذك سأستطيع منعه.. إنّه زوجك وليس لي الحق في منعه إلّا إذا تعدى حدود الله معكِ فأنا له.. هل فعل ذلك؟

حركت رأسها بالنفي، انتظر ردها لتجلي صوتها أخيرًا وتقرر إخباره كلّ شيء فقد فكرت كثيرًا كيف ستقنعه بما تريد.

وبعد أن انتهت من سرد الأمر كلّه حاذفة ما ليس لصالحها، ظلت تنظر إليه تنتظر حديثه لفترة أصابتها بالتوتر، ليقول أخيرًا: تعلمين كم أن أحفادي كلهم شيء وأنت شيء آخر؟

ابتسمت ليكمل قائلًا: أخذتِ جزءًا من قلبي منذ صغرك وها أنا زوجتك الوحيد الذي يستحقك ويستطيع الحفاظ عليكِ.. ولو عندكِ رأي آخر أخبريني وأنا فورًا أُصحح ما أخطأت به.

قالت محاولة أن تخفي أمر طلبها الطلاق نهائيًا، فمع جدها كلّ كلمة لها معنى: لا يا جدي لم تخطئ.. أنا لم أتمنَّ أحدًا في حياتي سواه.

_ إذًا ترينه يستحقك ويستحق حبك؟

ابتسمت بخجل، ليكمل: مشاعرك وعرفناها.. ما رأيك بمشاعره؟ أتشكين في حبه لكِ؟ تعرفين عنه شيئًا لا أعرفه، هل مثلًا زائغ العين؟

_ قالت نافية بسرعة: لا أبدًا.

ابتسم فأردفت بخجل: فارس جريء ولكنه صراحة لم يفعلها إلّا معي.

_ أخفى نجيب ابتسامته قائلًا: لا أفهم، أكان يعاكسكِ؟

_ أقصد أنه لم ينظر سوى لي.. لم أرَه يومًا ينظر لأي فتاة، حتى عندما عدت ولم أخبره مَن أكون لم أُلاحظ أنه التفت لفتاة سواي.

_ بصرف النظر الآن على عدم غض بصره وأنّنا والحمد لله زوجناكِ له وليسامحه الله على ما فات.

ضحكت فأكمل: إذًا تملئين عين زوجك ويحبك ويقدرك، بالإضافة إلى أنكِ ابنة عمه وقد تربيتما في بيت واحد وهذا يجعل الإحساس بالمسؤولية قويًا وارتباطه بكِ أشد، أليس كذلك؟

_ مؤكد.

_ أكمل مختصرًا الكلام عند هذه النقطة: أبوكِ طبيب وهذا رأيه وهناك رأي ابن عمك هو الآخر طبيب، وزوجك أخبركِ أنّ هذا الأمر لا يهمه، وهو الوحيد الذي له الحق في قول ذلك.

لم تحاول الرد، فقال مكملًا: تتحدثين الآن عن شيء لا يراه أحد حتى أنتِ فلماذا لا تثقين في كلامه؟ ما الداعي لخلق مشكلة بينك وبينه وكأنكِ تبحثين عما يعكر حياتك؟

_ قالت بارتباك: وهل من فتاة لا تحبّ أن تكون جميلة في عينيّ زوجها؟

_ وأنتِ كذلك في عينيه وفي عيون كلّ مَن حولك.

_ ربما شهامة منه تمنعه أن يجعلني أشعر بذلك.

_ وأنتِ أعطيته الفرصة أكثر من مرة وباعترافك هل استغل الفرصة لينفد مما تتخيلينه؟

ظلت صامتة ليقول مكملًا: هل خلقنا الله متشابهين؟ الناس مختلفة في اللون والشكل والطباع.. هناك مَن هم يولدون بعيوب وراثية ومشاكل

صحية ويتأقلمون مع حياتهم رضا بقضاء الله وقدره، مشكلتك ليست بزوجك يا مليكة فهو راضٍ بكِ وسعيد.. مشكلتك بكِ أنتِ.. ولا أخفي عليكِ لقد كبر هذا الولد في نظري عندما تركتكِ هنا كما تشائين رغم أنّه ليس من حق أحد منعه عنكِ حتى أنا.

انتظر منها ردًا فلم تتحدث فقط تساقطت دموعها، فقال: أسبوع وستكون العائلة كلها هنا وبالطبع زوجك سيأتي ووقتها لم يعد لبقائك هنا معنى، لن أشجعكِ على ترك بيتك أكثر من ذلك واعلمي أن هذه المدة كانت من طيب خلقه وسماحته وليس شطارة منكِ ولا خوفه منّي.

....

عاد له هذا الشعور مجددًا، يراها في الوجوه، يشعر بها في رأسه تتحدث، أمعقول أنّ هناك توارد خواطر بينهما؟

كيف كانت بجواره كلّ هذه المدة ولم يحاول سؤالها والبحث معها عن سبب لما يحدث له، هل خشي أن يبدو أحمقَ أمامها؟ لو فقط فتحت هاتفها الآن وأراحته.

هل هناك تلك الموجات الكهرومغناطيسية نشأت بينهما منذ الصغر؟

هل تدرك هي هذا الأمر كما أدركه هو منذ فترة؟

للأسف ليس هناك طريقة الآن ليعرف رغم أنّها أصبحت زوجته!

مدّد جسده على الأريكة الموجودة في صالة منزله ليخبر نفسه أنّه ليس غريبًا أن يفكر في زوجته ولا غريبًا أن تفكر فيه هي، إذًا ماذا يفعل الآن أيتصل بجده مجددًا ويتحمل سخريته؟

لا، يكفي ظهوره بمظهر المراهق، ليقرر أن يبعث لها رسالة يطمئن عليها، وإن لم ترد عليه سيفعل ما كان يجب عليه فعله.

ولكنّه لم يكن يعلم أنّ رسالته قد وصلت إليها بالفعل قبل أن يكتب حروفها، تفاجأ برنين هاتفه باستلام رسالة ليجد ردًا على رسالته التي لم يكتبها: (حبيبي أنا بخير وسأكون بخير أراك آخر الأسبوع)

وقف يمسك رأسه وهو يقرؤها... أي مصادفة هذه!

قرّر مغادرة المنزل فمؤكد الوحدة التي يشعر بها هي السبب.

بعد فترة في منزل العائلة حاول هو أن يبدو الأمر طبيعيًا، تفاجأ بوجود خالد ورحيق وقد جلست الأخيرة بجوار حماتها بمحبة واضحة، ليقول متظاهرًا المرح: ما هذه المصادفة الجميلة؟

أتاه صوت خالد قائلًا: ليست مصادفة إنها نهاية الأسبوع أنت مَن نسيت.

خبط رأسه متذكرًا، ليقول عادل بسخرية: مَن أخذ عقلك؟

رد خالد: جدك أخذ عقله.

جلس معهما على طاولة العشاء محاولًا عدم الالتفات لحديثهما، فقالت إحسان: أين مليكة؟

تفاجأ بعدم علمها بالأمر ليندم على مجيئه، لهذا لم يذكره أحد بعشاء اليوم، حاول الحديث بود متظاهرًا أنّ الأمر عاديٌّ: تعرفينها يا حماتي تحب الحديقة وتفتقد جدها دائمًا، تنسى نفسها هناك وأنا مشغول هذه الفترة، سنذهب آخر الأسبوع وتعود معنا إن شاء الله.

ابتسمت إحسان لمجاملته لندائها بحماتي لأول مرة وكأنّه يبعث لها رسالة ضمنية ليطمئن قلبها، وبعد العشاء جلست بعيدًا عن الجميع، فلم يغب عليها ارتباكهم أمام سؤالها.

أشار خالد لفارس ملفتًا نظره لها، فتحرك متجهًا إليها وجلس بجوارها قائلًا: أفهم من ذلك أنّ دون مليكة لا تجلسين معنا؟

أخفت إحسان دموعها تقول وكأنّها تترجاه: مليكة تحبك.

_ وأنا أحبها يا عمتي.. يصيبني الجنون بعيدًا عنها.. رأيتِ عقلي ليس بي نسيت في أي يوم نحن.

نظرت له بشك ليعود ويقول: هل كان يجب أن أرفض أن تذهب لجدها ونتشاجر حتى يكون الأمر طبيعيًا؟

حركت رأسها رافضة، ليكمل: إذًا اطردي هذه الأفكار من رأسك.. أعلم ما تخشين منه جيدًا.. اطمئني هل أنا بهذا الغباء لأُفرط بها لأمر كهذا؟

ابتسمت إحسان وهي تربت على كتفه فمسك يدها ومال مقبلًا إياها، ليجد والدته تقف أمامه لا يعرف من أين ظهرت وقالت: هل أصبحت أمك أنت الآخر ونسيتني؟

ووجهت حديثها لإحسان وقد مال فمها: هل أرضعتِ هذا أيضًا وأنا لا أعلم؟

وقف فارس صارخًا: لا، أنتِ هكذا ستدمرين حياتي.. يكفيها مليكة فقط.

....

في يوم تجمع العائلة عند الجد، وقف كلّ من فارس وعادل بسيارتهما بانتظار الجميع للركوب، أما خالد فسيلحق بهم مع زوجته والتي لأول مرة تذهب لمنزل المزرعة.

ركب هاشم وفاطمة مع عادل، فقال فارس لوالده: هكذا إذًا يا أبي.

رد والده قائلًا: لا أطيق قيادتك لن أتحمل.

وقفت إحسان بتردد فقال فارس: هل ستفعلين مثلهما؟

ركبت بجواره بتردد، وبمجرد أن بدأ الجميع بالتحرك كانت تندم ألف مرة على طيبتها التي جعلتها تركب مع هذا المتهور.

_ انتبه للمطبات يا فارس.

_لا تخافي أراها جيدًا.

ولكن كعادته لم ينتبه أنه تجاوز السرعة المسموحة منذ فترة، ليفيق على إحسان التي تنطق الشهادة فقال مبتسمًا: ماذا بكِ يا حماتي.. لقد انتبهت لكلّ المطبات كما تريدين.

_ لن أتحمل معك لآخر الطريق.. لا لا لن أستطيع.. أوقف السيارة.. أوقفها سأركب معهم.

أطاعها ليشير للسيارة الأخرى التي ظهرت أخيرًا خلفهم، نزلت إحسان مسرعة تحمد الله على نجاتها، وهو خلفها يحدث والدته التي خرجت برأسها من النافذة قائلة: انتبه على نفسك، لماذا التعجل يا ولدي؟! لا أستطيع رؤية سيارتك تنطلق هكذا.

_ ضحك قائلًا: لا عليكِ يا أمي لن أجعلكِ ترينها.

بعد فترة وصل فارس قبل الجميع، ليخرج من السيارة متلهفًا اللقاء، وبمجرد دخوله المنزل وقف أمام جده يأخذ أنفاسه محاولًا عدم إظهار لهفته، سلم عليه بحفاوة: جدي حبيبي.. كيف حالك؟

ضحك نجيب قائلًا: أين هم؟

_ الجميع في سيارة عادل فضلوا الركوب معه، وخالد مؤكد في الطريق هو الآخر.

استند جده على ذراعه قائلًا: هيا لننتظرهم بالخارج لقد أحببت الجلوس في الحديقة في هذا الوقت.

كانت عينيه تتحرك باحثة عن مبتغاه فقال: أين هي؟

تحرك جده جاذبًا له باتجاه الحديقة وقال: تقصد مَن؟

_ أين مليكة يا جدي؟

_ ربما ما زالت بالأعلى.. لا أعرف.

وقف بجواره في الحديقة يلتفت حوله حتى وصلت سيارة عادل أخيرًا وبدأ الجد في استقبالهم واتجه الجميع إلى داخل المنزل ليقول نجيب: ماذا تنتظر؟! تعال يا بني.

جلس الجميع داخل المنزل ينفضون تعب الطريق لينظر نجيب لفارس الذي ظل واقفًا وقال: اجلس.

جلس الأخير بقلة حيلة، وبعد دقائق وقف مرة أخرى يحاول الانسحاب بهدوء فقال نجيب: ماذا بك؟!

فقالت إحسان : أين مليكة؟

رد نجيب بسعادة: ربما نامت قليلًا.. إننا ننام مبكرًا ونستيقظ لنصلي الفجر ونظل في الحديقة نتسامر ونتحدث حتى الشروق وأحيانًا حتى الظهر.

ضحك عادل هذه المرة فجده يتعمد إغاظة فارس، وقف الأخير وهمّ بالتحرك ليجد جده مصرًا على ما يفعل قائلًا: انتظر لأقصّ عليك ماذا جعلتني أفعل هذه العفريتة.. أشعر أني عدت شبابًا بوجودها.

فقالت فاطمة: اتركه يا حاج يذهب لزوجته.

تحرك فارس مسرعًا، لا ينتظر الرد هذه المرة ليجري على درجات السلم المؤدية للدور العلوي حيث الغرف، واتجه مباشرةً لغرفتها يفتحها بتهور؛ لكنّه أُصيب بخيبة أمل عندما لم يجدها، أغلق الباب ونظر حوله فوجد السيدة التي تقوم بتنظيف المنزل: أين مليكة ألم تنم في هذه الغرفة؟

_ لا يا سيدي إنها تنام هنا.

اتجه بسعادة إلى حيث أشارت فقد كانت غرفته، وبنفس التهور فتح الباب ليصاب بخيبة أمل أكبر من سابقتها، نظر في أرجاء الغرفة ولكن بالفعل أغراضها تملأ المكان، تحرك مقررًا عدم التسرع مرة أخرى، نزل السلم بخفي حنين ونظر لجده بترجٍ قائلًا: أين هي يا جدي؟

ضحك مقهقهًا وقال: ابحث عنها بالخارج.

خرج ولم يهتمِمْ بالتعليقات من خلفه، يبحث في الحديقة وحول المنزل حتى فشل في إيجادها، فبالطبع لا يعلم أنّها دخلت المنزل من اتجاه آخر، ليقرر أخيرًا أن يجلس بجوار إحدى الأشجار ساندًا ظهره على جذعها يخبر نفسه أنه حان التأكد من هذا الإحساس الذي يراوده دائمًا.

بمجرد خروج فارس من المنزل قال هاشم لوالده: هل تحدثت مع مختار قريبًا يا حاج؟

_ لا يا ولدي لم يتصل ولم أحاول الاتصال به.

قال محاولًا تمهيد الأمر لوالده: لا أعتقد أنه سيعود قريبًا.

تفاجأ الجميع بنجيب يضحك قائلًا: لن يعود أعلم ذلك.

اندهش الجميع وأولهم هاشم الذي قال: هل أخبرك شيئًا؟!

_ لم يتحدث... أعرف ابني جيدًا منذ حضر يقدم فروض الولاء والطاعة نادمًا على ما فات وأنا متوقع ما سيفعله.

_ وطالما توقعت ذلك لماذا أعطيته ما يريد؟!

_ وافقته من أجل أن أطمئن عليها، كنت سعيدًا لأنّه فكر لأول مرة في مصلحة ابنته.

_ قال هاشم بغضب: إنه خدعنا، كذب علينا من أجل أن يزوج ابنته لابني.

_ قال نجيب لائمًا: وحتى لو لم تتزوج ولدك كان سيتركها ويسافر عندما يطمئن أنّها بيننا، هناك أشخاص يا هاشم لا يستطيعون سوى التحليق دون قيود ولا واجبات، لا يستطيعون تحمل مسؤوليات، أعلم أني السبب في هذه الأنانية التي كبرت بداخله، المهم الآن أني أخذت ما أريده وأنه بخير طالما لا يضر أحدًا.

_ قال بأسى: وابنته؟ إنّه لا يعرف عنها شيئًا، رماها وسافر حتى دون أن يراها بعد زفافها.

_ واثق أنها بخير بيننا.

_ وهل ستعطيه ما يريد؟

_ ضحك نجيب قائلًا: حقه سيكون لابنته، سأجعله يسأل عنها رغمًا عنه.

وفي هذه الأثناء ظهرت مليكة التي كانت تقف بعيدًا تسمع الحديث من بدايته لتقول: لا تشغل بالك يا جدي أنا اعتدت على ذلك، حتى وأنا معه في نفس البيت كان ينسى وجودي.

لتكمل مبتسمة تنظر في وجوه الموجودين ربما يدلها أحدهم عما تبحث عنه: محتمل أن يكون تزوج الآن من أخرى فهو لم يعتد على شيء سوى الزواج.

اندهش الجميع بما فيهم جدها لتكمل قائلة: تزوج على ما أتذكر خمس مرات.

ـ ليقول هاشم بصدمة: وهذه التي سافرت معه؟!

_ نسيت... بالإضافة لها.

لتكمل متجاهلة صدمتهم: أين باقي العائلة؟

قال عادل مشفقًا عليها لسماعها ما قيل منذ قليل: فارس يبحث عنكِ بالخارج.. وخالد لم يصل بعد.

ابتسمت له بخجل وتحركت مسرعة خارج المنزل تبحث بعينيها يمينًا ويسارًا لتقرر السير عكس الاتجاه الذي عادت منه ربما لهذا السبب لم ترَه.

لمحته من بعيد يجلس تحت أحد الأشجار يستند برأسه على جذعها مغمض العينين، اقتربت بهدوء مشتاقة له كاشتياق الشجر للربيع، كأمطار تسقط على ورود كادت تموت لتنعش حياتها بعد ظمأ طويل، كأوراق ذابلة وجدت سعادتها بالطيران في جو الخريف، وقفت أمامه مبتسمة فأخيرًا أشرقت شمسها بعد أن مرت بكل الفصول.

ما زال مغمض العينين، أمستمتع هو بصفعات الهواء له! لتجده يبتسم دون أن يفتح عينيه وما زال كما هو.

_ فارس.

فتح عينيه بتكاسل، ينظر لها يتأملها، ما زالت تخفي بحور عينيها بتلك العدسات التي كرهها ولا يستطيع أن يقول، تفاصيلها مرضية لذلك الشيء الذي بداخله.

مدّ لها يده دون أن ينطق لتلبي طلبه وتضع أصابعها في راحته تخجل من لمساته رغم أنّهما زوجان، جذبها لتجلس بجواره فقالت محاولة كسر حاجز الصمت: لماذا تجلس هكذا؟

ليجيب وقد أخذت عيناه تحاولان الشبع من تفاصيلها: كنت أنتظركِ، فشلت في العثور عليكِ فقررت أن أعثر عليكِ بطريقتي.

_ هل كنت تبحث عني في أحلامك؟!

_ أجل.

ضحكت لمبالغته فقال: ألا تصدقينني؟

_ وماذا رأيت في أحلامك؟

_ ابتسم بغرور وقال: انظري لما ترتدين.

نظرت لملابسها بعدم فهم لتعود وتنظر إليه بابتسامة قائلة: ترتدي نفس الألوان.. كيف ذلك؟

نفس البنطال الجينز الأزرق بدرجته الفاتحة، عليه قميص أبيض ناصع البياض لتزينه هي بحجابها الوردي المنقوش بالزهور، لم تعتد على ارتداء

هذا اللون ولم يحدث من قبل أنّها رأته يرتدي قميصًا على الجينز، فدائمًا ما يفضل الاستعراض بعضلاته.

تذكر عندما وقف صباحًا أمام خزانة ملابسه وأغمض عينه يتخيّلها؛ ليجد نفسه دون شعور يختار هذه الملابس، قال بابتسامة: افعلي مثلي وسأُخبرك.

أغمض عينيه سانِدًا على جذع الشجرة وذهب لهذا العالم الذي كان به منذ قليل، لا يفكر في شيء سوى بها.

أغمضت عينيها ولكنّها أسندت رأسها على كتفه وقد أمسكت بذراعه، وما زالت يده تحتضن يدها منذ عثر عليها، وبدأ حديث القلوب، وما أبلغ هذا الحديث! يخبرها ما يريد وتستمع له بسكون دون أن ينطق بأي كلمة، فلكلّ حبيبين لغة هي سر بينهما، وهناك على نفس الأرض حبيبان آخران اتفقا على لغة أخرى وحروف خاصة تكتبها النظرات.

دخل خالد ورحيق المنزل وقد أمسكت بيده على استحياء فهذه المرة الأولى التي تقابل فيها الجد، رحب بهما الجميع، ليقترب خالد من جده قائلًا: رحيق يا جدي.

وقف نجيب مستندًا على عصاه وقال: تبارك الله، أصبح لدينا أميرة أخرى تنافس مليكة جمالًا وبهاءً.

ليميل الكهل مقبّلًا رأسها وقد لاحظ شدة خجلها فقال: وإياكِ أن تغار منكِ ملكتنا.

لم تحاول التحدث أمام مغازلة الجد فقال خالد: أتعلم يا جدي لو أن غيرك عاكس زوجتي ماذا كنت أفعل؟

ضحك نجيب قائلًا: كنت ستفعل ما كنت أفعله وأنا في سنك يا بني.

جلس الجميع لبعض الوقت يتبادلون الأحاديث وقد اقترب وقت الغداء وبدأت إحسان وفاطمة في الإشراف على إعداد الطعام ليقول نجيب: أين اختفيا فارس ومليكة؟

قال عادل: حاولت الاتصال هاتفهما لا يرد.. ربما على وضع صامت.

وقف خالد قائلًا: سأبحث عنهما بالخارج مؤكد نسيا نفسيهما كالعادة.

ليجذب يد زوجته ويخرج بها وكأنّ التصاقها به أمر طبيعي، خرج الاثنان يدوران حول المنزل، يسيران على مهل غير متعجلين، فلقد استغلا الفرصة للاستمتاع بالمكان: أتعرف أني أول مرة آتي لهذه الأجواء.

اندهش خالد قائلًا: ألم تكن عائلة والدك تعيش في قرية؟

_ أجل ولكن لم نذهب هناك، أبي كان على خلاف مع عائلته منذ تزوج أمي ومن وقتها ليس لنا علاقة إلّا بعمي.

هز خالد رأسه بتفهم ليجدها تبتسم وتشير له برأسها قائلة: انظر.

نظر لما تشير فوجد فارس وقد نامت مليكة على كتفه وكأنهما لوحة ثابتة.

_ طوال عمرهما هكذا إما يتعاركان أو يصمتان.

_ لو كنت مكانها وبعد كل هذه الفترة ما كنت لأصمت أبدًا.

ضحك قائلًا: وستقصين عليَّ حكاية جديدة من حكايات شهرزاد، هيا لابد أن نخرجهما من هذه الحالة قبل أن يعثر عليهما غيرنا.

قالت وهما يسيران باتجاههما: هل يحبان بعضهما منذ الصغر؟

_ لم يكن هناك هذا النوع من التخطي، ولكن كان كل واحد فينا بداخله متأكد أن مليكة لن تكون سوى لفارس، دائمًا كانت النظرات بينهما مختلفة، حتى هو كان يتعامل وأمام الجميع أنّها تخصه ولم يعترض أحد، ولا أعرف هل أقول للأسف أم لحسن الحظ وصلها هذا الإحساس منذ صغرها ليصبح أمرَ واقعٍ، أتعرفين هكذا كانت ملتصقة به منذ طفولتها، تقلده في كل شيء.. تتحرك مثله.. تتحدث مثله.. تلعب الرياضة مثله، أسمعتِ من قبل عن توءم الرّوح ها هما أمامك.

اقترب منهما قائلًا: إلى متى ستظلان هكذا.. ألم تشعرا بالجوع؟!

فتح الاثنان عينيهما بتكاسل يصحبه ابتسامة هادئة فصوت خالد لم يكن أبدًا بالنسبة لهما يسبب الإزعاج.

وقف فارس دون أن يتحدث يساعدها على النهوض، ليتفاجأ بها وبمجرد الوقوف تعلقت برقبة خالد قائلة: كيف حالك؟

أبعدها فارس حاملًا إياها من خصرها كما اعتاد أن يفعل وقال: لا فائدة بكِ.

ضحك خالد قائلًا: والله لا فائدة بك أنت.

دخل الأربعة المنزل بمرح وكان قد تم الانتهاء من إعداد الطعام على المائدة، جلس خالد ورحيق، واستعدّ فارس للجلوس لترجع مليكة بظهرها مبتعدة، لم يلفت ذلك انتباه أحد سوى فارس الذي تحرك تجاهها قائلًا: ماذا بكِ؟

وضعت يدها على فمها وتحركت مبتعدة عن المكان، ليذهب وراءها وقد اتجهت لدورة المياه بعدما أصابتها رائحة الطعام بالغثيان.

نظر الجميع لبعضهم على المائدة ليقول نجيب: ماذا حدث؟

قال عادل وقد بدأ في تناول الطعام: الأكل سيبرد أنا لن أنتظر أحد.

قال هاشم موبخًا: انتظر لنرى ماذا بها زوجة أخيك.

أكمل عادل أكله دون اهتمام قائلًا: وما دخلي؟ ليست زوجتي ثمّ إنها أمور عادية.

ابتسمت فاطمة وإحسان وقد بدأتا في تناول الطعام، لينظر باقي مَن هم على المائدة لبعضهم باندهاش، فقال نجيب: ما هذه اللا مبالاة ألن تقوم إحداكما لترى الفتاة؟

قالت إحسان: زوجها معها.

كادت رحيق تتحرك، فأشار عادل لخالد بلا، فابتسم الأخير وأمسك يدها يمنعها وقال: واضح أنّ هناك أمرًا يعلمه دكتور عادل وقد احتفظ به لنفسه.. لا أعرف بأي حق ولكن يتلقى حسابه من أخيه ليس لنا دخل.

ضحك عادل وقد أوشك على إنهاء طعامه وقال: حاولت أن أخبره بضرورة عمل تحاليل، ما ذنبي؟!

قال نجيب مستوعبًا الأمر: قومي يا إحسان لابنتك أم أبعث حماتها؟

جلست مليكة على إحدى الأرائك القريبة من دورة المياه وبجوارها فارس يقول بقلق: ماذا أكلتِ صباحًا؟

_ لا شيء، لم أطِق رائحة الطعام.

_ ربما الجلوس في الحديقة أصابك بالبرد.

سمعت إحسان آخر كلامه فقالت: ليس بردًا.

وقف لتجلس مكانه تضمها إليها قائلة: مؤكد حامل يا حبة الروح مبارك عليكِ حبيبتي.

نظر الاثنان لبعضهما لدقائق قبل أن يقول فارس بابتسامة: ولماذا أنتِ متأكدة هكذا؟

قالت إحسان بثقة: عادل أكد ذلك.

قال مندهشًا: ومن أين لعادل أن يعرف؟ هل هو ساحر؟

قالت وكأنّ لا يهمها حديثه: يقول أخبرك ولكنّك لم تفهم.

أمسك فارس جبهته يتذكر طلب عادل إجراء فحوصات وتحاليل لمليكة ولم يفسر نوع التحاليل وطبعًا هربت هي صباحًا، قالت إحسان: خذ

زوجتك تستريح بغرفتها وأنا سأجهز لها بعض الطعام الذي تحبه، وأنت انزل لتأكل بعيدًا عنها.

ابتسم وهو يجذب يد زوجته قائلًا: سآكل معها لا تشغلي بالك بي.

صعد الاثنان للغرفة التي تبيت بها وبمجرد أن أغلق الباب جذبها بين ذراعيه وقد قاوم أن يفعل ذلك منذ الصباح وقال: واضح أنكِ لن تستطيعي التخلص مني أبدًا.

_ الأمر ليس مؤكدًا، انتظر حتى نذهب للطبيب.

_ في كلّ الأحوال انتهى أمرك يا ابنة العم أنا قدرك.

_ أخذت قراري يا فارس.

تجهم وجهه لترى ذلك العرق النابض في جبينه فقالت: أعلم أن عندي مشكلة مع نفسي ليست هينة، ولكن وصلت لنتيجة يجب أن تعرفها.

لاحظت اعتصاره لقبضة يده وقد أصبحت وسيلته في الفترة الأخيرة للسيطرة على أعصابه، جذبت يده ببساطة وفتحت أصابعه بيدها الأخرى لتضع يدها على راحته وتغلق أصابعه عليها وقالت: قررت أن أترك حياتي لك لأني أثق بك أكثر من ثقتي بنفسي، فكرت جيدًا ووصلت أن أفعل ما تريد، ليس لأني مقتنعة بهذا القرار ولكن لاقتناعي أنك ترى أفضل مني، أسير وراءك مغمضة العينين وأنا أعلم أني سأظل في أمان.

ليس المهم كيف كانت البدايات
أو حتى متى بدأت الحكايات
المهم أن تستمر الحكاية للنهاية
فالسعادة تستحق الانتظار
الوقت المناسب هو الوقت الذي كتبه الله لك بأن يكون مناسبًا
وليس المناسب من وجهة نظرك أنت
فالله يعلم وأنتم لا تعلمون

****

تمت بحمد اللّه

رواية
صبابة وثورة شك
مي حسام أبو صير
الطبعة الثالثة
1444 هـ 2023 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.